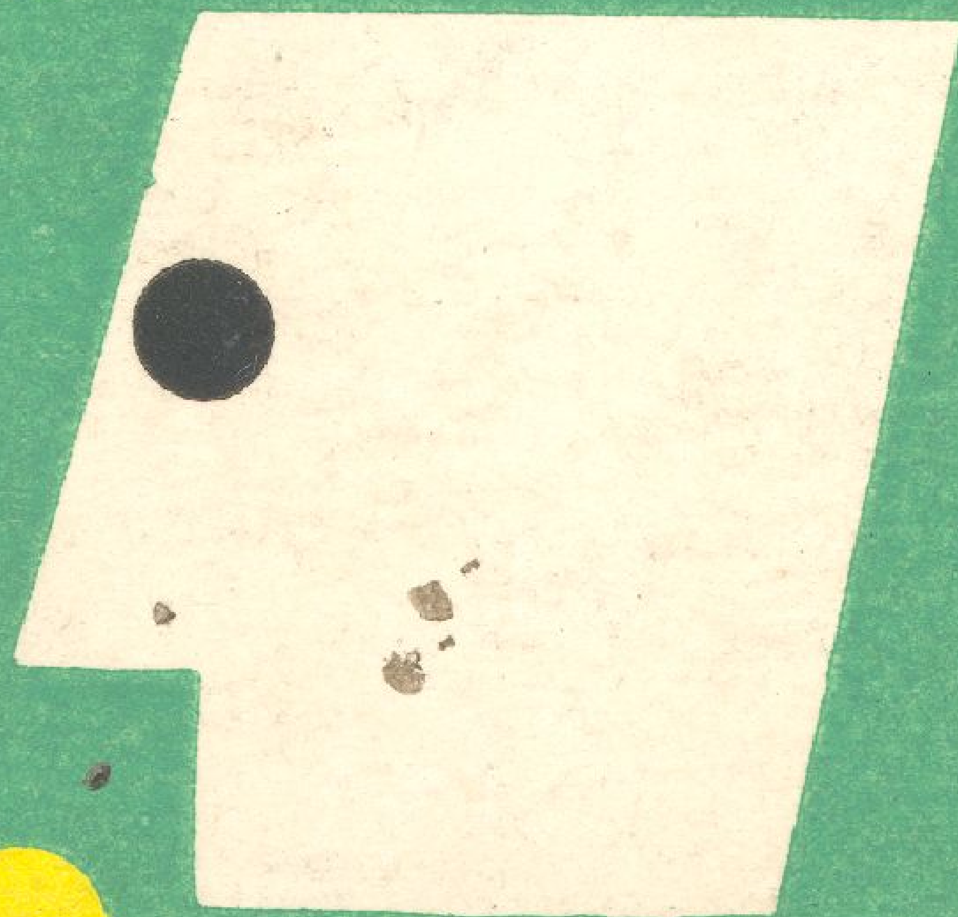
كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية

الجزء الأول



تأليف : سامية القطان

تقديم ومراجعة : صلاح مخيمر

إهـــــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية

تأليف

الدكتورة سامية القطان

دكتوراه في العلاج النفسي - جامعة الكاثوليك

واشنطن

تقديم ومراجعة

دكتور صلاح مخيمر

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الايداع ٤٣٢٦ / ٨٠
الرقم الدولى ٠٤٩ ـ ٢٢٦ ـ ٩٧٧

مقـــدمة المؤلفة

كان ذلك منذ سنوات عندما برزت فى رأسى فكرة هذا الكتاب كحلم بعيد يراود خيالى بينما كنت غارقة فى أول دراسة كلينيكية مكتملة بالنسبة لى وبالنسبة الى كليات التربية بمصرنا الغالية ٠ وبعد ذلك تتابعت الدراسات الكلينيكية فى رسائل الماجستير والدكتـــــوراه وكانت كلها بالضرورة تحت اشراف استاذى الدكتور مخيمر الذى كان وما يزال رائد الكلينيكية الذى أرسى دعائمها فى مصر كمنهج من المنهجين العملاقين فى علم النفس سيان فى صورتها الخالصة أو فى صورتها التى تعرف بالكلينيكية المســلحة ٠ وما أكثر ما عانى حتى يتيح للكلينيكية مكانها الى جانب التجريبية فى كلية التربية الأم بجامعة عين شمس قبل أن يمضى بها مريدوه الى بعض الجامعات الاقليمية ٠

وكان استاذى يبذل من الجهد المضنى باخلاص العالم وتفانيه ممـــا يتحدى كل قدرة على الوصف وهو يعد الواحد بعد الآخر من طلبته مريدى الكلينيكية التى تستهدف فهم الانسان فى أعمق أعماقه على الطريق الى علاجه عندما يقتضى الأمر ٠ ويتميز استاذى على غزارة علمه ومعارفه بانفتـــاح عقلى يرحب بكل جديد ٠ ويتقبل برحابة صدر كل ما يصدر عنا نحن طلبته من انتقاد أو اعتراض على آرائه ومن هنا فقد تابعناه وتبعناه يمضى فى مسار حياته من التحليل النفسى الذى يرفض ما عداه الى الانتقائية العلاجية التى تنفتح لكل النظريات وتستعين بشتى فنيات العلاج النفسى تبعا للخصوصية الفريدة للحالة موضع العلاج ٠

برزت فكرة هذا الكتاب منذ سنوات وراحت تقوى مع الزمن يشد من أزرها ما استشعره فى أعماقى من اشفاق على أستاذى وهو يتجشم أعظـم العناء فى تدريب طلبته على الكلينيكية والتشديد عليهم فى مراعاة معاييرها بحيث ترتد كثرة الوقائع على تباينها الى وحدة المبدأ التفسيرى الواحد ٠

وبجامعة الكاثوليك بواشـــنطن تحول الأمل الذى كان يراوضنى الى تصميم يبلغ مستوى العقيدة ٠ وما أسعدنى اليوم عندما أقدم هذا الكتاب وفاءا لأستاذى ولدينه الكبير الذى يحتم على أن أكون حلقة فى تتابع الأجيال

العلمية تنقل الى الخلف خير ما أخذته عن السلف وقد اضافت اليه ما يشاء الله لها من اسهامات فى العلم ٠

ويزداد اليوم عرفاني لأستاذى وقد دفعه حرصه العلمى على أن يتفضل بمراجعة هذا الكتاب فى أدق تفصيلاته قبل أن أدفع به الى المطبعة ، بينما دفعه تقديره العلمى لى الى أن يخص كتابى هذا بتقديم يعتبر بذاته اسهاما عملاقا فى مجال مناهج البحث فى علم النفس ٠

والله الموفق ؟

سـامية القطان

١٩٧٩/١٢/١٧

فهـــرس الجـزء الأول

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

تقـــديم

بعد ثلاثين عاما من التخصص النفسى أجدنى على قناعة تامة بأمرين، هما وان لم يضعانى فى خصومة صريحة مع أستاذى لاجاش (الذى أرسى دعائم المنهج الكلينيكى ونافح عن الكلينيكية المسلحة فى كتيبه الشهير « وحدة علم النفس » والذى هو واحد من أعظم أساتذة علم النفس فى القرن العشرين انلم يكن أعظمهم على الاطلاق) ، ومع استاذ الأساتذة كيرت ليفن الذى أبان عن ان العملية العلمية الحقيقية لايمكن أن تكون بغير التحـــول عن الأسلوب الارسططالى الى الأسلوب الجاليلى فى تناول الوقائع (والذى يعتبر بحق بعد فرويد ثانى عمالقة علم النفس) ، فهما على الأقل يضـعانى على خلاف معهما ان لم يكن خطوه الى الأمام على الطريق التى استهلاها · ويمكن تلخيص هذين الأمرين على النحو التالى :

١ ـ المنهج الكلينيكى هو وحده المنهج التخصصى لعلم النفس (فليس المنهج النقدى غير صورة أخرى له تقوم على نفس الأسلوب الجاليلى فى تناول الوقائع وتستند الى نفس معايير المنهج الكلينيكى) · أما المناهج الأخرى بما فى ذلك المنهج التجريبى السيكومترى فلا يمكن الا أن تكون مجرد مناهج مساعده · **فما من علم نفس ممكن الا بالحالة الفردية** ؛ طالما أن العلم فى معناه الدقيق يستحيل بغير الفهم ·

٢ ـ المنهج الســـيكومترى هو بالضرورة المنهج التخصصى لعلم النفس الاجتماعى · فالجماعات والمجموعات سيان كانت تجريبية أم ضابطة، موضع دراسة أو موضع مقارنة تظل كلها وما تتمخض عنـــه من متوسطات تجريدية (احصائية) ، مجرد تفكير بلغة الفئات والأصناف على طريقة الأسلوب الارسططالى فى تناول الوقائع · فليس فى علم النفس من مكان لا للعميان كجماعة ولا للأعمى بحروف التاج ان جاز القول · وكذلك الحال بالنســـبة الى المبصرين والى المدرسين وكل ما يقوم على لغة التفكير بالفئات والأصناف والجماعات ·

وهذان الأمران على الرغم من جدتهما التى تكاد تبلغ حدود ثورة كوبر نيكيه ، ليسا فى واقع الأمر غير نتيجتين منطقيتين تلزمان بالضرورة عن الحقائق التى انتهى اليها ليفن ولاجاش · ففى نهاية الفصل الأول من كتابه

الشهير « النظرية الدينامية عن الشخصية سنة ١٩٣٥ » يقرر ليفن ما يلى :

« وبدلا من الرجوع الى المتوسط التجريدى لأكبر عدد مكن من الحالات المعطاة تاريخيا ، ينبغى الرجوع الى العيانية المكتملة للحالة الفردية » • وبالحالة الفردية هذه انما يعنى ليفن « الحالة النقية » ، هذه التى تتبدى فيها العلاقة الأساسية بين الجنبات الرئيسية للظـاهرة على نحو استثنائى من الوضوح يمكن العالم أو الباحث من أن يبلغ (بأن يبنى فى ذهنه) نمط « العلاقة المثالية » ، هذه التى تتجسد فى « الواقع العيانى » فى تشكيله من التباينات لانهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية • معنى هذا أن ليفن قد دلل على ان العلم بمعنى الكلمة انما ينتج – ان جاز القول – من الحالة الاستثنائية ، بعد ان كان الكل يتوهم ان العلم ينتج من التواتر أو انتظامية الحدوث بحيث يكون الاستثناء فى هذه الحالة الأخيرة أمرا لامفر منه بل ويثبت بوجوده القاعدة والقانون • لم يعد من الممكن مع ليفن أن يقوم ولو استثناء واحد ، وهذا هو العلم بمعنى الكلمة ، وهذا بالطبع هو الأساس الذى يقوم عليه المنهج الكلينيكى الذى يستند الى النهج الجاليلى فى تناول الوقائع هذا الذى يقوم على العمومية الحقة بقيامه على الاستقراء المركزى لحالة فردية واحدة •

فقانون الجاذبية (سقوط الأجسام) والذى توصل اليه نيوتن لم يكن نتاج التواتر بأن رأى مئات الآلاف من التفاح وهى تسقط على الأرض ، بل كان نتيجة لحالة واحدة اتاحت له ان يبنى فى ذهنه نمط العلاقة المثـــالية لظاهرة السقوط • ومثال آخر يقدمه ليفن عن قانون تدحرج الأجسام على السطوح المائلة • فمثل هذا القانون هو الآخر لم ينتج من رؤية مئات الآلاف من الأحجار وهى تتدحرج على سطوح مائلة ، بل من حالة واحدة كانت العلاقة فيها بين الجنبات الرئيسية للظاهرة من استثنائية الوضوح بحيث مكنت لاستثنائية ذهن الباحث أو العالم ان يبلغ الى نمط العلاقة المثالية ، ومن هنا فالقـــــانون يصور تدحرج كرة مصقولة بشكل مطلق على سطح مائل أملس بشكل مطلق ، ويكون على الشخص فى كل حالة عيـــــاينه ان يقوم بالتعويض بلغة المعادلات ، مما يعنى حساب درجة الاحتكاك وزاوية الميل فى الحالة التى تعنيه •

فاذا ما انتقلنا الى لاجاش لوجـــدناه فى كتيبه الشهير « وحدة علم

النفس » يعرض لنا فى منـــافحته عن الكلينيكية المسلحة هذا الذى يمكن للكلينيكية أن « تفيده » من التجريبية ، وذلك الذى « تحتاج » فيه التجريبية الى الكلينيكية ٠ وغنى عن البيان عظم الفارق بين « يمكن ان تفيده » وبين « تحتاجه » ، فالتجريبية تحتاج الى الكلينيكية فى الاســـتطلاع والتنقيب وصياغة الفروض ، وفى اقامة الوحدة الكلية للنتائج الجزئية التى ينتهى اليها المنهج التجريبى السيكومترى ، هذا الى المسالك العيانية التى يستحيل استحداثها ٠ فالتجريبية لاغنى لها عن الكلينيكية ، بينما الكلينيكية تقـوم بدراسة كل المسالك العيانية للانسان ، السوية منها وغير السوية وتبلغ من ذلك الى نظرية عامة عن السلوك الانسانى على النحو الذى يتضح فى نظرية التحليل النفسى ٠ فتسلح الكلينيكية بالتجريبية والسيكومترية لايمثل «حاجة» لا غنى عنها بل مجرد « افادة » متاحة ٠

وسوف نقف الآن وقفة عجل عند التجريبية ثم عند السيكومترية لنتبين بعض ما يكمن من فجوات وراء ذلك البريق الزائف للمعمل التجريبى والقياس النفسى فى حالة الانسان ٠

ان التجريب المعملى كما نعلم يقوم على نفس الأساس الذى تقوم عليه السيكومترية ونعنى تثبيت جميع العوامل فيما عدا عامل واحد والا يكون من المستحيل بالنسبة الينا ان ترد النتائج (المتغيرات التابعة) الى المتغير المستقل الذى نعمل عليه ٠ وبديهى أن يكون هذا التجريب المعملى فى ذروة تألقه مع مواد الطبيعة وأشيائها وربما أيضا (ونقول ربما) مع الكائنات الدنيا من السلسلة الحيوانية ، حيث يظل التجانس ـ فيما يبدوا على الأقل ـ كبيرا الى الدرجة التى تسمح بالتعميم ٠ فاذا ما انتقلنا الى التجريب على الانسان استحال تثبيت العوامل الى اكذوبة فلا يبقى للتجريب من شىء غير بريقأدوات الصنعة العلمية ٠ ذلك ان تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد شأنه شأن تثبيت المثير الخارجى مسألة تتخطى حدود القدرة البشرية ٠ وبديهى أننا عندما نفشل فى تثبيت كل العوامل الأخرى (فيما عدا المتغير المستقل الذى نعمل عليه) بحيث يفلت ولو عامل واحد من التثبيت ، تنهار العملية العلمية كلها ومن أساسها فيكون من المستحيل علينا نسبة النتائج الى المتغير المستقل بحسبانه وحده مسئولا عنها وسببا لها ٠ واذا كانت استحالة تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد مسألة لا تحتاج الى بيان فقد يكون من المفيد أن

نذكر البعض بأن هذه الخبرة الماضية تشكل عند كل فرد جانبـــا أساسيا من شخصيته هذه ، التى من خلالها يكون ادراكه للأشياء لأنها هى التى تسبغ على هذه الأشياء دلالتها • واما تثبيت المثير الخارجي فذلك ما تحدث عنه لاجاش في حديثه عن وهم القنينة • ونظرية الجشطلت تقيم تفرقة أساسية بين المثير البيئى بمجـــاله الفيزيائى ، مما لايعنينا وبين المثير كما يدركه الشخص ويعيشه فى خبراته الحية مما يعرف بالموقف بمجاله السلوكى مما يعنينا وحده فى مجال علم النفس • فالفرد لا يستجيب للمثير فى ذاته ولكن يستجيب له عبر شخصيته أى من حيثهو موقف يعيشه الى آخر هذه الحقائق التى عرضنا لها فى مقدمة الطبعة الثـــانية من الترجمة العربية لكتاب (سيكولوجية الاشاعة) (١) • وعليه فلا تثبيت ممكن للخبرات الماضية عند الأفراد لا ولا لدلالة المثيرات عندهم ، وعليه فلا تجريب ممكن ـ بالمعنى الدقيق للكلمة وفى مجال المسالك العيانية ـ عند الانسان •

واذا كان لاجاش فى نهاية كتيبه الشهير السابق الذكر قد انتهى فى الصفحات الأخيرة الى ارساء دعائم الوحدة والتعاون بين المنهجين التجريبى والكلينيكى فاننا ها هنا نختلف معه وعن حق فى بعض ما حاول التمويه عليه • فاذا كان المنهج التجريبى « يحتاج » الى المنهج الكلينيكى ، فان المنهج الكلينيكى ليس له ان « يفيد » كثيرا من المنهج التجريبى اللهم الا أن يستهدف اقناع التجريبيين أنفسهم ومن زاويتهم التجريبية الخاصة بصدق الحقــائق التى يبلغ اليها المنهج الكلينيكى ، فقد ذهب لاجاش الى ان الكلينيكية يمكن أن تفيد من التجريبية فى التثبيت من فروضها وضرب على ذلك مثلا بالعدوان كنتيجة للاحباط مما عكف دوللرد وميللر على اثباته تجريبيا (٢) • ومع ذلك فكلنا يعلم ان هذه الصياغة لاتحظى بصـــدق عام • فالاحبـــاط بكل صوره يتمخض عند الكائنات البشرية المازوشية عن لذة جنسية تبلغ حـد النشوة أو عن راحة نفسية تنجم عن العقوبة المتضمنة فى الاحباط • ومن هنا نتساءل عن القيمة الحقيقية لهذا اليقين التجريبى الذى يتحدث عنــه

---

(١) سيكلوجية الاشاعة • أولبرت وبوستمان ، ترجمة مخيمر ، الناشر سعيد رافت •

(٢) أنظر الفصل الثانى من رسالة الماجستير « دراسة مقارنة للعدوانية عنـد العمياوات بما عليه عند المبصرات » ناريمان الرفاعي ـ جامعة طنطا •

لاجاش . أما المسألة الثانية والأخيرة والتى يمكن أن « تفيد » فيها الكلينيكية من التجريبية فتنحصر فى الاستعانة بالقوانين التى يبلغ اليها علم النفس التجريبى لفهم السلوك العيانى . ويضرب لاجاش مثلا على ذلك بأن قوانين التطبيع عند الحيوان تفيدنا فى فهم التطبيع الاجتماعى عند الانسان وتلك فى رأينا مغالطة لحساب « الوحدة » التى ينافح عنها . فالتطبيع الاجتماعى عند الانسان يقوم أساسا على اللغة مما يجعل الاختلاف بين الأمرين اختلافا فى المستوى والبنيان . وفى هذا ما يزكرنا على الرغم منا بتلك التجارب المصطنعة عند علم النفس التجريبى كتجارب ابنجهوز على المقاطع الصوتية عديمة المعنى وكتجارب ثورنديك على القطط فى المحارات . ولاجاش نفسه يقرر بأن علم النفس الكلينيكى لاغنى عنه ويغنى عما عداه طالما ان بوسعه أن يتناول بالدراسة كل المسالك البشرية وان يخلص منها الى نظرية عامة فى السلوك على النحو الذى يتضح فى نظرية التحليل النفسى . وفى هذا كله ما يرينا بأن الكلينيكية ليس لها فى الواقع أن تفيدشيئا أساسيا من التجريبية اللهم الا البلوغ الى اقناع التجريبيين أنفسهم وعن طريق منهجهم التجريبى بصدق الحقائق الكلينيكية . واذا كانت انفعالية الفرد هى التى تترجم عن سويته « قدرة » على مواجهة المواقف الجديدة فضلا عن المألوفة وكانت هذه الانفعالية من اختصاص علم النفس الكلينيكى ، فان كل ما ينطوى عليه الفرد من قدرات عقلية وغير عقلية (تتيح له من حيث الامكانية مواجهة المواقف الجديدة فضلا عن المألوفة وما تستند اليه هذه القدرات من عمل للادراكات والذاكرة والخيال مما ينتمى الى علم النفس التجريبى) . انما يظل فى واقع الأمر رهنا فى عمله أو تعطله (انكفافه) بانفعالية هذا الفرد .

فاذا ما انتقلنا الآن الى السيكومترية بمقاييسها المقننة (وهى التى تقوم على نفس الأساس الذى تقوم عليه التجريبية من تثبيت لجميع العوامل فيما عدا عامل واحد فى المرة الواحدة) لوجدنا أنفسنا أمام صورة تقريبية شاحبة للمنهج التجريبى . فما تسميه السيكومترية بالملاحظة الخارجية ليس غير أكذوبة عريضة . فالسيكولوجى القائم بتطبيق المقاييس النفسية مهما قام بضبط نفسه بحيث تكون معاملته واتجاهاته وكلماته وابتساماته هى هى نفسها بالنسبة الى الجميع فانه لايكون بذلك قد استبعد نفسه كمتغير لأن دلالته شأنها شأن دلالة كل مثير فيزيائى انما تتحدد عند كل فرد بالرجوع

الى الشخصية الفريدة لهذا الفرد · ومن هنا فمهما اراد لنفسه أن يكون فى « حالة تثبيت » ومهما اراد لملاحظته أن تكون خارجية ، فانه لن يكون بالنسبة الى الآخرين غير دلالات متباينة بتباين فردياتهم ولن يكون الآخرون بالنسبة اليه غير دلالات تتباين بالرجوع الى فرديته ·

وعملية التجانس بين المجموعات التجريبية والضابطة ليست غير وهم من أوهام السيكومترية · واذا كان من العسير مجانسة الفرد مع نفسه فى الأوقات المختلفة والمواقف المختلفة وكان الهدف الحقيقى لعلم النفس هو الامساك بالعيانية المكتملة للحالة الفردية فى موقف بعينه لا بالمتوسط التجريدى الاحصائى (١) لمسالكه واتجاهاته ، فما بلك بالمجانسة بين العديد من الأفراد · هنا أيضا تبرز استحالة تثبيت الخبرة الماضية عند الأفراد تحديا تستحيل على العقل البشرى مواجهته · واذا وضعنا فى اعتبارنا أن السيكومترية تهدف الى تحديد مكان المفحوص بالنسبة الى الآخرين من زاوية ما تقيسه من قدرات أو اتجاهات ، فاننا نظل بذلك كله خارج مجال الفهم ومن ثم خارج مجال العملية العلمية فى رأينا ·

ذلك كله ليس غير قليل من كثير من تلك المتغيرات التى تكمن وراء التجريبية السيكومترية فى تناولها للانسان وكأنه مجرد شىء من أشياء الطبيعة تخضعه للتجريب أو تقوم بتصنيفه فى هذا الصنف أو ذاك من مجموعة ما فوق المتوسط أو المتوسط أو ما الى ذلك مما ينتمى الى الجماعات وعلم النفس الاجتماعى ، ومن هنا فان سيرل برت امام السيكومترية فى العالم واستاذ أساتذة السيكومترية فى الشرق العربى انما كان منطقيا مع نفسه فى هذا الذى يتحدث عنه العالم على أنه فضيحة سيرل بيرت · واذا كان هناك ما يعاب على عملاق السيكومترية والاحصاء السيكولوجى فلن يكون

---

(١) وفى كتابهما « الطرائق الاحصائية فى علم النفس والتربية عام ١٩٧٠ » يكتب جلاس وستانلى ما يلى :

« طالما وصف الناس عالم الاحصاء على نحو ساخر كرجل يغرق وهو يخوض فى نهر لا يزيد متوسط عمقه عن ثلاثة أقدام أو كرجل يجلس وقد استقرت رأسه فى ثلاجة بينما تمتد قدماه داخل فرن ملتهب ويقرر بأنه فى المتوسط يشعر بأنه على ما يرام » ص١

ذلك غير ذكائه الثاقب • كان الرجل يدرك أن « العملية » كلها ليست غير عبث بالارقام ليس وراؤه من جدوى فما الذى يضيرها لو أنه اراح نفسه وابتدع الأرقام وهو يجلس ناعما الى مكتبه أمام كوب من الشاى • كان سيرل برت على ثقة بأن الأمر لن يختلف كثيرا فى جوهره ان هو أجهد نفسه وأجهد الناس ، يسعى بالاختبارات اليهم ويجشمهم العناء فى تطبيقها • فذكاء الرجل ونفاذ استبصاره ينبغى أن يحسبا له لا عليه عندما نقارنه بالآخرين « وان كنت لاتدرى فالمصيبة أعظم » وحسب سيرل برت فخرا أنه كان على وعى بكل ابعاد العملية •

وهكذا وجدتنى بعد ثلاثين عاما من التخصص النفسى على قناعة تامة بأنه ما من علم نفس ممكن الا بالنسبة للحالة الفردية مما يعنى ان المنهج الكلينيكى هو المنهج التخصصى الوحيد لعلم النفس بينما يكون المنهج السيكومترى بمتوسطاته عن الجماعات وبتفكيره بلغة الفئات هو المنهج التخصصى لعلم النفس الاجتماعى بينما يظل مجرد منهج مساعد بالنسبة الى علم النفس يتيح له البلوغ الى الحالات الطرفية التى يمكن اعتبارها بمثابة حالات نقية • اما المنهج التجريبى فهو الآخر مجرد منهج مساعد يتيح تلك الحقائق الجزئية التى هى بمثابة اللبنات التى يبنيها العالم فى نظرية تفسيرية مكتملة أو قانون فهى • وسوف نلتقى فى هذا الكتاب بكل ما يعين القارىء على تفهم الحقائق السابقة • وحسبى للتدليل على ذلك ان أورد هنا حديث الكتاب الذى جاء لاحقا على الجدول الذى يوضح الاختلافات بين الأسلوبين الارسطالى والجاليلى فى تناول الوقائع •

« مما سبق يتضح بشكل قاطع ان لب العملية العلمية وصحيحها انما ينحصر فى « اعادة بناء » Reconstruction الوقائع فى ذهن العالم فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى أى فى صورة أنموذج هيكلى ونمط كيفى يقدم « العلاقة المثالية » هذه التى تتجسد فى « الواقع العيانى » فى تشكيل من التباينات لانهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية • وفى هذا ما يرينا أن الأدوات الرياضية والمعالجات الاحصائية لاتقيم العلم بل تظل مجرد أدوات مساعدة ففارق كبير ما بين العملية العلمية وبين أدوات الصنعة العلمية من تجريب ومعادلات ، رياضية ومعالجات احصائية •

فأدوات الصنعة هذه انما ترجع الى ما يتوهمه البعض من ان الأنموذج الوحيد لليقين العلمى انما هو الأنموذج الفزيائى الرياضى · وقد أوضح كيرت ليفن فى الفصل الأول من كتابه الشهير « النظرية الدينامية عن الشخصية سنة ١٩٣٥ » بطلان هذا الوهم عندما أبان عن ان تقدم الفزيائيات المعاصرة لا يرجع الى استخدام الرياضيات والدقة الرقميـــــة بل يرجع فحسب الى استخدام النهج الجاليلى فى تناول الوقائع · ليس العلم اذن بجداول رياضية ومعادلات احصائية بل ليس العلم بتجريب معملى كما يتوهم البعض ممن يزعمون الالتزام بالموضوعية بعيدا عن كل ذاتية · مثل هذه الموضوعية (١) التى يتوهمونها ليس لها من وجود الا فى أذهانهم فالموضوعية العلمية تنبنى دائما أبدا فى ذهن الباحث ومن هنا تكون النسبية فى العلم ومن هنا أيضا تكون الذاتية بمثابة الرحم الذى يتمخض عن الموضوعية العلمية (٢) · ولكن الذاتية التى نعنيها ليست ذاتية أخاييل الفرد مما يعرف بالميثوس ولا هى

---

(١) أنظر (من مشكلات ما وراء المنهج ـ الموضوعية والذاتية ـ د · سيد عثمان· من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس المجلد الخامس ١٩٧٨) ·

(٢) بينما يتنازل رجـــل الجمهور عن ذاتيته تواؤما مع الواقع الخـــــارجى (الديماجوس) فان العصابى ينحبس فى ذاتية من تخييلاته الطفلية (الميثوس) تسد عليه كل سبيل الى الواقع الخارجى · اما الفنان فانه يعزف عن الواقع الخارجى ليلوذ بذاتية صروحه الفنية (أبو لينوس) هذه التى تعود به من جديد عبر استحســـــان الجماهير لنتاجاته الابداعية الى الواقع الخارجى · وكذلك العالم فانه يعزف عن الواقع الخارجى ليلوذ بذاتية صروحه التفسيرية ونماذجه الهيكلية عن الواقع (اللوغوس) هذه التى تعود به من جديد ـ عبر ما تقدمه من حقيقة عن الواقع تتأكد بالممارســـة العملية ـ الى الواقع الخارجى ، فعملية الابداع الفنى والابتكار العلمى ليست غير حركة ديالكيتيكية من الذهاب والمجىء ، من العزوف والعـــــودة ما بين الواقع الخارجى والذاتية الفردية · (وفى هذا ما يذكرنا بعبارة مورينو الشهيرة « ان الموضـــوعية الحقة ، لا يمكن أن تكون دون مرور بالذاتية sujectivation » وما يذكرنا فى الفلسفةالوجودية بالذاتية كلحظة وعى بين موضوعيتين ، وفى الماركسية بالوعى كلحظة بين واقعين (من وسائل الانتاج) وبالتفرقة الشهيرة فى نظرية الجشـــطلت بين الظاهرة الدينامية وشروطها الطوبوغرافية) · ويرى مخيمر ان تعطل الديالكيتيكية ما بين الذات الفردية والواقع الخـــارجى هو الذى يقيم الاغتراب Alienation فعندما يكون الالتصاق بالذات على حساب الواقع يتخذ الاغتراب صورة الاختلالات النفسية والعقلية بينما يكون الاغتراب عند الالتصاق بالواقع على حساب الذات فى صورة التوائمية التى تخفض الانسان الى مجرد شىء وموجود فى ذاته ·

ذاتية اخاييل الشعوب فى أساطيرها وآرائها العامة مما يعرف بالديماجوس، انما الذاتية التى نعنيها هى ذاتية اللوغوس ، هى تلك الذاتية التى تتيح لصاحبها عالما أو باحثا ان يبنى عن الواقع أنموذجه الهيكلى ٠ بذلك تجيب ذاتية اللوغوس بالحقيقة على الواقع وتلك هى الموضوعية العلمية بكل معنى الكلمة ٠ وهنا ينبغى أن نفرق بين العملية العلمية فى معناها الجزئى والعملية العلمية فى معناها الشامل ٠ فالتجريب المعملى يتمخض عن حقائق يقينية وكلها حقائق جزئية (ونحن نستبعد من ذلك لعبة معـــاملات الارتباط لأن الارتباط لا يعنى السببية بحال بل هو عبث بالأرقام) هذه الحقائق اليقينية الجزئية التى يبلغ اليها المنهج التجريبى (ولا أقول السيكومترى) لا تقيم العلم بل هى مجرد لبنات للعلم تحتاج الى من يقيم صرحها فى نظرية شاملة٠

بول جييوم لم يكن يوما ما من علماء نفس الجشـــطلت الذين أجروا تجاربهم الشهيرة ومع ذلك يقول كوهلر امام الجشطلتين بأنه لم يفهم نظرية الجشطلت الا عندما قرأ كتاب بول جييوم (علم نفس الجشطلت) فكيف ذلك؟ بكل بساطة لأن بول جييوم هو الذى استطاع أن يبنى كل الحقائق اليقينية الجزئية التى انتهى اليها علماء نفس الجشطلت من تجاربهم ، فى صرح نظرية تفسيرية واحدة بحيث تجد كل حقيقة جزئية مكانها ضمن النظرية التفسيرية وبحيث تلتقى كل الوقائع عند نفس الدلالة مما يعرف بمبدأ التكامل ومبدأ التقاء الوقائع اللذين ينتميان الى معايير المنهج الكلينيكى والمنهج النقدى أى الى معايير المنهج العلمى على وجه الدقة ٠

واذا كان لنا ان نلخص العملية العلمية فى كلمة فهى « اعادة بناء » reconstruction الوقائع المتماثلة فى ذهن الباحث فى صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى بينما تظل قوانين التواتر مجرد صيغ مريحـة تسمح بالتنبؤ دون أن تسمح بالفهم وقبل أن نبلغ الى فهم الظاهرة فاننا لم نبلغ بعد الى العملية العلمية بمعنى الكلمة » ٠

وفى هذا الكتاب نلتقى فى الفصل الأول بعرض رائع لمناهج علم النفس فى صلتها بعضها بالبعض الآخر لا يلبث حتى يغدوا تتبعا للمنهجين التجريبى والكلينيكى فى خصومتهما وتجاوبهما الى تقبلهما المتبادل وتعاونهما ممـا ينتهى بهما الى هذا الذى يعرف بالكلينيكية المسلحة أو وحدة علم النفس ٠

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب نتعلم كل ما يلزمنا عن المنهج الكلينيكى من مسلماته وركائزه الى مختلف الفنيات التى يستخدمها من مقـــابلات شخصية الى اختبارات اسقاطية الى تفسيرات تحليلية نفســـية للأحلام والهفوات وذلك كله مع بعض الأمثلة التوضيحية اليسيرة التى التقت بهـــا الكاتبة فى خبرتها الكلينيكية الخاصة مع المرضى وغير المرضى من الحالات التى تناولتها • وفى الفصل الثالث والأخير من الفصول النظرية الثلاثة نلتقى بتلك المفاهيم المفاتيح التى تعيننا على فهم الشخصية وما يصدر عنها من مسالك سوية أو لا سوية ، وذلك من الزاويتين الرئيسيتين فى علم النفس ونعنى التحليل النفسى والسلوكية • وفى هذا الفصل أيضا نلتقى بعرض رائع للمبادىء التفسيرية فى كل مدارس علم النفس تنقلنا من خفض التوتر الى اشتهاء الاثارة وذلك كله قبل أن تبلغ الى الحديث عن الصراع بقلقــه ودفاعاته هذه التى تتمخض عن الاعراض المرضية •

ولما كان الهدف من هذا الكتاب كما تقول صاحبته هو اعداد الباحث لكى يكون كلينيكيا ممارسا لا متمرسا فقد رأت ان تقدم فى الفصول التالية أمثلة توضيحية لبعض الدراسات الكلينيكية التى تمت باشرافى فى رسائل الماجستير والدكتوراه على اختلاف موضوعاتها • ولا يسعنى هنا الا أن أتجه بكل التقدير والشكر الى الدكتورة – سامية القطان – على عملها هذا الذى كنت اتطلع اليه منذ وقت طويل وذلك لما كنت اتجشم من عناء شديد فى اعداد الدارس بعد الدارس وتدريب الواحد بعد الآخر على رد كثرة الوقائع مع تباين مصادرها الى وحدة المبدأ التفسيرى الواحد •

ان قراءة هذا الكتاب كما ينبغى أن تكون عليه القراءة انما تتيح للقراء من ذوى الاستعداد ومن أصحاب القدرة على الحدس الكلينيكى أن يتقدموا بأنفسهم على الطريق تلك الخطوات الأولى بحيث يقتصر تدخلى بعد ذلك على الهداية والتصحيح والارشاد كلما دعت الحاجة • فاتقان السيكومترية شىء بينما اتقان الكلينيكية شىء آخر تماما • وليس من الممكن ان نلتقى بكلينيكى متمرس دون أن يكون له ومن ورائه عشرون عاما على الأقل من الممارســـة الكلينيكية المتصلة الجادة المستبصرة •

وكلى أمل فى أن يكون هذا الكتاب مجرد خطوة أولى على طريق

طويلة طويلة من الانتاج العلمى الزاهر الذى يفسح شيئا فشيئا مع الوقت والنضج هامشا تتزايد سعته للجديد من الأفكار والتـــأويلات التفسيرية ٠ وأخيرا فان كل ما تنطوى عليه هذه المقدمة من آراء جديدة وأفكار قد تبدو غريبة انمـــا يخصنى وحدى فى غير الزام على الاطلاق لأحد من الزملاء المريدين فى مدرسة الكلينيكية المسلحة والانتقائية العلاجية بشرقنا العربى ٠

صلاح مخيمر

١٩٨٠/٩/٢٣

الفصـــل الأول

فى مناهج علم النفس

مقـــدمة

المناهج فى علم النفس منهجـان همـا : المنهج التجريبى والمنهج الكلينيكى . وكل ما عدا ذلك من مناهج نسمع عنها ليس فى واقع الأمر غير أساليب فى العمل أو فنيات مساعدة أو تباينات أو تطويرات لهذين المنهجين الرئيسيين .

١ ـ فما يسمى بالمنهج الوصفى ليس غير عملية مساعدة تمهد للعمليـة العلمية ولكن لاتدخل بحال ضمن صميم العملية العلمية بمعنى الكلمة.

٢ ـ وما يسمى بالمنهج التاريخى ليس غير فنية وركيزة من الركائز الثلاث التى يقوم عليها المنهج الكلينيكى .

٣ ـ وما يسمى بالمنهج المقارن ليس غير أسلوب فى العمل وفنية يستعين بها المنهج التجريبى مثلا عندما يقارن بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة .

٤ ـ وما يسمى بالمنهج الأمبيريقى ليس غير تباين وصورة من صور المنهج التجريبى . فعندما تكون المجموعتان التجريبية والضابطة متجانستين تماما يكون ذلك هو المنهج التجريبى ، اما اذا كانت المجموعتـان مختلفتين أساسا فى ناحية واحدة كأن تكون مجمـوعة من المبصرين ومجموعة من العميان فعندئذ يكون المنهج الامبريقى .

٥ ـ وما يسمى بمنهج التحليل النفسى ليس غير تباين وصورة ممعنة من صور المنهج الكلينيكى . فعندما يكون الكلينيكى حياديا وينظـر الى وقائع المقابلة الشخصية من زاوية الطرح (بمعنى أنها تكرار لاتجاهات

المفحوص الطفلية من أبوية ينقلها هنا ويطرحها على الكلينيكى كوجه أبوى) فعنـــــدئذ يصبح المنهج الكلينيكى ما يسمى بمنهج التحليل النفسى ٠

٦ ـ وما يسمى بالمنهج الاحصائى ليس غير استخدام للرياضيات كمجرد فنية معينة لتبين الدلالة الرقمية الدقيقة للنتـــائج أو لتحقيق الأحكام والصرامة فى تحديد العينة الممثلة واستخراج المعايير وما الى ذلك من معالجات احصائية تتصل أساسا بالمنهج التجريبى وان لم تكن من حيث المبدأ منغلقة على المنهج الكلينيكى ٠

٧ ـ وما يسمى بالمنهج الطولى التتبعى ومنهج الشرائح المستعرضة ليسا غير أسلوبين فى العمل وفنيتين من فنيات البحث العلمى ٠

٨ ـ وما يسمى بمنهج الملاحظة الطبيعية فهو الصـــورة الأولى لكل بحث علمى ، شريطة أن نضع فى اعتبارنا أن الباحث لا يقوم بالملاحظـــة الا وفى رأسه علامة استفهام (فرض علمى) ويريد من الملاحظة أن تؤيدها أو تدحض « الفرض » الذى فى رأسه ٠ ولكن منهج الملاحظـة الطبيعية عادة ما يقتصر الآن على دراسة الحيوانات وكذلك الأطفـال باستخدام ألواح جيزل (التى تتيح للباحث أن يرى الأطفال دون أن يرونه) فليس من الممكن فى العادة أن ننتظر حتى تحدث الظاهرة التى نريد دراستها بشكل طبيعى ، ومن هنا كانت ضرورة استحداث الظاهرة مع التحكم فى عواملها ، بمعنى تثبيت جميع العوامل مع تغيير عامل واحد فى المرة الواحدة،حتى نتبين فى النهاية اثر كل عامل من العوامل على حدى ٠ بذلك ظهر المنهج التجريبى ٠ أما المنهج الكلينيكى فهـــو ما يزال بمعنى ما ملاحظة طبيعية شريطة أن تكون الملاحظة من الزاوية السيكودينـــــامية أى الزاوية التى يتبنـــــاها علم النفس المرضى السيكوباثولوجيا) ٠ وهذه الزاوية الســـيكودينامية انمــــا تعنى ببساطة النظر الى الوقائع النفسية من خلال مفهوم الصراع ٠ فالحياة فى صميمها ليست غير الصراع وعندما ينتهى الصراع تنتهى الحياة ٠ الحياة سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها (من ضياع الاتزان ومحاولات اعادته ، من التوترات ومحاولات خفضها ، من الحاجات أو

الرغبات أو الحفزات أو الدوافع أو الحوافز ومحاولات اشباعها) (١)٠

ويصدق هذا على الأسوياء والمرضى فليس الاختلاف بين السوية والمرضى غير اختلاف فى الدرجة والشدة ، هذا الى أن السوية خرافة ومثل أعلى نقترب منه بدرجة أو أخرى ، وما نسميه بالســـوية ليس غير الدرجات الهينة من العصابية ٠ وكل ما هنالك من اختلاف ينحصر فى أن الأسوياء يتمكنون من حل صراعاتهم على مستوى الرشد وعن طريق حلول بنائية بينما المرضى لا يتمكنون من حل صراعاتهم الأعلى مستوى نكوص (الى الطفولة) وعن طريق حلول تفكيكه ٠ واذا كان النكوص النسبى الى الطفولة (الى المرحلة الأوديبية أو الى الأستية السادية) يولد الأمراض النفسية (الاعصبة) ، فان النكوص المعن الى الطفولة الباكرة (الى المرحلة الفمية) يولد الأمراض العقلية (الأذهنة) ٠ وهذه الحلول عند المرضى هى توافقات لأنها تخفض التوتر ، ولكنها توافقات غير تكيفية لأنها تتم على حساب قيمة الذات وعلى حساب وحدتها ، أما الحلول عند الأسوياء فهى توافقات تكيفية ٠

المناهج فى علم النفس هما ٠ كما ـ رأينا ـ منهجان : المنهج التجريبى والمنهج الكلينيكى ٠ ويعتبر ظهور المنهج الكلينيكى (الدراسة العميقة للحالة الفردية) بمثابة رد فعل بالنسبة الى المنهج التجريبى السابق عليه فى

---

(١) هذه الظاهرة من ضياع الاتزان ومحـــاولات اعادته هى العملية الصميمية للحياة ٠ ومن هنا فان كل مدارس علم النفس تقيم المبدأ التفسيرى للمسالك استنادا الى هذه الظاهرة ٠ فعند التحليل النفسى ترتد كل المسالك السوية الى مبدأ الثبـــات (الذى أصبح بعد ذلك مبدأ اللذة ـ الالم ثم مبدأ الواقع ، بينما المسالك غير السوية ترتد الى مبدأ قهر التكرار) ، وعند السلوكية مبدأ الهوميوستازس (مبدأ اتزان الوظائف البدنية) ، وعند الجشطلت قانون الامتلاء (أحسن جشطلت ممكنة) ، وفى علم النفس العام مبدأ الانضباط الذاتى أو الاتزان التلقائى ، بل وفى علم الطبيعة مبدأ «لوشاتلييه» ولكن مخيمر فى « مفهوم جديد للتوافق » وفى مقدمة « عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس » يعارض كل هذه المبادىء التفسيرية التى تقوم على خفض التوتر ويضع فى مكانه « مبدأ اشتهاء المثير » الذى يحقق مبدأ الاقتصاد فى العلم لانه يسمح بتفسير المسالك السوية وغير السوية على السواء ٠ وعنده ان مبدأ اشتهاء المثير هو وحده الذى ينتمى الى غرائز الحياة بينما لايمكن أن ينتمى مبدأ خفض التوتر الا الى غرائز الموت والعدم ٠

الظهور · ولكن المنهج التجريبى نفسه يمكن اعتباره بمثابة رد فعل لنزعة كلينيكية (انسانية تقوم على الفهم) سابقة عليه تتبدى فى محاولات الأدب لفهم الانسان (١) وفى أساطير الشعوب التى تعرف باسم الميثولوجيا بل وقبل ذلك فى تلك النزعة « الانيمية » التى تقوم على الاسقاط والتى كانت تتوهم وجود الأرواح فى كل أشياء الطبيعة ـ بذلك يتضح وجود النزعتين الرئيسيتين :

(أ) النزعة الانسانية الفهمية التى يستند اليها المنهج الكلينيكى ·
(ب) النزعة الطبيعية التى تعتبر الانسان مجرد شيء كأشياء الطبيعة ومن ثم

تقوم على « الشيئية » والتى اليها يستند المنهج التجريبى ·

والواقع أن علم النفس فى محاولاته اتباع المنهج التجريبى قد مر بمرحلتين · ففى البداية كان علم النفس التجريبى يستهدف ـ كعلم الطبيعة ـ البلوغ الى قوانين عامة تصدق على جميع الأفراد بلا استثناء · ومن هنا كان معمل فندت ومحاولاته التى تعرف بالسيكوفيزيقا والتى تمخضت عن لاشيء لاستحالة اقامة علاقة ثابتة (ميكانيكية) بين المثير والاستجابة (انظر الفصل الأول من كتاب « علم نفس الجشطلت » جيوم ـ الترجمة العربية ـ سعيد رأفت) ·لقد اتضح أن التجانس بين الأفراد ليس كما هو عليه بين المواد بحيث يكون من الممكن اقامة قوانين نفسية لهـا عمومية القوانين الفيزيائية · ان الأفراد يختلفون بأكثر مما يتماثلون (فكل فرد وان كان كجميع الناس ، وكبعض الناس ، الا أنه فى نهـاية الأمر يختلف عن كل الناس) · ومن هنا كان على علم النفس التجريبى ان يتجه الى دراسة هذه الفروق الفردية باستخدام المقاييس النفسية · بذلك ظهر علم النفس الفارق الذى يقوم على السيكومترية والذى يستهدف تحديد مكان المفحوص بالنسبة الى الآخرين من زاوية قدره ما أو سمة ما الخ ·· ذلك هو مضمون مانسميه بعلم النفس التعليمى أو التربوى أو السيكومتريه ·

---

(١) فى رواية همليت يرهص شكسبير بالتحليل النفسى عندما يقول على اسان احدى الشخصيات « العقل قواد الرغبة » ، وكذلك بالنسبة الى كل الروايات العالمية من قبيل الاخوة الاعداء والبخيل وعطيل الخ ··· ومن هنا فان دراسة الآداب العالمية تعتبر جانبا أساسيا فى تكوين الكلينيكى اليوم ·

ولكن سرعان ما تبين أن هذه النزعة الطبيعيـــــة بمنهجها التجريبي السيكومترى لا يمكننا من فهم الانسان بل فقط من تحديد مكانه بالنسبة الى الآخرين من زاوية الذكاء أو القدرة الميكانيكية أو سمة الانطوائية الخ ٠٠ ومن هنا ظهر علم النفس الكلينيكى ترجمة للنزعة الانسانية الفهمية ينصب بالدراسة العميقة على الحالة الفردية ويستهدف فهمها ٠ وعادة ما يتم الفهم للفرد عندما نتبين صراعاته الأساسية فى الطفولة ، بمعنى أن نتبين الحفزات الغريزية التى كانت بالنسبة اليه خطرة ومن ثم ولدت لديه القلق ٠ كل هذا لنتبين نوعية الميكانيزمات الدفاعية التى استخدمها لمواجهة هذا القلق وذلك لأن هذه الميكانيزمات الدفاعية تكرر نفسها وبالتالى تعتبر مبادىء تفسيرية ليس فقط لفهم سلوك الفرد الذى ندرسه بل أيضا للتنبؤ بسلوكه فى المواقف المختلفة ٠ ذلك هو ما يشكل مضمون علم النفس المرضى أو ما يسمى بالصحة النفسية ٠ بذلك ظهر المنهجان التجـــريبى والكلينيكى كتعبير عن النزعتين الطبيعية والانسانية فى مجال الظواهر النفسية ٠

والآن سوف نتبين الخصائص المميزة للنزعتين الطبيعية والانســانية وما تنطوى عليه هذه الخصائص من ضرورة التجابه والخصومة بينهما ٠ ومن هنا فقد كانت الخصومة بين المنهجين التجريبى والكلينيكى فى ذروتها عند البداية ، وكان على عالم النفس عندما يأخذ بأحد المنهجين ان ينزله منزلة التقديس (طوطم) بينما ينظر الى المنهج الآخر نظرة تحريم (تابوة) ٠ كان هذا وضع المنهجين عند البداية ولكنهما مع الوقت سوف يتبينان ما بينهما من تداخل بل وما يمكن أن يفيده أحدهما من الآخر ٠ وأكثر من ذلك ان التطور قد مضى بالمنهجين ليس فقط الى تبادل العون بل الى الالتقاء عند النتــائج وأسلوب العمل والمبادىء التفسيرية ٠ وسوف نتبين الآن مدى ما كانت عليه النزعتان الطبيعية والانسانية من اختلاف صارم وخصومة ورفض متبـادل الأمر الذى يتضح فى الخصائص المميزة للمنهجين التجريبى والكلينيكى ، ثم ما انتهى اليه التطور من تصالح النزعتين وتعاونهما ، ومن ثم من تعاون المنهجين ٠٠ والتقائهما ٠

ويمكن تلخيص القضايا الأساسية المميزة للنزعتين الطبيعية والانسانية كما يلى:

قضايا معسكر النزعة الطبيعية
فى تجابهها مع قضايا معسكر النزعة الانسانية

زاوية المقارنة	قضايا النزعة الطبيعية	قضايا النزعة الانسانية
١ – من حيث الموضوع	(أ) مسالك فيزيائية أى مسالك خارجية صريحة وعمليات فسيولوجية (مما يسمح بالقياس والتجريب) . (ب) ضرورة وجود مقوم فسيولوجى للمسالك موضع الدراسة .	ظواهر شعورية أى التجارب الحية كما يعيشها الشخص .
٢ – من حيث الهدف	التفسير مما يعنى البلوغ الى قوانين (تواتر) وتصنيفات ومنحنيات . فصميم العملية العلمية هنا هو التواتر أى تكرار الارتباط بين الظواهر التى ندرسها ، مما يسمح بوجود الاستثناءات ، فالمهم هو الغالبية (مما يستند الى النهج الارسططالى فى تناول الوقائع) .	المقوم الفسيولوجى غير مطلوب وبالتالى تمتد الدراسة لتشمل الظواهر اللاشعورية . التأويل مما يعنى الفهم بالبلوغ الى قوانين (فهمية) أى الى نمط العلاقة المثالية (نمط كيفى أى أنموذج هيكلى للظاهرة) هذه العلاقة المثالية التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيله من التباينات تتباين بتباين السياقات البيئية (مما يترجم عن المنهج الجاليلى فى تناول الوقائع) .

زاوية المقارنة	قضايا النزعة الطبيعية	قضايا النزعة الانسانية
٣ – من حيث علاقة الكل بالأجزاء	ذراتية ، اضافية فالكل ليس غير مجرد حاصل جمع للأجزاء ، بل ان الأجزاء سابقة على الكل (كومة الطوب أو محرك سيارة) ٠ ففى السلوكية الفرد حاصل جمع عادات والعادة حاصل جمع منعكسات شرطية ٠ وفى علم نفس الملكات بالقرن ١٩ كان الفرد حاصل جمع ملكات (ذاكرة ٠ ذكاء – خيال الخ) والملكة حاصل جمع ادراكات ، والادراك حاصل جمع احساسات (عناصر افتراضية ليس لها وجود حقيقى ولكن كانت بمثابة الذرات عندما كان علم الطبيعية يتوهم أنها عناصر أولية أولى وقبل أن يتبين أن الذره انتظام ينطوى على أجزاء وغلاقات كثيرة) ٠ باختصار عناصر أولية أولى (ذرات من الاحاسيس أو المنعكسات تنضاف بعضها الى بعض فيكون الكل مما يعنى أن الانتظام دخيل على العناصر ٠	دينامية أى جشطلتية فالكل ليس مجرد حاصل جمع للأجزاء بل شيء يزيد على ذلك ٠ كل ظاهرة نفسية بل وكل ظاهرة حية هى جشطلت ، كل عضوى بمعنى انتظام دينامى ينتجكمحصلة للصراع بين القوى المتمثلة فى جميع الأجزاء ٠ ذلك هو مضمون نظرية الجشطلت : فما من مادة نفسية بغير انتظام والكل فى الادراك سابق على الأجزاء بل ان وجود الأجزاء ودلالتها يتحدد فى الادراك وفى غيره بالمرجوع الى الكل (قانون الكل ٠ وقانون العضوية) ٠ وكل ظاهرة نفسية هى كل دينامى أى انتظام دينامى وفى نفس الوقت هى كل وظيفى ٠

٤ ـ من حيث النزعة ميكانيكية أى تقوم على ترابط العنـــاصر عن طريق التكرار • فعند السلوكية ليس السلوك ليس غير عادة اى مجرد تتابع الى لمنعكسات تشريطية تم اكتسابها •	وظيفية بمعنى أن صميم الظاهرة النفسية ينحصر فيما تضطلع به من وظيفة (معنى أو دلالة أو هدف) فالمشكلة المحورية فى علم النفس هى وظيفة (التكيف) والتحليل النفسى نظرية وظيفية فى اختلالات السلوك • فالسلوك المحتمل صميمة أنه يقوم بوظيفة بل باكثر من وظيفـة لأنه عادة ما يرجع الى أكثر من سبب (التحتيم باكثر من سبب) •

ويمكن القول على وجه الجملة بأن السلوكية تنتمى بكل قضياها الى النزعة الطبيعية بينما ينتمى التحليل النفسى بكل قضاياه الىالنزعة الانسانية· اما عن الجشطلت فانها تنتمى ببعض قضاياه الى النزعة الطبيعية وبالبعض الآخر من قضاياه الى النزعة الانسانية · وسوف نوجز فى جدول وبضع كلمات ما كانت عليه وما صارت اليه مدارس علم النفس لنتبين انها مضت كمناهج علم النفس فى نفس الاتجاه الى التعاون والالتقاء ·

تطور قضايا الطبيعية والانسانية

الى التعـــاون والالتقاء

١ ـ **من حيث الموضوع** : انتهى التطور بكل نزعة الى أن تعترف وتتقبل قضايا النزعة الأخرى ، ومن هنا أصبح موضـــــوع علم النفس هو السلوك بكل أوجه الشعورية والخارجية والفســــيولوجية (تجارب شعورية ومسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) وما قد يكمن وراء هذا كله من دوافع لاشعورية ·

٢ ـ **من حيث الهدف** : انتهى التطور بكل نزعة الى ان تعترف وتتقبل قضايا النزعة الأخرى ، ومن هنا أصبح هدف علم النفس التفسير والتأويل معا · فحيث لايمكن البلوغ الى قوانين فهمية تتيح لنا أن نفهم كيفية صدور ما هو نفسى عما هو نفسى ، فاننــــا نقنع بقـــوانين التواتر والتصنيفات والمنحنيات (أنظر وحدة علم النفس ص ٥٢ وما يليها)·

٣ ـ **من حيث علاقة الكل بالأجزاء** : انتهى التطور بانتصار النزعة الانسانية انتصارا حاسما ·· فالجميع يعترف اليوم بالدينامية أى الجشطلتية ويرفض الذراتية · فكل ظاهرة نفسية هى انتظام دينامى ، كل عضوى، أى جشطلت ·

٤ ـ **من حيث النزعة** : انتهى التطور بانتصار النزعة الانسانية انتصـــارا حاسما · فالجميع يعترف اليوم بالوظيفية ويرفض الميكانيكية · فكل ظاهرة نفسية هى كل وظيفى أى وحدة كلية وظيفية ·

وعليه ، يكون التقبل المتبادل قد تحقق فيما يتصل بالموضوع والهدف ، بينما تحقق انتصار النزعة الانسانية فيما يتصل بدينامية الظاهرة النفسية ووظيفتها ، وهذا هو نفس ما نتبينه من الموجز التالى لمدارس علم النفس ما كانت عليه وما صارت اليه ٠

ظهور مدارس علم النفس كرد فعل لعلم نفس القرن ١٩

القرن التاسع عشر	القرن العشرين
علم النفس التقليدى أو الكلاسيكى علم النفس الوصفى ، علم نفس الظواهر الشعورية ، علم نفس الاستيطان	
١ ـ الموضوع : الظواهر الشعورية	ظواهر لا شعورية = مدرسة التحليل النفسى ، فرويد سنة ١٩٠٠ مسالك فيزيائية (مسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) = سلوكية وطسون سنة ١٩١٣
٢ ـ المنهج : الاستيطان	المنهج الكلينيكى (تحليل نفسى) والمنهج التجريبى (سلوكية وجشطلت) دينامية (جشطلتية) ووظيفية = مدرسة الجشطلت فرتهيمر سنة ١٩١١ ٠
٣ ـ النزعة : ذاتية وميكانيكية ، فالكل مجرد حاصل جمع للاجزاء ، والاجزاء سابقة على الكل ٠ والسلوك مجرد تتابع آلى لمنعكسات شرطية بمعنى أن العلاقات والانتظام تنتج كلها من ترابط العناصر نتيجة للتكرار أى التواتر ٠	

١ ـ مدرسة التحليل النفسي :

(أ) منذ البداية تعترف بالدينـــــامية (فالحلم محصلة للحفزات المكبوتة والرقابة أي دفاعات الأنا) وتعترف بالوظيفية (فالحلم يحرس النوم بالاشباع الهلوسي للرغبات المكبوتة التي لولا ذلك لأيقظت النائم) .

(ب) كان التحليل النفسي في البداية لايهتم الا بالظواهر اللاشعورية بحسبانها وحدها الهامة وكان التشبيه الشهير للجهاز النفسي بجبل من الجليـد يغطس معظمه ولا يظهر على السطح الا أقل القليل · ولكن مع الوقت تبين التحليل أهمية الدور الذي تقوم به الأنا ، ومن هنا انتقل الاهتمام الى الصراع ما بين الظواهر الشعورية والظواهر اللاشعورية داخل الجهاز النفسي وما ينتج عن ذلك من محصلات ·

٢ ـ مدرسة السلوكية :

(أ) كانت السلوكية الواطوسونية تقوم على الذراتية والميكانيكية وبالتالي تنكر الدينامية والوظيفية حتى جاء طولمان وكانتور وكشفا عن الطابع الدينامي للتعلم (اعادة انتظام للحقل) وكذلك الطابع الوظيفي لكل سلوك ·

(ب) كانت السلوكية الواطسونية ترفض الظواهر الشعورية على أنها غير علمية ،وذلك لأنها استعارت من علوم الطبيعة منهجها التجريبيوراحت تبحث له في علم النفس عن موضــــوع مناسب ، بدلا من أن تبحث لموضوع علم النفس وهو الانسان عن المنهج المناسب · ومن هنا كان رفض السلوكية الواطسونية للظواهر الشعورية ولكن اتضح مع الوقت أن السلوك لا يمكن أن يكون بغير دافع وصميم الدافع التـــوتر أي ظاهرة شعورية ، وبذلك اضـــطرت السلوكية الى الاعتراف بالظواهر الشعورية ·

٣ ـ مدرسة الجشطلت :

(أ) منذ البداية تقوم على الدينامية (الجشطلت انتظام دينـــامي) وعلى

الوظيفية (الجشطلت كل وظيفى) • وعندما اعترف كل علماء النفس بذلك ماتت مدرسة الجشطلت من فرط نجاحها وان ظهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين كمدرسة فى العلاج النفسى •

(ب) مدرسة الجشطلت كالسلوكية تعترف بكل أوجه السلوك يشتركان فى رفضهما للظواهر اللاشعورية (وان اعترف روجرز بالظـواهر قبل الشعورية واعترف بيرلز بالظواهر اللاشعورية) •

٤ ـ علم نفس القرن ١٩ :

أصبح مع القرن العشرين جانبا من الفلسفة الظاهرياتية عامة والفلسفة الوجودية خاصة مما يظهر عند سارتر وهوسرل ، ويسمى أحيانا بعلم النفس الوجودى ولكنه ينتمى فى الواقع الى الفلسفة ، وعليه فقد انتهى التطـور بمدارس علم النفس الى ان تتفق على ما يلى :

أولا : مفهوم الدينامية ومفهوم الوظيفية وذلك الى الحد الذى أصبح معه تعريف الشخصية والسلوك مجرد ترجمة لهذين المفهومين •

فالشخصية هى هذه الجشطلت (الانتظام الدينامى داخل الفرد لأجهزته النفسية والفسيولوجية ، التى تحدد توافقاته الأصيلة (الفريدة مع بيئته) •

والسلوك هو هذه الجشطلت (جملة العمليات الرمزية والفسيولوجية) التى يحاول بها الفرد فى موقف تحقيق امكانية وخفض تواتراته ، هذه التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لأتزانه (أى لتكامله) •

ثانيا : أصبح موضوع علم النفس هو السلوك بأوجهه الثلاث (ظواهر شعورية ومسالك خارجية وعمليات فسيولوجية) وما قد يكون وراء هـذا كله من دوافع لا شعورية ـ وينبغى أن ننتبه أن الحقائق والمبادىء والقوانين التى انتهى اليها علم النفس تظل واحدة وانما تكون أفرع علم النفس بتباين الموضوع (علم نفس صناعى ، وعلم نفس عسكرى وعلم نفس حيـوان الخ) أو بتباين المنهج (علم نفس تجريبى أو علم نفس كلنيكى الخ) أو بتباين

الهدف (علم نفس نظرى وعلم نفس تطبيقى وعلم نفس علاجى) أو بتباين الصرح الفكرى لعالم النفس (تحليل نفس أو سلوكية أو جشطلت) ٠

ومن الواضح أن مدارس علم النفس فى تطورها قد انتهت الى نفس الأمرين اللذين انتهت اليهما النزعة الطبيعية والنزعة الانسانية فى تطورهما الى التعاون والالتقاء ٠ وسوف نتبين ذلك بالنسبة الى المنهجين التجـــريبى والكلينيكى ، وما كانا عليه فى البداية من تجابه وخصومة ورفض متبادل ، وما انتهيا اليه مع التطور من اعتراف متبادل وتعاون والتقاء ٠

الخصائص المميزة للمنهجين التجريبي والكلنيكي

في تجابهما ورفضهما المتبادل في البداية

المنهج التجريبى

أ
تبين الشروط (العوامل) التى تحكم (أى المسئولة عن) السلوك (الظاهرة النفسية) موضع الدراسة ·

هذا هو الهدف بشكل عام ، ولكن المنهج التجريبى يقوم على التحكم فى العوامل بمعنى أنه يحصرها ويقوم بتثبيتها جميعا فيما عدا عامل واحد فى المرة الواحدة · ومن هنا يكون هدف المنهج التجريبى هو التحديد الدقيق المحكم لأثر كل عامل من العوامل وعلى حده على السلوك موضع الدراسة (العوامل التى يتم تثبيتها هى الثوابت) والعامل الذى يتم تغييره فى المرة الواحدة هوالمتغير المستقل والتغيرات التى تنتج عن ذلك هى المتغيرات التابعة · فالهدف باختصار هو التحديد الدقيق للشروط أى العوامل التىتحكم السلوك بحيث نتبين أثر كل عامل من العوامل على حدة

ب - قطاعات محددة من السلوك أى مسالك جزئية مستحدثة من قبل (دراسة أثر المثوبة على التعلم· [جماعتان من الأطفال متجانستان يطلب منهما مثلا استظهار عدد من الكلمات مع اعطاء مكافأة لمجموعة ولا شىء للاخرى ونتبين النتيجة) ، ولكن السلوك الواقعى العيانى للفرد يستحيل على التجريب ، هذا الى أن التجانس نسبى لأننا لا نستطيع تثبيت الخبرات الماضية عند الأفراد، بالاضافة الى أن تثبيت العامل (المثير) ، لا يعنى بحال تثبيت [illegible]

المنهج الكلينيكى

تبين الشروط (العوامل) التى تحكم (أى المسئولة عن) السلوك (الظاهرة النفسية) موضع الدراسة

هذا هو الهدف بشكل عام ، ولكن الكلنيكي لا يستطيع التحكم فى العوامل لا بتثبيتها ولا بتغيرها، ومن هنا يكون هدف المنهج الكلنيكى هو تبين جملة العوامل المسئولة عن السلوك موضع الدراسة (اختفاء دوره الطمث عند طالبه يتضح فى المستوى الأول أنها تعبير عن رفضها لأنوثتها ولكل الرجال ، ولكن يتضح فى المستوى العميق أن ذلك يرجع كاختفاء لدورة الطمث الى تثبيتها على الأب فهو الرجل الوحيد الذى تريده وتقبل معه أن تكون انثى لتحصل على طفل · واختفاء دورة الطمث اذنهو عرض هستيرى بمعنى أنه تحقيق بدنى للرغبة المكبوتة فهى الآن بالنسبة الى اللاشعور فى حالة « حمل » من أبيها فكيف تكون لديها دورة طمث وهى حبلى ؟)

الدراسة العميقة للحالة الفردية أى للشخص من حيث هو حامل مشكلة ، أى للشخصية بكليتها فى جملة علاقاتها مع بيئتها ، وذلك بأن نتبينالصراعات الأساسية لدى الفرد وعلى الخصوص تلك الأساليب الدفاعية المتميزة لديه فى مواجهته للقلق ، هذا الذى تثيره لديه مواقف غريزية خطرة بعينها ·

زاوية المقارنة	المنهج التجريبى	المنهج الكلنيكى
٢ - من حيث الأساس بالنسبة (الأسلوب العملى)	حصر جميع العوامل ثم القيام بتثبيتها جميعا مع تغيير عامل واحد فى المرة الواحدة حتى نتبين أثر كل عامل من العوامل على حدة · وهذا الأسلوب هو الأساس فى التجريب العملى وفى كل المقاييس المقننة · فالمقياس المقنن للذكاء يقوم بتثبيت جميع العوامل بما فيها الاطار الصوتى والضوئى والاتجاه السيكولوجى القائم بتطبيق المقياس الخ ـ بل وتكون الأسئلة فى الاختبار لا تنصب على أى شىء آخر غير الذكاء بحيث يكون الذكاء هو المتغير المستقل الوحيد ·	لا امكانية بالطبع لحصر العوامل أو تثبيتها أو تغييرها ، ومن هنا يقوم المنهج الكلنيكى على ثلاث ركائز · (أ) دراسة الفرد من حيث هو وحده كلية تاريخية (تاريخ الحالة)· (ب) دراسة الفرد من حيث هو وحده كليةحالية ضمن ظروفها البيئية (المجالات المختلفة الحالية لحياته) (جـ) ومن دراستنا للفرد من حيث هو جشطلت تاريخية وجشطلت حالية نبلغ الى تبين صراعاته الأساسية بمعنى المواقف الغريزية التى كان يعتبرها خطرة ومن ثم أثارت القلق ، ونوعية الدفاعات التى استخدمها لمواجهة هذا القلق وهى دفاعات تتكرر ومن ثم تتيح لنا كمبادىء تفسيرية أن نفهم شخصيته باختصار دراسة شاملة مطوقة ·
٣ - من حيث التقنيات أى الطرائق المستخدمة	(أ) التجريب فى صورته المعملية أو باستخدام مجموعتين متجانستين (مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة) (ب) المقاييس المقننة وهى تقوم على تثبيت جميع العوامل فيما عدا عامل واحد هو الذى تكشف عنه الاجابات ـ والمقاييس المقننة اما مقاييس قدرات عقلية (مقاييس ذكاء) أو مقاييس قدرات خاصة (ميكانيكية أو موسيقية ·· الخ) ، أو مقاييس شخصية للاتجاهات أو السمات الخ ـ وفى جميع هذه الحالات يكون الهدف هو تحديد مكان المفحوص بالنسبة الى الآخرين من زاوية القدرة أو السمة التى نقيسها	(أ) المقابلة الشخصية الطليقة (حتى وان استعانت برؤوس الموضوعات) وتسمى الاستبار · فلو كانت الأسئلة معدة مسبقا وبترتيب بعينه وتوضع درجات للاجابة ، فذلك هو الاستبيان أو الاستخبار مما ينتهى الى المنهج التجريبى · (ب) الاختبارات الاسقاطية من قبيل الرورشاخ والتات (تفهم الموضوع) وساكس الخ ـ وعادة ما تكون الاستعانة بالتحليل النفسى فى تفسير الاحلام والهفوات (ذلات اللسان أو القلم) مما يتم عامة فى مقابلات شخصية تأتى فى النهاية بعد تاريخ الحالة وتطبيق الاختبار لاسقاطى ·. وهنا الهدف هو الفهم·

المنهج التجريبي

يستخدم السيكومترى مع مختلف الأشخاص نفس المقاييس معطيا لهم نفس الزمن ونفس التعليمات ، ويحرص على أن يكون الاطار الصوتى والضوئى هو نفسه بالنسبة الى الجميع ، بل ويحرص على أن يكون اتجاهه منهم نفس الاتجاه مما يعنى تثبيت نفسه كعامل بالنسبة الى الجميع وتسمى الملاحظة فى هذه الحالة ملاحظة خارجية • باختصار تثبيت كلشىء بما فىذلك نفسه بحيث يكون المقياس هو المتغير المستقل الوحيد •

يتبع السيكومترى طريقة موحدة وسط ظروف من التحدد بحيث يكون فى وسع أى شخص أن يصل الى نفس النتيجة • ومن هنا يكون فى وسع صبى المعمل متى حصل على مفتاح التصحيح أن يقوم بتصحيح المقاييس • أما لو كانت هناك ملاحظات عن سلوك المفحوص أثناء اجابته على المقياس فان ذلك ينتمى بالطبع الى المنهج الكلنيكى •

المنهج الكلنيكى

يتكيف الكلنيكى مع كل فرد تبعا لفرديته بحيث يعينهعلى أن يتكلموفى حرية واسترسال فىالاتجاه المطلوب، فى تجنب مع ذلك لأىايحاء • وتكون الملاحظة هنا ملاحظة مشاركة (بكسر الراء) بحيث يعيش الكلنيكى الموقف ولكنه لا يكون بذلك غير موضوعى لأن الموضوعية العلمية لا تكون باستبعاد الذاتية بل بتجنب ذاتية الميثوس والأخذ بذاتية اللوغوس التى هى بناء ذهنى يجيب بالحقيقة على الواقع •

يقوم الكلنيكى بملاحظة استجابات الشخص فىوحدتها الكلية وتفصيلاتها الدقيقة وذلك فى موقف حيوى وهام فى دلالته ألا وهو موقف الفحص - فغالبا ما يتكلم باليدين بشكل أكثر صراحة وعمقا، ومن هنا تكون أهمية الحركات المصاحبة لنوعية بعينها من الادلاء ، هذا الى أن التفصيلات المرهفة هى التى تتيح غالبا فهمالدلالة الحقيقية للسلوك الكلى • فالاندفاع الجريىء ربما يكون مجرد تكوين مضاد ولخجل عميق يحاول المفحوص أن يستره •

المنهج التجريبى

يقيم السيكومترى نتيجة المفحوص بالرجوع الى سلم قياس سبق اعداده من قبل على عينة ممثلة أى يتم تحديد مكانه من الاخـــرين بالرجوع الى المعايير التى سبق اعـــدادها والتى تحدد المتوسط والمســتويات العليـا والدنيا. ومن هنا تقوم السيكومترية على شىء واحد هو منطق التواتر .

المعيار الوحيد هو التواتر (انتظامية الحـــدوث) . فالقانونية تقوم على « الغالبية »، بمعنى أن يكون الارتباط بين الظواهر أى تكرار حدوثها شيئا غالبا (عادة ارتباط يزيد على ٥ر مع حساب معامل الاغتراب) . مثل هذه القـانونية تسند شرعية الاستثناءات وان كانت تغفلها تماما لحســـــاب « الغالبية » (أنظر الفصل الأول من « نظرية دينامية عن الشخصية » - كارت ليفن سنة ١٩٣٥ ، أنظر أيضا « وحدة علم النفس لاجاش .

المنهج الكلنيـكى

يقوم الكلنيكى بعملية « مماثلة » ث بعملية « موائمة » فهو فى البـداي يمـــاثل حالة المفحـــوص بنمط م الأنماط الكيفية التى تعلمها من قبـ (عصاب قهرى - هستيرى - برانوي الخ) ، ولكن الى هنـــــا لا يكو التشخيص مكتمل بلصق هذه البطاق أو تلك . فـــــلا بد للكلنيكى من أ يســـتوعب التفصــــيلات الفردي المخصصة للمفحوص بمعنى أن يوائ النمط الكيفى مع خصــــوصية حال المفحوص. بذلك يتبين الانتظام الفري الذى تتجســـد عليه الهســـتريا أ العصاب القهرى فى هذه الحـــال وبذلك وحـــده يكتمل التشخيص . فصميم التشخيص هو عملية الموائ

ومعايير المنهج الكلنيكى لاصلة له بالتواتر بل هى التكامل والتقـــا الوقائع ومبدأ الاقتصاد ، بالاضـــاف الى ثلاث معايير أخرى أقل حيـــوي (أنظر فيما بعد « التشخيص »)

ولكن استمرارا لهذه النقطة الأخيرة سوف نعرض للمنهجين التجريبى والكلنيكى من حيث ما يقوم عليه الأول من نهج ارسططالى فى تناول الوقائع وما يقوم عليه الثانى من نهج جاليلى فى تناول الوقائع ٠

العملية العلمية فى المنهج التجريبى والمنهج الكلنيكى

ليس العلم بتسجيل الوقائع (مهما كانت دقة الأجهزة) ولا هو بمعامل ارتباط بين الظواهر (مهما كان عاليا) . فالوقائع بذاتها والأرقام بذاتها بلهاء والوصف الرقمى كالوصف اللفظى يمهد للعلم ولكن لا يدخل ضمن العملية العلمية ٠ فالعلم هو : -

تفكير الوقائع :

ارسطاطالى	جاليـــلى
لابلغه الفئات على طريقة أرسطو	بل بلغة السياقات على طـــريقة جاليليو
١ - مما يســـتند الى النظر الى الظـــواهر على أنها متباينة تماما توضع فىأصناف مختلفة أو متطابقة تماما توضع فى صنف واحد (عملية تصنيفية)	١ - مما يســـتند الى النظر الى الظواهر لا على أنها متباينة تماما ، ولا على أنها متطابقة تماما بل على أنها متماثلة ٠
(أ) ثم نتناول عـــددا كبيرا من أفراد الصنف (استقراء فسيح) ٠	(أ) أى هى هى من حيث المبدأ كأنواع مختلفـــة تدخل ضمن جنس واحد (المجانسة) ٠
(ب) ثـــم نتبين الخصـــائص المشـــتركة بينها ونعمـــدها ماهية للظاهره (عملية تجريدية) ٠	(ب) وان تجسدت فى تشكيله من التباينات يتباين الشروط (مبـــدأ الشرطية) ٠
(جـ) وماهية الظاهرة الفرد أو الشىء تنطوى على متجه هو وحده الذى يحدد السلوك ٠ (انكار لتـأثير البيئة)	(جـ) ومعنى ذلك أن الســـلوك الختامى لا ينتج فقط من « المتجـه » الصادر عنالفرد أو الشىء بل وأيضا عن المتجهات الموجودة فى الحقل ، فالسلوك الختامى محصلة الصراع بين المتجه الذى ينطوى عليه الفـرد والمتجهات الموجودة فى البيئة ٠

ارسطاطالى	جاليــــلى
٢ ـ فالعلم هنا ينتج من استقراء فسيح أى من التـــــواتر وانتظامية الحدوث مما ينتهى الى قوانين تواتر (عمليـــــة تصـــنيفية ثم تجريدية للخصائص المشتركة تقيم الماهية التى تنطوى على متجه (طبيعة الشىء هو وحده وفى انكار تام لتأثيرات البيئة يحـــــدد سلوك الشىء أو الفـــرد) (مفهوم الغريزة قديما كقوة آليـــة عمياء) .	٢ ـ فالعلم لا ينتج من استقراء فسيح لعدد كبير من الحالات بل من استقراء مركزى لحـــــالة واحدة ، « حالة نقية » تتبدى فيها العلاقة بين الجنبات الرئيسية للظاهرة على نحو استثنائى من الوضوع يتيح للعـــالم أن يبنى الانموذج الهيكلى للظـــاهرة (نظرية تفسيـــــيرية أو قانون فهمى لا قانـــــون تواتر) أى يبنى النمط الكيفى الذى يقدم العلاقة المثالية ، هذه التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيله من التبـــــاينات أو قل التبدلات الوضـــــعية التى لا نهاية لتباينها وهذا « البناء » هو صـــميم العملية العلمية .
هـــذا هـــو أســـــاس المنهج لا يبـــــلغ بنـــا الى الفهم بل الى قوانين تواتر تســــمح بوجــــود الاســـــــتثناءات وحيث يوجـــــد استثناء واحـــد تبطل كل قانونية . ومن هنا يقرر لفن بدلا من المتوسط التجـــريدى لأكبر عـــدد ممكن من الحالات المعطـــاة تاريخيا ، ينبغى الرجوع الى العيانية المكتملة للحالة الخصوصية (أى للحالة النقية التى تتبدى فيها العـــــلاقة بين الجنبات الرئيسية على نحـــو استثنائى من الوضوح .	(فمفهوم الغريزة فى التحليل النفسى لا ينظر اليها على أنها قوة آلية عمياء تحدد للفرد سبقا وفى كل تفصيلاته سلوكهالجنسى أو العدوانى، فالغريزة الجنسية أو العـــدوانية ليست غير مجرد متجه يصدر عن الفرد ويكون سلوك الفرد محصلة للصراع ما بين هذا المتجـــه الصــــــادر عن الفرد والمتجهات البيئية القائمة فى الحقل. ومن هنا فمفهومالسمة أو القدرة الخ كشىء مستقل يحدد سلوك الفـــــرد بصرف النظر عن البيئة يعتبر اليوم شيئا غير علمى) ذلك هو أســـاس المنهـــج الكلنيكى والمنهج النقـــدى والمنهج العلمى بمعنى الكلمة .

مما سبق يتضح بشكل قاطع أن لب العملية العلمية انما ينحصر فى «بناء» reconstruction الوقائع فى ذهن العالم فى صوره النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى أى فى صورة أنموذج هيكلى ونمط كيفى يقدم « العـــلاقة المثالية » ، هذه التى تتجسد فى « الواقع العيانى » فى تشكيله من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية • وفى هـــذا ما يرينا أن الأدوات الرياضية والمعالجات الاحصائية لا تقيم العلم بل تظل مجرد أدوات مساعدة ففارق كبير ما بين العملية العلمية وبين أدوات الصنعة العلمية من تجريب ومعادلات رياضية ومعالجات احصائية • فأدوات الصنعة هذه انما ترجع الى ما يتوهمه البعض من أن انمـــوذج اليقين العلمى انما هو الانمـــوذج الفزيائى الرياضى • وقد أوضح كيرت ليفين فى الفصل الأول من كتابه الشهير « نظرية دينامية عن الشخصية سنة ١٩٣٥ » بطلان هذا الوهم عندما أبان عن أن تقدم الفزيائيات المعاصرة لا يرجع الى استخدام الرياضيات والدقةالرقمية بل يرجع فحسب الى استخدام النهج الجاليلى فى تناول الوقائع • ليس العلم اذن بجداول رياضية ومعادلات احصائية بل ليس العلم بتجريب معملى كما يتوهم البعض ممن يزعمون الالتزام بالموضوعية بعيـدا عن كـل ذاتية • مثل هذه الموضوعية (١) التى يتوهمونها ليست لها من وجود الا فى اذهانهم • فالموضوعية العلمية تبنى دائما أبدا فى ذهن الباحث ومن هنا تكون النسبية فى العلم ومن هنا أيضا تكون **الذاتية بمثـــابة الرحـــم الذى يتمخض عن الموضوعية العلمية** (٢) • ولكن الذاتية التى نعنيها ليست ذاتية أخاييل الفرد

---

(١) أنظر (مشكلات ما وراء المنهج ـ الموضوعية والذاتية ـ د• سيد عثمان ، من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ـ المجلد الخامس سنة ١٩٧٨) •

(٢) بينما يتنازل رجل الجمهـــور عن ذاتيته تواؤما مع الواقع الخــــارجى ، (الديماجوس) فان العصابى ينحبس فى ذاتية من تخيلاته الطفلية (الميثوس) تسد عليه كل سبيل الى الواقع الخارجى • أما الفنان فانه يعزف عن الواقع الخـــارجى ليلوذ بذاتية صروحه الفنية (الابولنيوس) هذه التى تعود به من جديد عبر استحسان الجماهير لنتاجاته الابداعية الى الواقع الخارجى • وكذلك العالم فانه يعزف عنالواقع الخارجى ليلوز بذاتية صروحه التفسيرية ونماذجه الهيكلية عن الواقع (اللوغوس) هذه التى تعود به من جديد عبر ما تقدمه من حقيقة عن الواقع تتأكد بالممارسة العملية، الى الواقع الخارجى • فعملية الابداع الفنى والابتكارى العملى ليست غير حـــركة ديالكتيكية من الذهاب والمجىء ، من العزوف والعودة ما بين الواقع الخارجى والذاتية الفردية (وفى هذا ما يذكرنا بعبارة مورينو الشهيرة « ان الموضوعية الحقة ، لا يمكن

مما يعرف بالميثوس ولا هى ذاتية اخاييل الشعوب فى أساطيرها وارائهـا العامة مما يعرف بالديماجوس ، انما الذاتية التى نعنيها هى ذاتية اللوغوس، هى تلك الذاتية التى تتيح لصاحبها عالما أو باحثا ان يبنى عن الواقع انموذجه الهيكلى · بذلك تجيب اللوغوس بالحقيقة على الواقع وتلك هى الموضوعية العلمية بكل معنى الكلمة ·

وهنا ينبغى أن نفرق بين العملية العلمية فى معناها الجزئى والعملية العلمية فى معناها الشامل · فالتجريب المعملى يتمخض عن حقائق يقينية ، ولكنها حقائق جزئية (ونحن نستبعد من ذلك لعبة معامـلات الارتباط لأن الارتباط لا يعنى السببية بحال بل هو عبث بالأرقام) هذه الحقائق اليقينية الجزئية التى يبلغ اليها المنهج التجريبى (ولا اقول السيكومترى) لا تقيـم العلم بل هى مجرد لبنات للعلم تحتاج الى من يقيم صرحها فى نظرية شاملة·

بول جيوم لم يكن يوما ما من علماء نفس الجشـطلت الذين اجروا تجاربهم الشهيرة ومع ذلك يقول كوهلر امام الجشطلتين بانه لم يفهم نظرية الجشطلت الا عندما قرأ كتاب بول جيوم (علم نفس الجشطلت) فكيف ذلك؟ بكل بساطة لأن بول جيوم هو الذى استطاع ان يبنى كل الحقائق اليقينيـة الجزئية التى انتهى اليها علماء نفس الجشطلت من تجـاربهم ، فى صرح نظرية تفسيرية واحدة بحيث تجد كل حقيقة جزئية مكانها ضمن النظـرية التفسيرية وبحيث تلتقى كل الوقائع عند نفس الدلالة مما يعرف بمبدأ التكامل، ومبدأ التقاء الوقائع الذين ينتميان الى معايير المنهج الكلنيكى والمنهج النقدى أى الى معايير المنهج العلمى على وجه الدقة واذا كان لنا أن نلخص العملية العلمية فى كلمة فهى اعادة بناء reconstruction الوقائع فى ذهن الباحث فى صوره النظرية التفسيرية أو القانون الفهمى بينما تظل قوانين التواتر مجرد صيغ مريحة تسمح بالتنبؤ دون أن تسمح بالفهم · وقبل ان تبلغ الى فهم الظاهرة فاننا لم نبلغ بعد الى العملية العلمية بمعنى الكلمة ·

أن تكون دون مرور بالذاتية Subjectivation ، وما يذكرنا فى الفلسفة الوجودية بالذاتية كلحظة بين موضوعيتين ، وفى الماركسية بالوعى كلحظة بين واقعين (من وسائل الانتاج) وبالتفرقة الشهيرة فى نظـرية الجشطلت بين الظاهرة الدينـامية وشروطها الطوبوغرافية) · ويرى مخيمر ان تعطل الديالكتيكية ما بين الذات الفردية والواقع الخارجى هو الذى يقيم الاغتراب Alienation · فعندما يكون الالتصاق بالذات على حساب الواقع يتخذ الاغتراب صورة الاختلالات النفسية والعقلية بينمـا يكون الاغتراب عند الالتصاق بالواقع على حساب الذات فى صـورة التوائمية التى تخفض الانسان الى مجرد شىء وموجود فى ذاته ·

اتهامات زائفة للمنهج الكلنيكى

عادة ما يعيب القياسون النفسيون من المتعصبين للسيكومترية على المنهج الكلنيكى ما يلى :

١ ـ **ليس بنظرى** : ولكنهم ينسون أن النظرى غير سابق على العملى ، بل هو تنقية لمعارف الممارسة العملية والخبرة الواقعية ٠

٢ ـ **ليس بمحكم** : ولكنهم ينسون ان الاحكام الفزيائى الرياضى ليس هو الانموذج الوحيد لليقين العلمى ، بل وأكثر من ذلك أنه يقتصر على اليقين العلمى للحقائق الجزئية ٠ فاليقين العلمى فى العملية العلمية بالمعنى الشامل والدقيق للكلمة لايمكن أن يكون الا تلك الأبنية الذهنية التى تجيب بالحقيقة على الواقع الخارجى ، ومن هنا تكون النسبية فى العلم ٠

٣ ـ **ليس بعام** : ولكنهم ينسون أن العمومية الحقيقية لا تنتج من استقراء فسيح لعدد كبير من الحالات ، بل تنتج من استقراء مركزى لعدد قليل من الحالات ، بل لحالة واحدة هى التى يسميها ليفين بالحالة النقية ، ومن هنا يقرر البعض أن تعميق الحالات يفضل تكثيرها ٠ وجولداشتين كان يقوم بالتعميم من حالة واحدة وكذلك فعل مخيمر فى دراسته لسيكلوجية الحب ٠ يقول ليفين « وبدلا من الرجوع الى المتوسط التجريدى لأكبر عدد ممكن من الحالات المعطاة تاريخيا ، يتحتم الرجوع الى العيانية المكتملة للحالة الفردية « الخصوصية » الفصل الأول من نظرية دينامية عن الشخصية ٠ ومع هذا كله يظل من الممكن بالنسبة الى المنهج الكلنيكى أن يقارن بين الأسوياء والمرضى ، بين الأطفال والراشدين ، بين الرجال والنساء بين الناس فى الثقافات المختلفة ، تماما كما يقيم المنهج التجريبى السيكومترى عموميته المزعومة على مقارنة بين الانسان والحيوان ٠

بذلك يتضح زيف الاتهامات التى توجه الى المنهج الكلنيكى ، فهذه الاتهامات يستحيل أن تصدر عن شخص يفهم الطبيعة الحقة للعملية العلمية من حيث استنادها بالضرورة الى النهج الجاليلى فى تناول الوقائع٠

تطور المنهج التجريبى والكلينيكى

بتباينهما لما بينهما من تداخل وتعاون

ولما التقيا عنده من نتائج

أولا - عن تبين المنهجين لتداخلهما وتعاونهما :

ان التجابه بين المنهجين انما كان تعبيرا عن لحظة من لحظات تاريخ الفكر وعن الحركة الديالكتيكية لجهد العلماء فى التلائم مع الحقيقة ، ومن هنا اتضح مع الوقت ان أحدهما يكمل الآخر مما يظهر فى الكلنيكية المسلحة (بالمقاييس) فكل منهج يحتاج الى الآخر وهذا التعاون هو الذى يقيم « وحدة علم النفس » ·

١ - المنهج التجريبى يحتاج الى المنهج الكلنيكى فى :

(أ) يقوم المقياس على نظرة كلينيكية فى مولده وعند تطبيقه (أى مقياس هو المناسب ؟) ·

(ب) النتائج الجزئية للمقياس تحتاج الى نظرة كلينيكية لاقامة الوحدة الكلية ·

(ج) بل ان المقياس ليس غير جملة من الملاحظات الكلينيكية الشديدة التركيز ·

(د) هناك مسالك عيانية تنغلق على القياس فلابد لها من الكلينيكية (كدراسة الغيرة) ·

٢ - المنهج الكلينيكى هو الآخر يحتاج الى المنهج التجريبى فى :

(أ) يحل الكلينيكى فروضه بالمقاييس (حالة ضعف عقلى مثلا) ·

(ب) يستجلى الكلينيكى بالمقاييس مادة متحجبة يتشكك فى وجودها ·

(ج) يستخدم الكلينيكى المقياس احيانا مادة شبك مع المفحوص المتهيب·

(د) الاستخدام الكلينيكى للمقياس بل هناك اختبارات كلينيكية بمعنى الكلمة (رورشاخ والتات وساكس ··· الخ) ·

ثانيا : تبين المنهجين لالتقاءهما عند نفس النتائج :

ان التعـــاون بين المنهجين قد أصبح اليوم يقتصر على التمييز بين ميدانين : السلوك بصورة عامة والسلوك الانسانى العيانى وما يتبع ذلك من تمايز طريقة التناول · ولكن التقى المنهجان مع ذلك من حيث موضوع علم النفس ، ومن حيث هدفه ومن حيث القوانين والمبادىء التفسيرية ·

١ - **من حيث الموضوع** : أصبح علم النفس هو العلم الذى يدرس السلوك بأوجهه الثلاثة (الشعورية والعمليات الفسيولوجية والمسالك الخارجية) وما قد يكمن وراء هذا كله من دوافع لاشعورية ·

٢ - **من حيث الهدف** : أصبح الهدف فى المنهجين هو احلال السلوك مكانه من جملة العوامل الشارطة له ·

٣ - **من حيث القوانين ، التفسيرية** : لم تعد قوانين التواتر من حيث هى تفسير يسمح بالتنبؤ دون ان يسمح بالفهم ، قاصرة على علوم الطبيعة كما اعتقد ياسبرس ، وكذلك لم تعد القوانين الفهميـــة من حيث هى تأويل يسمح بالتنبؤ ويسمح بالفهم ، قاصرة على علوم الانسان · ففى علوم الطبيعة كما فى علوم الانسان توجد اليوم قوانين التواتر جنبا الى جنب مع القوانين الفهمية · ففى علم النفس يسمح قانون الأثر الذى تولد عن استقراء فسيح ليس فقط بالتنبؤ بل أيضا بالفهم ، فهو فى هذا لا يختلف عن النماذج الهيكلية وأنماط العلاقة المثـــالية التى يبلغ اليهـــا المنهج الكلينيكى · أما عوامل الذكاء والابتكار وعوامل الشخصية مثلا وما تتمخض عنه الدراســـات السيكومترية فلا يمكن ترجمتها الى فهم ·

٤ - **من حيث المبادىء التفسيرية :**

الهوميوستازس فى السلوكية يناظر مبدأ الثبات فى التحليل النفسى ، وقانون الأثر يناظر مبدأ اللذة والواقع (وفى الحالين محاولة لرد العقوبة الى الاثابة ومبدأ الواقع الى مبدأ اللذة) وكذلك فان التعزيز والعادة يناظران

مفهوم التثبيت ، فالتعميم فى العادة بانسحابها على مواقف جديدة ينـــاظر العقدة والطرح (المصطلح (Transference مشترك بين الســـلوكية والتحليل النفسى ٠

خلاصة فيما يمكن وسينبغى لكل منهج

من المنهجين ان يفيده من المنهج الآخر

اولا ـ الكلينيكية يمكن أن تفيد من التجريبية فى :

١ ـ ايضاح وصقل تصورات كلينيكية الأصل بالتجريب على الفروض التى انتهت اليها الكلينيكية ٠

(أ) الميل المحارمى يمكن أن يكف كل ميل جنس ثم الشفاء فى موازاة مع التعميم والتمييز ٠

(ب) كذلك التجريب على النكوص والعدوان كاستجابة للاحباط ٠

٢ ـ قوانين يمكن تطبيقها فى تفسير السلوك العيانى :

(أ) الأنموذج الحيوانى للتطبيع الاجتمـــاعى يسمح بتبين السمات الأساسية لعملية التطبيع عند الانسان وان كانت هناك حصائص متميزة للتطبيع الاجتماعى عند الانسان نتيجة اللغة ٠

(ب) كذلك الدراسة التجريبية للصراع عند الحيوان (منحنى التجنب والاقتراب ونقطة تقاطعهما تشير الى اللحظة التى يصبح فيهـا السلوك صراعيا) هذا الى ان الميل للتجنب يتزايد بأسرع ممـا يتزايد الميل الى الاقتراب ٠

باختصار فان التجريبية تزود الكلينيكية بمبـــادىء يقينية واضحة ٠ وعليه فالكلينيكى لابد له من اعداد تجريبى ٠

ثانيا ـ التجريبية تحتاج الكلينيكية وتفيد منها فى :

١ ـ لاستحالة التجريب عمليانيا ، فالكلينيكية استطلاع وتنقيب وصياغة للفروض التى ستخضع للتجريب (نلتقى بالتحليل النفسى فى كل الابحاث التجريبية المتصلة بالسلوك الفردى وعلم النفس الاجتماعى ـ (التجريب على النكوص والعدوان كاستجابة للاحباط) ٠

٢ ـ التجريب ينصب على قطاعات محددة من السلوك ومن هنا يكون على الكلينيكية أن تضطلع باقامة الوحدة الكلية للسلوك البشرى ٠

٣ ـ ان نظرية عامة فى السلوك يستحيل عليها ان تستغنى عن المعارف الكلينيكية الخاصة بالمسالك غير المتكيفة ٠ فعلم نفس السوية ليس غير خرافة ٠ (العصاب التجريبى مثلا لا يمكن فهمه الا كدفاع ضد ترويض مسرف تماما كالعصاب البشرى من حيث هو دفاع ضد التطبيع المسرف) ٠

ومن هنا فالكلينيكية والتجريبية ليسا فحسب يلتقيان بل يتبادلان العون ٠

وتلخيصا للموقف نقرر :

١ ـ المنهج الكلينيكى ينفرد بالاستطلاع وباقامة الوحدة الكلية من المعطيات الجزئية ودراسة المسالك التى يستحيل استحداثها ، هذا الى أنه يغنى عما عداه فجميع مشكلات علم النفس الانسانى يمكن أن يتناولها المنهج الكلينيكى ويخلص منها الى نظرية عامة فى السلوك البشرى الأمر الذى يتمثل فى التحليل النفسى ٠

٢ ـ أما المنهج التجريبى فيزودنا بمبادىء يقينية وقوانين تعين على تفسير السلوك العيانى ولكن التجريب :

(أ) يمثل مرحلة تالية من البحث ٠

(ب) يقتصر على دراسة مسالك جزئية ٠ ولكن اذا كان الشخص العيانى وبكليته فى علاقته ببيئته هو موضوع علم النفس فليس هناك غنى عن المنهج الكلينيكى ٠

نصوص عن موراى (١)

ترينا أن علم النفس هو دراسة للحالة الفردية

من كتاب « نظريات الشخصية • ك • هول ، ج• لندزى ـ الترجمة العربية ـ فرج أحمد فرج وآخرون ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ •

« ويعتقد موراى ان الفهم المناسب للسلوك ينبغى ان يكون تاليا للدراسة الكاملة والتفصيلية للحالات الفردية • وكما قدمت دراسة الحالة مساعدة لاتقدر لنمو وتطور العلوم الطبية ، فان مستقبل علم النفس يرتبط بقبول الباحثين لبذل الجهد والوقت فى سبيل الفهم الكامل للحالات الفردية •

فالنتائج التى تميز ٨٠٪ من جماعة خاصة لا يكون لها سوى قيمة ضئيلة اذا لم يكن ممكنا تقديم بعض التفسير لفشل الـ ٢٠٪ الآخرين فى الاندراج فى هذا النمط • ويعد تأكيد موراى باستمرار على هذه النقطة واحدا من اسهاماته الرئيسية فى مناهج البحث •

وهكذا فمن الضرورى أن يؤدى موقف موراى به الى الدراسة المتعمقة للمفحوصين ويؤدى هذا بالطبع الى تقليل عدد المفحوصين الذين يمكن دراستهم فى الوقت الواحد وأيضا عدد الدراسات التى يمكن للفاحص الواحد أن ينجزها فى عدد محدود من السنوات •

والآن نستمع الى موراى نفسه وهو يقول « لقد دهشت فى البداية حين كنت أتوقع بشكل عام أنه يجب أن يهتم أغلب علماء النفس الاكاديميين بالانسان فى بيئته • ولكن الأمر لم يكن كذلك على الاطلاق • ويمكن أن تتخيل أن موقفى كان أشبه بطالب الطب الذى يكتشف فجأة أن كل معلميه متخصصون

---

(١) كما كان ليفين عالما فى الفيزياء قبل التحول الى علم النفس ، كان موراى طبيبا جراحا ثم عالما فى البيولوجيا والفسيولوجيا قبل أن يحصل على الدكتوراه فى الكيمياء العضوية « أنظر نظريات الشخصية » هول ولندزى ، ـ الترجمة العربية ـ ص ٢١٥ •

فى العين ، والأذن ، والأنف • أن الظاهرة التى ضايقتنى لم تكن لتذكر طالما أن هناك ظواهر قابلة للتحقيق التجريبى المضبوط •• وربما لو كان هدفى الرئيسى هو العمل بأقصى « دقة علمية » لما كنت قد بارحت المحلات الكهربائية والغازات مطلقا • لقد تغيرت بسبب ذلك الاهتمام الملح بأدور أخرى مثـــل مشكلات الدوافع والانفعالات • وكانت محاولة انجاز ذلك على الانســـان تجعل منى عالما نفسيا « أدبيا » يطل من الخارج على علماء النفس «الحقيقيين» الذين كانت تستحوذ عليهم ـ كما استخلصت ـ أهداف ملحة لتسلق الســلم الاجتماعى للعلماء والانضمام الى تلك النخبة بأى ثمن • والا فماذا غير ذلك يمكن أن يفسر وضعهم للوسائل (الأجهزة والاحصاء) بعيدة الى هذا الحد عن الأهداف (أهمية المشاكل موضع الدراسة ؟) بحيث أنه مهما كانت تفاهة النتائج فان المجرب يعتبر نقيا وطاهرا طالما أن معاملات الارتباط لديه تكون ثابتة (موراى ١٩٤٠ ، ص ١٥٤) •

Murry, H.A., "What should psychologists do Adult Psychio-Anal

نصوص من كيرت ليفن فى الفصل الأول

من كتابه الشهير « نظرية دينامية فى الشخصية سنة ١٩٣٥ » (١)

تعتبر العبارات التالية لكيرت ليفن لب ثورته الكوبرينيكية فى منــــاهج البحث :

« فسيان كانت الحادثة التى يصفها القانون تحدث نادرا أو غالبا فليس لهذا من صلة بالقانونية ، وفى الواقع فان القانون ـ بمعنى ما ـ لا يشير الا الى الحالات التى لم تتحقق قط أو فقط التى تحققت بشكل تقريبى فى المسار الفعلى للاحداث » ٠

« مثل هذه الأبحاث الاحصائية تكون نتيجة لذلك عاجزة ـ كقاعدة عامة ـ عن تقديم تفسير لديناميات العمليات المتضمنة »

وتحت هذا العنوان « من المتوسط الى الحـــالة النقية » يكتب كيرت ليفن ما يلى :

« ان الصدق العام ، مثلا ، لقانون الحركة على سطح مائل لا تتم اقامته بحساب المتوسط لأكبر عدد ممكن من الحالات لاحجار واقعية تتدحرج بشكل فعلى هابطه الى أسفل التلال ، ثم اعتبار هذا (المتوسط) على أنه أعظـــم الحالات احتمالا ، ان الصدق العام لهذا القانون يقوم بالحرى على التدحرج (عديم الاحتكاك) لكرة (مثالية) هابطة على طول سطح (مطلق) الاستقامة والصلابة بمعنى أنه يقوم على عملية لا يستطيع حتى المعمل الا أن يحـــدثها بشكل تقريبى ، فان المرء ـ فى الطريقة الجديدة ـ يستخدم طريقة ٠٠ تعتمد كل الاعتماد على الأحداث الفردية العارضة وفى واقع الأمر تعتمد على أعظم الاستثناءات بروزا ٠٠ وحتى الحالة الخصوصية يكون التسليم عندئذ ودون حاجة الى مزيد من الضجيج بانها قانونية ٠ فالندرة التاريخية ليست بدحض، والانتظامية التاريخية للحدوث ليست باثبات للقانونية » ٠

---

(١) الترجمة العربية الكاملة لهذا الفصل توجد ضمن ـ عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس ـ مخيمر سنة ١٩٨٠ ـ الناشر سعيد رافت ٠

ويتابع كيرت ليفن حديثه فيرينا كيف أن دراسة الظاهرة معزولة عن سياقها ، مسألة تتنافى مع العلم بمعنى الكلمة « ولكن الموقف يحظى من الأهمية بقدر ما يحظى به الشيء · ونسقط عن طريق الكل العيانى الذى يشمل الشيء والموقف تتحدد المتجهات هذه التى تقوم بتحديد ديناميات الظاهرة ـ فبدلا من الرجوع الى المتوسط التجريدى لأعظم عدد ممكن من الحالات المعطاه تاريخيا يكون الرجوع الى العيانية المكتملة للمواقف الخصوصية » ·

وأخيرا يوضح ليفن العملية العلمية بمعنى الكلمة فى صدورها عن الحالات العيانية لا عن المتوسطات الاحصائية فيكتب « ان ديناميات العمليات يتحتم دائما اشتقاقها من علاقة الكائن العيانى بالموقف العيانى ، وبقدر ما يختص الأمر بالقوى الداخلية ، يتحتم اشتقاقها من العلاقات المتبادلة بين الأجهزة الوظيفية المختلفة التى تقيم الفرد ··· أن الصدق العام للقانون وعيانية الحالة الفردية ليسا بالنقائض ، وان الرجوع الى الوحدة الكلية للموقف العيانى كله ينبغى أن يأخذ مكان الرجوع الى أكبر مجموعة تاريخية ممكنة من التكرارات المتواترة » ·

من تصدير مصطفى زيور لكتاب « علم النفس الاكلينيكى »

مصطفى الزيادى

« وثمة ما هو أخطر مما قدمنا ، ذلك أن الاخصائى النفسى الذى يلتزم بالتحليل الكمى التزاما حرفيا دوجماطيقيا يقع من حيث لا يدرى فيما أراد أن يتحاشى الوقوع فيه ، أعنى اختلاط الذاتية بنتائجه التى أرادها (موضوعية) بحتة · فقد قام الدليل على أن أى علاقة بين فردين من الناس انما هى أولا وأخيرا علاقة بين ـ ذاتية ـ وبالتالى فان الموضوعية الحقة هى التى تأخذ فى الاعتبار متغير الذاتية ، وبعبارة أخرى فانه لا سبيل الى استبعاد «التحويل» ومضاد التحويل (الطرح ومقابل الطرح) فى أى موقف انسانى بما فى ذلك موقف المجرب فى معمل علم النفس ، أو موقف القياس النفسى ، وكما أن الحرية الحقة هى الفطنة الى الحتمية النفسية فطنة تتيح لنا معالجتها فان الموضوعية الحقة هى الفطنة الى حتمية الذاتية على نحو يمكننا من أن نقدر تأثيرها بوصفها « متغيرا » طبيعيا ·

من مقدمة كتاب « تناول جديد فى تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية »

مخيمـــر

« ان الموضوعية الحقة هى الفطنة الى حتمية الذاتية ، على نحو يمكننا من أن نقدر تأثيرها بوصفها « متغيرا طبيعيا » ـ مصطفى زيور ۰

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، ويحق بأنه اذا كان من المستحيل اخضـاع الذاتية للضبط التجريبى باحكامه وصرامته ، ومن ثم تستحيل معاملة الذاتية معاملة متغير طبيعى فما الذى يمكن أن تعنيه هذه العبارة اللهم الا أن تلقى بناء فى بحار من الذاتية التى لا قرار لأغوارها· ويمكننا أن نستطرد مستوحين آراء استاذنا « لاجاش » فنقرر بأن الموضوعية الحقة تنحصر فى هذه الوثبة الكيفية التى تنقلنا من عالم الميثوس الى عالم اللوغوس وذلك من فوق عالم الديماجوس ، وبعيدا عن عوالم الابولينوس (١) ۰ فاننا اذا طرحنا جانبـا عوالم الفن والعالم المألوف ، وعالم الرأى العـــام والحس الفطرى ، فان الموضوعية الحقة تكون فى هذه الوثبة الكيفية من ذاتية التخييلات والأخاييل الفردية الى « التأويل » الذى بنى الوقائع بناءا جديدا فى صورة أنموذج هيكلى ، نمط كيفى ، نمط من العلاقة المثالية ، بحيث تكون جميع الحـــالات الأخرى المماثلة مجرد تشكيلة تباينات ، مجرد تبديلات وضعية لذلك الأنموذج الهيكلى » ۰

فالموضوعية الحقة لا يمكن أن تكون فى الفطنة الى حتمية الذاتية بل بتخطى الذاتية الصرفة للعالم الخصوصى ، عالم « المثيوس » الى « الذاتية الموضوعية » ان جاز القول للتأويل ، عالم اللوجوس ۰ فالتأويل اذ يعيد بناء الوقائع فى صورة الأنموذج الهيكلى ، انما يقيم بذلك النظرية التفسيرية (أو

---

(١) المقصود « بالميثوس » العالم الخصـــوصى للذاتيـــة الفردية بتخييلتها ، و «باللوجوس» عالم العقل والحقيقة ، « بالديماجوس » عالم الاساطير والعالم المألوف، عالم الرأى العام والحس الفطرى ، أما « الابولينوس » فيشير الى عالم الفن ، والذى يشترك مع عالم « اللوجوس » فى قيامه على التأويل الذى يتيح هنا لذاتية الفنـــان أن تستحيل (عبر مشاركة الجماهير فى العمـــل الفنى بتقبلها له واعجابها به) الى « موضوعية » ۰

القوانين التفسيرية الفهميـــة التى تختلف عن قوانين التواتر) مما يجيب « بالحقيقة » على « الواقع » ٠

أما فيما يتصل بالموضوعية فى علاقة الكلينيكى بالآخـــر وأعنى حالة الملاحظة المشاركة من جانب الكلينيكى ، فما من ســـبيل لتخطى الذاتية الى موضوعية التأويل الحق الا بالرجوع الى ما وراء الذات بحيث يمسك الكلينيكى بنفسه ضمن اطارها الحقيقى ، أى ضمن قاعها اللاشعورى ٠ عندئذ وعندئذ فقط يتوقف الكلينيكى عن أن يمسك بالآخر ، المفحوص ضمن القاع الشعورى له (أى للكلينيكى) ليمسك بالآخر ضمن الاطار الحقيقى لهذا الآخر وبعيدا عن كل ادراك اسقاطى ٠٠ **ففهم الآخر مسألة مستحيلة قبل فهم الذات** ٠

وتظل الموضوعية بذلك ، هى الوثبة الكيفية من عالم الميثوس بتخيلاته وأخاييله وكل مكونات قاعة اللاشعورى الى عالم اللوجـــوس الذى يبنى موضوعية الوقائع ـ ان جاز القول ـ فى العالم الداخلى (عالم الذاتية التى تعى ذاتيتها) صرحا تأويليا (١) ، يجيب «بالحقيقة» على « الواقع » وتلك هى الموضوعية الحقة ٠

عن مشكلات ما وراء المنهج « الموضوعية والذاتية » سيد عثمان

الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ـ المجلد الخامس

« من هذا نرى كيف أن الأدوات الموضوعية ليست خالصة الموضوعية كما قد نحسب ، وليست مبرأة من الذاتية كما نحب أن نعتقد ، لا فى تصميمها ولا فى تطبيقاتها ولا فى التعامل مع ما تضع بين ايدينا من معلومات » ٠ واذا كان هذا هو نصيب الأدوات الموضوعية من الذاتية ، فلنلتفت لنرى ما فى النظر الذاتى والرأى الذاتى والحكم الذاتى من موضوعية وأبادر فاقرر أن ما أقصده بالنظر أو الرأى أو الحكم الذاتى يمكن أن ندرجه تحت عملية معرفية نسميها « البصيرة العلمية » ٠٠٠ الا يحتمل أن ينتهى بنا المطاف فى كلامنا عن الموضوعية الناضجة ان نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الذاتية الناضجة ؟ **عندئذ الا نتدبر** لحين يتلاقى ما هو ذاتى مع ما هو موضوعى » ٠

---

(١) المقصود بالنظريات التفسيرية والقوانين الفهمية فى استبعاد لقوانين التواتر٠

نعـــم ··· فالموضوعية الحقة ليست غير الذاتية الناضجة التى تتخطى عوالم الفردية الصرفة (الميثوس) بلوغا الى الذاتية الموضوعية التى تقيـم التأويل (اللوجوس) ببنائها من جديد للوقائع فى صـــــورة النمط الكيفى والأنموذج الهيكلى الذى يقدم العلاقة المثالية ، هذه التى تكون كل الحــالات الأخرى المماثلة ليست غير تشكيلة تباينات لتجسد ما فى الواقع العيانى ·

مثل هذا التأويل يجيب بالحقيقة على الواقع ·

صلاح مخيمر

الفصل الثانى ·

فى المنهج الكلينيكى (١) وفنياته

المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية · والكلمةترجع فى أصلها الى اليونانية · فالكلمة اليونانية « كلينيكوس » تعنى مختلف أوجه العلاج الطبى التى تبذل للمريض فى فراشه ، وحيث « كلينى » تعنى الفراش وحيث « كليناين » تعنى يضطجع · ولكن هذه الكلمة اتسع معناها مع الوقت فأصبحت تعنى هذا الفن الذى ينحصر فى استجواب وفحص وملاحظة المرضى والانتهاء من ذلك الى تشخيص حالى (دياجنوزس) والى تشخيص التطـور المقبل للحالة (بروجنوزس) ، ثم تحديد العلاج الملائم للمرض · واذا كان هذا كله فى مجال الطب البدنى يمكن تلخيصه فى الفحص الدقيق لحالة فردية فان ذلك لا يختلف فى شىء عن الدراسة النفسية العميقة لحالة فردية للانتهاء منها الى تشخيص حالى وتشخيص للتطور المقبل وتحديد للعلاج ·

واذا كانت السوية النفسية (كالمعافاة البدنية المطلقة) مجرد خرافة، ومثل أعلى نقترب منه بدرجة أو أخرى ، فان المنهج الكلينيكى فى دراسته العميقة للحالات الفردية لا يقتصر على المرضى دون الاسوياء بل ينسحب على جميع الحالات بغير استثناء فما نسمية بالسوية النفسية ليس غير درجة هينة من العصابية · ويتضح هذا من أن المنهج الكلينيكى يتبنى زاوية الرؤية لعلم النفس المرضى (السيكوباثولوجيا) وهى الزاوية السيكودينامية التى عـادة ما نتكلم عنها على أنها مفهوم الدينامية · ومفهوم الدينامية يقوم كما نعلم على الصراع · فالحياة ليست غير سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها ، ويصدق هذا على الحرب ، كما يصدق على الحب ، ولكن اذا كان صـميم الحياة ليس غير سلسلة من الصراعات ، فان حلول هذه الصراعات يمـكن

---

(١) يخطىء البعض فيتوهم ان المنهج الكلينيكى هو التحليل الكيفى للاجابات على المقاييس المقننة ، بينما يتوهم البعض الاخر انه يستخدم المنهج الكلينيكى عندما تكون المجموعة التجريبية فى المنهج التجريبى الذى يستخدمه من المرضى أو المعوقين · وكل هذا يدخل فى باب الاوهام ، فالمنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة للحالة الفـردية عن طريق المقابلات الشخصية الطليقة التى تستعين بالاختبارات الاسقاطية وفنيـات التحليل النفسى ·

أن تكون (بالنسبة الى الراشد مثلا) على مستوى الرشـــد ، فتكون حلولا انشائية بنائية لا تقتصر على خفض التواترات بشكل مكتمل تحقق أيضـــا امكانيات الفرد وقيمة ذاته ، كما يمكن أن تكون هذه الحلول للصراعات على مستوى نكوص بحيث لا يواجهها الراشد على مستوى الرشد بل مستوى طفلى يتيح خفض التواترات ولكن بشكل جـــزئى وعلى حساب تفكيك الشخصية والنيل من قيمة الذات · هذه الحلول الأخيرة هى الأمراض النفسية (الأعصبة أو أعصبة الطرح) والأمراض العقلية (الاذهنة أو الأعصبة النرجسية) أو غير ذلك من اضطرابات الشخصية واختلالات السلوك (من قبيل الانحرافات الجنسية والادمانات والمسالك الاندفاعية أو الاجرامية) والمنهج الكلينيكى فى هذا كله يقوم بالدراسة العميقة للحالة الفـــردية وينتهى من ذلك الى تشخيص حالى وتشخيص للتطور المقبل ، وتحيد للطرائق التى يــكون بها العـــلاج ·

وهنا ينبغى أن نميز ما بين الطب النفسى وبين العلاج النفسى بصوره المختلفة (من تحليل نفسى أو علاج سلوكى أو تعديل للسلوك أو علاج ظاهرياتى أو غير ذلك من صور العلاج النفسى) ، فالطب النفسى يقوم على وجهة النظر الفسيولوجية العصبية بمعنى أن اضطرابت الشخصية والسلوك ترجع فى رأيه الى اصابات واختلالات عضوية وعلى الخصوص فى الجهاز العصبى ومن هنا يكون العلاج عن طريق العقاقير والصدمات الكهربية وما الى ذلك ، أما العلاج النفسى فيقوم على وجهة النظر السيكولوجية بمعنى أن اضطرابات الشخصية والسلوك ترجع فى رأيه الى صراعات ساء حالها مما يعنى أنالحلول قد جاءت نكوصية تفكيكية ومن هنا يكون العلاج بطريقة أو أخرى من طرق العـــلاج النفسى والتى تقوم كلها بشكل أساسى على المقابلة الشخصية ودراسة تاريخ الحالة للوصول الى « فهم » يمكن من العلاج · وكذلك فان العلاج النفسى بمختلف أشكاله يقوم على علاقة المعالج بالمريض مما يسميه التحليل النفسى بظاهرة الطرح ، كما يقوم على السيكودينامية أى النظر الى الحياة على أنها سلسلة من الصراعات ، وبالتالى يكون التنقيب عن الصراعات الأساسية التى تعتبر مسئولة عنالأعراض المرضية، طالما أن هذه الأعراض المرضية غالبا(١)

---

(١) بعض الاعراض المرضية لا تكون تعبيرا عن الحفزات الغريزية والدفاعات معا وفى نفس الوقت بل تكون مجرد تعبير عن الدفاعات ، أو تكون مجرد تعبير عن اقفارد

ما تكون محصلة لحفزات غريزية مكبوتة ولدفاعات الأنا مما يعنى اشباعا جزئيا وفى صورة غير مباشرة للحفزات الغريزية المكبوتة (بمعنى أنهـــا تعرضت للاستبعاد ولم تسمح لها ميكانزمات الدفاع بالدخول الى الشعور نتيجة لاستهجانها من جانب الأنا العليا) • واذا كان البعض ينكرون الطرح كمصطلح تحليلى فانهم يعترفون مع ذلك بأهمية العلاقة بين المعالج والمريض، واذا كان البعض الآخر قد حاول انكار الصراع من قبيل « وولبى » فانهم مع الوقت قد وجدوا أنفسهم مضطرين الى الاعتراف بضرورة الدراسة العميقة للشخصية وتبين الصراعات الأساسية لدى الفرد •

ولكن اذا كان الكل يتفق على مفهوم السيكودينامية ، فليس معنى هذا أنهم يتفقون فى نظرتهم الى الصراع • ففى التحليل النفسى لا تتولد الأعراض المرضية الا عن صراعات لا شعورية (بمعنى صراعات اسبعدتها ميكانزمات الدفاع فأعادتها من جديد الى منظمة الهى دون أن تسمح لهـــا بالدخـــول الى الشعور أو بالبقاء فى الشعور) بينما تظل الصراعات الشعورية مهمـــا كانت شدتها وحدتها عاجزة عن توليد أى أعراض مرضـــية • وبالنسبة الى السلوكية سيان منها التقليدية (دولرد وميلر) أو الجديدة التى تعرف بتعديل السلوك (وولبى ، كرازنر ، لازاروس ، أيزنك ، راخمان ، بندورا) فلا اعتراف بالطبع باللاشعور ومن هنا تكون الصراعات المولدة للمـــرض هى صراعات شعورية ، وكذلك الحال بالنسبة الى كل مدارس التيار الظاهرياتى (وهى وثيقة الصلة بنظرية الجشطلت) فانها تنكر أيضا اللاشعور وبالتالى فكل الصراعات هى شعورية • ومع ذلك فاننا نجد « روجرس » يعترف بما قبـــل الشعور كما نجد « بيرلز » يتحدث عن الكتب • والصراع فى التحليل النفسى هو حفزة غريزية خطرة سيان كانت جنسية أو عدوانية يتولد عنها القلق الذى هو أشد المشاعر أيلاما • ولمواجهـــة هـــذا القلق تعبىء الأنا ميكانزماتها الدفاعية (١) التى يمكن أن تنجح وتسمى فى هذه الحالة بالاعلاء ، كما يمكن

الانا من الطاقة نتيجة لاستنفاد غالبية الطاقة فى الدفاعات وهذا يعرف عادة بالعصاب الفعلى ، مما نجد له شبيها اثناء فترة المراهقة • والعصاب الفعلى عند فرويد يشتمل على عصاب القلق والنيوراستينا • أنظر (نظرية التحليل النفسى فى العصاب • أتوفنخل ـ الترجمة العربية) مخيمر ـ الانجلو •

(١) توجد ميكانزمات غير دفاعية هى العمليات الاولية أو النمط الاولى التى تعمل داخل الهى وتقوم بصياغة الحلم ولكن مخيمر يعتبر هذه الميكانزمات هى الاخرى دفاعية فى طابعها •

أن تفشل فتنتج عنها الأعراض المرضية فى صورها المختلفة • أما فى السلوكية فالصراع اما أن يكون بين أقدامين بالنسبة الى شيئين يشدان الفرد اليهمـا أو يكون بين احجامين بالنسبة الى شيئين لا يستطيع الفرد أن يتجنب أحدهما دون الوقوع فى الشيء الآخر ولكن الصراعات التى تولد المرض فى السلوكية غالبا ما تكون بين اقدام وأحجام أى بالنسبة الى شيء يشد الفرد اليه بقـدر ما يدفعه عنه • ويعيش الفرد الصراع توأترا شديدا يعمل على التخلص منه بالمحاولات والأخطاء (على طريقة ثورنديك) حتى يقع أخيرا على سـلوك يخفض التوتر ومن ثم يلقى « التعزيز » ويثبت فى صورة تعلم • وهذا السلوك يمكن أن يكون فى رأيهم ميكانزما دفاعيا أو عرضا من الأعراض المرضـية العصابية أو الذهانية • وفى التيار الظاهرياتى يظل الصراع شعوريا وان اختلفت صوره • ففى العلاج الوجودى مثلا ينصب الصراع على ضرورة الاختيار مما يعنى الحرية والمسئولية وما يلحق بذلك من قلق وجودى ودوار، ومما يدفع الكثيرين الى الهرب من الحرية بتبعاتها الثقيلة للاحتمـاء فى التباعية والمرض •

واذا كان هناك ما نقوله تجاه هذا التباين فى مفهوم الصراع وتباين طرائق العلاج النفسى فذلك هو النصح بالانتقائية بمعنى أن نتخير فى كل حالة ما يتفق مع فرديتها الفريدة • فكل وجهات النظر هذه تنطوى على شيء من الحقيقة دون أن تستأثر واحـدة منها بكل الحقيقة ، وكل الفنيـات العلاجية تنطوى على شيء من الفائدة تبعا لنوعية الحالة • ومن هنا كان اختيـارنا كمدرسة للكلينيكية المسلحة وللانتقائية العلاجية : لا نرفض شيئا يمكن أن يوسع من قدرتنا على الفهم ونقوم بتفصيل الفنيات على مقاس النوعية الفريدة للحـالة •

واذا كان لنا أن نعطى فكرة عن الأمراض النفسية أو العقلية لقلنـا أن الأمراض النفسية هى الفوبيات (المخاوف المرضية من الفئران والصراصير أو الظلام •• الخ) والهستريا التى تسمى عادة بالتبدين نظرا لأن الصراع النفسى يغير من طبيعته النفسية ويعبر عن نفسه فى صورة أعراض بدنيـة تتراوح من القيء الهستيرى تعبيريا عن التقذذ النفسى الى الحمـل الـكاذب والشلل الهستيرى •• وعادة ما يعتبر التجوال النائم وحالات فقدان الذاكرة أمتزيات من صور الهستريا التى يمكن فى الواقع أن تحـاكى أية أعراض مرضية بدنية عند الآخرين •

وثالثا واخيرا العصاب القهرى الذى يعتبر اخطر الأمراض النفسية والذى يتميز بأفكار سخيفة ومع ذلك تفرض نفسها على تفكير المريض بشكل قهرى لا يمكن مقاومته أو بسلوك سخيف يفرض نفسه بشكل قهرى بحيث لا يستطيع المريض أن يقاومه (كأن يغسل يده عشرين مرة) ٠ وأما الأمراض العقلية فهى الذهان الهوسى الاكتئابى والفصام (شيزوفرنيا) ٠ وفى الذهان الهوسى الاكتئابى يعيش المريض نوبات من الهوس (نشاط حركى + افكار سريعة التلاحق) ونوبات من الاكتئاب هى فى الواقع نوبات من السودوية ينغلق الكائن فيها على نفسه وربما تصل الى محاولة الانتحار ٠ وبين نوبات الهوس المتتابعة ، أو بين نوبات الاكتئاب المتتابعة او بين النوبات المتتابعة من الهوس والاكتئاب يعيش المريض فترات عادية ســـــوية تماما ٠ اما الفصام (الشيزوفرنيا) ، فهو ذروة الأمراض العقلية حيث تنهار المعابر التى تربط الفرد بالعالم فيعيش داخل ذاته كاشفا عن الخلط العقلى الذى لا يمكنـــه من معرفة الزمان أو المكان ٠ وتعتبر البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) صورة هينة من الفصام تتعقد مع الوقت حتى تصبح ما يسمى بالفصـــام البارانويدى ٠ وهناك أنواع أخرى من الفصام كالفصام الكاتاتونى والفصام الهيبيفرينى والفصام البسيط وما الى ذلك ٠ هذه كلمات موجزة تقتصر على التعريف بأسماء الأمراض النفسية والعقلية الشهيرة ٠ بينما يكون عــلى الراغب فى المزيد أن يرجع الى الجزأين الثانى والثالث من الترجمة العـــربية لكتاب اتوفينخل « نظرية التحليل النفسى فى العصاب » ٠

نعود من جديد لنقرر أن موضوع المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة للحالة الفردية أى للشخصية فىبيئتها (أو الجماعة كحالة فردية) معنى هذا أن المنهج الكلينيكى يدرس المشكلات السلوكية عند الشخص أى يدرس الشخص كحامل مشكلة ، وبالتالى ككائن عيانى برمته فى جملة علاقاته بيئته ٠ ما هى المواقف التى تثير القلق لديه ؟ وما هى أساليبه المميزة فى الدفاع ضد هذا القلق ؟ وهل أساليبه هذه توافقية تكيفية أو توافقية غير تكيفية ؟ وهدف المنهج الكلينيكى كما قلنا هو تحديد جملة الشروط (العوامل) الحاكمة للســـلوك وذلك ببحث شامل مطوق «يعيد بناء» الوقائع فى صورة التشخيص الحـــالى (دياجنوزس) الذى يحدد مكان السلوك من جملة الشروط الحاكمة له ٠ ومهما كانت الأهداف العمليـــة من استشارة أو توجيهه أو علاج أو تأهيل، فان الهدف النظرى يظل أبدا هو التشخيص الحالى وتشخيص التطـور المقبل

وما يترتب على ذلك من تحديد لطريقة العلاج أو نوعية الاستشارة أو التوجيه. فاذا كان الهدف العملى هو اعانة الشخص فان الهدف النظرى ينحصرفى « فهمه » الذى يتحقق بالتشخيص الذى هو **امساك بالدلالة الخاصة لجملة علاقات الشخص ببيئته** .

ففى حالة اختفاء دورة الطمث عند طالبة جامعية توصل التشخيص الى أنها ترفض أنوثتها وترفض جميع الرجال ، ومن هنا كان اختفاء دورة الطمث يعنى فى هذا المستوى رفضا لرمز الأنوثة الناضجة ونعنى دورة الطمث . ولكن تبين مخيمر فى مستوى أعمق أنها ترفض أنوثتها مع جميع الرجال لأنها لا تريد منذ طفولتها أن تمارس أنوثتها الا مع أبيها . واتضح فى كثرة من أحلامها ليس فقط تثبيتها على الأب بل ورغبتها فى أن تنجب منه طفلا مما يعنى أن تصبح « حاملا » من أبيها . وبذلك اتضح مرضها كعرض هسترى يعبر فى صورة بدنية عن تحقق الرغبة النفسية . وعليه يكون اختفاء دورة الطمث فى المستوى العميق دلالة على أنها أصبحت الآن « حاملا » . بذلك فقط يكتمل التشخيص أى الامساك بجملة علاقات الكائن ببيئته بما فى ذلك بالطبع علاقاته اللاشعورية ، وبذلك أيضا نكون قد بلغنا الى تحديد مكان السلوك الذى ندرسه (اختفاء دورة الطمث) من جملة الشروط الحاكمة له . واذا كانت هذه الحالة قد عولجت بالتحليل النفسى فينبغى الا ننسى أن التحليل النفسى هو صورة ممعنة للمنهج الكلينيكى تتميز بحرص المحلل على الحيادية وبنظرته الى الوقائع التى تتتابع فى الاطار العلاجى من زاوية الطرح (بمعنى أنها تكرار لخبرات الطفولة تجاه المحلل كبديل أبوى) وفيما عدا ذلك فالتحليل النفسى هو ملاحظة كلينيكية موزعة بطريقة ثابتة على فترة طويلة .

التشـــخيص

هدف المنهج الكلينيكي وصميمه

١ ـ **هدف التشخيص** : من الناحية العلمية معرفي ومن ثم عام فهو ليس بتكديس لتشخيصات جزئية بل فعل ختامي تتكامل فيه التشـــخيصات الجزئية في بناء هو الوحدة الكلية للعوامل الشارطة للسلوك ، ومن النــاحية العملية هدف التشخيص تقديم فرض للعمل (علاج أو نصائح ٠٠ الخ) وبكلمات أخرى فان هدف التشخيص من الناحية العلمية هو الامساك بالدلالة الخاصة لكائن في موقف ، والتشخيص هو فعل ختامي وليس مجموعة من التشخيصات المتعاقبة الجزئية ٠ وعادة ما تكون الملاحظة من الدقة والعمق بقدر ما تكون عينة السلوك أعمق تمثيلا ، فالمنهج الكلينيكي يقوم بتشخيص ما « يفلت » من الفرد لا كل ما يصدر عنه ، مثال ذلك أن يجيب المريض على تسعة وتسـعين سؤالا بما يفيد توافقه بينما تنطوى اجابة فى السؤال الأخير رقم ١٠٠ عـلى أنه يمارس الاتصال الجنسى مع الجثث (نيكروفيليا) ٠ هنا يقتصر تشخيص الكلينيكى على ما تبين فى الاجابة على السؤال الأخير بصرف النظـــر عن الاجابة على الأسئلة السابقة بينما التجريبى السيكومترى يقتصر على جمـع النتائج فيكون صاحب هذه الحالة قمة فى التوافق لأنه يحصل ٩٩٪ ٠ أما من الناحية العملية فالتشخيص يزودنا بقاعدة للعمل ٠

٢ ـ **مضمون التشخيص** : ليس مجرد الصاق بطاقة بهذا الصنف أو ذاك من أصناف الطب العقلى التقليدى أى ليس بتحديد النمط بالرجوع الى تصنيف جاهز بل هو عملية دينامية تنصب على فرد بعينه فى موقف بعينـه فى لحظة بعينها ، وتحديد الدلالة التى تنطوى عليها جملة علاقاته مع بيئته٠ فالمنهج الكلينيكى يتكيف مع حالة حاله فيضع برنامج العمل فى تلاؤم مـع الفرد موضع التشخيص ٠ فالتشخيص تعبير عن لحظة من لحظات التطـور لتاريخ شخصية فى علاقاتها بالبيئة ٠

وفى كلمات فان مضمون التشخيص ينحصر فى تأويل السلوك بالرجوع الى أنماط كيفية معروفة سبقا للكلينيكى وذلك فى مراعاة بدقة للخصائص الفريدة للحالة مما ينتهى الى تحديد الدلالة الخاصة لجملة علاقات الكائن ببيئته هنا والآن أى فى موقف بعينه وفى لحظة بعينها من لحظات وجوده من حيث

هودينامية بسبيل التطور وكيان فى صيرورة متصلة ٠

٣ ـ بنيان التشخيص : ينطوى على عمليتين ، الأولى هى « المماثلة » بمعنى ادراج الحالة ضمن نمط عام من أنماط العلاقة المثالية اســتنادا الى الى المعارف السابقة والثانية هى « الموائمة » بمعنى تبين الخصائص الفردية الفريدة التى يتجسد عليها النمط العام فى هذه الحالة بالذات ٠ والعمليــة الأولى تشير الى الجاهز المألوف ، بينما تشير الثانية الى الجديد والذكاء ، ففى المماثلة نماثل الحالة التى أمامنا بمرض من الأمراض المعروفة فى عـلم النفس المرضى أى الصاق بطاقة بالهستريا مثلا ، ولكن ما من فرد يعيش الهستريا أو الملاريا كما تصفها الكتب لأن الكتب تقتصر على تقــديم النمط الكيفى أى العلاقة المثالية بين الجنبات الرئيسية للظاهرة ، بينما تتجســد هذه العلاقة المثالية فى الواقع العيانى فى انتظامات فردية فريدة لا نهـــاية لتباينها ٠ ومن هنا تكون ضرورة الموائمة لتبين الانتظام الفريد الذى تتجسد عليه الهستريا مثلا فى هذه الحالة ٠ ففى المماثلة نماثل الحالة التى أمامنا بالنمط الكيفى ، بنمط العلاقة المثالية فنلصق بطاقة هستريا ، بينما فى الموائمة نبلغ الى تحديد الصورة التى تتجسد عليها العلاقة المثالية فى الواقع العيانى لهذه الحالة ٠ وقبل أن نبلغ الى الصورة الفريدة للهستريا فى الحالة التى أمامنا لا يكون هناك تشخيص ٠

٤ ـ فنيات التشخيص : بالاضافة الى ضرورة معرفة الكلينيكى للنظريات لابد من معرفته بالفنيات أى الوسائل التى تزوده بمختلف المعطيات ٠

(أ) معطيات تاريخية : معرفة تاريخ حياة الشخص منذ أشهر الحمل حتى الآن وذلك فى المقابلة الشخصية الطليقة (استبيان مخيمر للمقابلة الشخصية) ٠

(ب) معطيات حالية : ملاحظة مباشرة أثناء المقابلة للتصرفات مع الأقوال (تبين ما لا يقولة الشخص ، وما لا يريد أن يقوله وما يتردد فى قوله ٠٠ الخ) ٠ كل ذلك بالاضافة الى مجالات حياته الحــالية ضمن ظروفه البيئية ٠ وذلك كله فى المقابلة الشخصية الطليقة ٠

(جـ) معطيات قياسية : الاستعانة عند اللزوم بالمقاييس المقننة

(كلينيكية مسلحة) ، هذا الى الاختبارات الاســـــقاطية وملاحظات الاخصائى الاجتماعى للحالة ضمن اطاره الأسرى أو المدرسى الخ ٠

(د) معطيات تحليلية : تفسير الأحلام وخاصة التى تتكرر أو التى تكون فى صورة « كوابيس » ، وتفسير الهفوات والحركات البدنية المرهفة التى تصدر عن الشخص أثناء المقابلة ٠

ولكن لب المنهج الكلينيكى هو تاريخ الحالة والملاحظة المباشرة ٠

٥ ـ **منطق التشخيص** : التشخيص ليس عملية رص للوقائع بل تأويل لها يبنيها بناء جديدا فى وحدة كلية تتيح فهم دلالة السلوك ووظيفته أى فهم الكائن فى علاقته ببيئته ، ويتحقق ذلك بحركة ديالكيتية من الفكر تمضى من الوقائع الى الفرض التفسيرى لتعود الى وقائع أخرى تعدل من الفرض الأصلى وهكذا ٠٠ فالتشخيص عملية دينامية ليس لها من الناحية النظرية أن تتوقف ولكن الناحية العملية تحتم التوقف عند الوصول الى تأويل يجيب على المتطلبات العاجلة للحالة ٠ هذه الحركة الديالكيتية للفكر يسبقها تحـــديد للمشكلة ويختمها اقامة التشخيص ٠

وفى كلمات نقرر بأن التشخيص ليس برص أو بجمع معطيات الواقع دون وحدة كلية ، فلابد من تأويلها أى « اعادة بنائها بناء جديدا » بحيث نمسك بدلالة السلوك فى علاقاته بالبيئة هنا والآن ٠ وعمل الفكر هو ذهاب ومجىء بين المعطيات والتأويل ٠

٦ ـ **مراحل التشخيص** : ثلاث مراحل : تحديد المشكلة فى ســـؤال محدد أى صياغة فروض العمل حتى يمكن تحديد خطة العمل ٠ نحصـــل على معطيات نستخلص منها فى نهاية كل مسيرة دلالتها ، ثم معطيات أخرى تعدل أو تعمق الدلالة ، وهكذا ذهاب ومجىء متصل ما بين التأويل والوقائع فى حركة لا ينبغى أن تتوقف من حيث المبدأ وانما تتوقف لأهداف عملية ٠ فى المرحلة الأولى ننتهى الى برنامج العمل ، وفى الثانية نضطلع بدراسة الحالة متجهين فى كل مسيرة تبعا لما انتهينا اليه عبر معطيات المسيرة الســـابقة وهكذا ، أما المرحلة الثالثة فاقامة التشخيص فى مراعاة للمعايير ٠

٧ - معايير التشخيص : أهمها معيار التكامل ومعيار التقاء الوقائع ومعيار الاقتصاد ثم يأتي بعد ذلك معيار الوفرة والدقة ومعيار الخصوبة ومعار التنبؤ ٠

(أ) معيار التكامل : بمعنى أن تتكامل هذه المعطيات ضمن الوحدة التاريخية والحالية في صورة علاقات صراعية مع البيئة وبحيث لا تبقى واقعة واحدة لا تجد مكانها ضمن الكل التفسيري الواحد ٠

(ب) التقاء الوقائع : بمعنى أن تكون الوقائع من المصادر المختلفة كالاحلام والاختبارات الاسقاطية والهفوات ، ملتقية عند نفس الدلالة ٠

(جـ) معيار الاقتصاد : بمعنى أن التأويل يكون من المعقولية بقدر ما يرد أكبر عدد من الوقائع الى أقل عدد من المبادىء التفسيرية ٠

(د) معيار الثراء والدقة ٠ بقدر ما تكون المعطيات ثرية ودقيقة يكون التشخيص أمعن صدقا ٠

(هـ) الخصوبة : بمعنى أن ينطوى التشخيص على جديد لم يكن فى الوقائع من حيث هى كذلك ٠

(و) التنبؤ : بمعنى أن يسمح التشخيص بالتنبؤ بما يمكن أن يكون عليه سلوك الشخص فى موقف بعينه ٠

أهمية المنهج الكلينيكى

ليس من شك فى أن علم النفس قد أحرز منذ بداية القرن العشرين تقدما هائلا فى طرائقه التجريبية السيكومترية التى تقوم على المقاييس المقننة ، هذه التى تمكننا من تحديد مكان المفحوص بالنسبة الى الآخرين من زاوية قدرة من القدرات أو اتجاه من الاتجاهات ، ومن ثم تمكننا من أن نضع المفحوص من حيث هو آلة من الآلات البشرية على أنسب آلة من الآلات الميكانيكية · ونحن اليوم نجدنا أمام ما يزيد على ثلاثة آلاف من مختلف المقـــاييس المقننـة والاستبيانات وسلالم القياس ، وما الى ذلك من أدوات قياسية تسمح بتحديد مكان المفحوص من الآخرين دون أن تسمح لنا على أية حال بالبلوغ الى «فهم» هذا المفحوص من حيث هو حامل مشكلة · فكل هذه المقاييس على الرغم من تعددها وتنوعها تظل قاصرة أمام تعقد الكائن البشرى وثراء امكانياته ·

والواقع أن كل المقاييس النفسية (السيكومترية) تنفتح لانتقـــادات قاتلة فكل المقاييس مثلا تستجوب الشعور ، والشعور كما نعلم جزئى ومتحيز وبالتالى لا ينطوى على الحقيقة، ومن هنا تأتى النتائج مضللة وعبثا لا طائلة منه · وعلى سبيل المثال فان المقاييس المقننة قد كشفت عن أن الذين يتعاطون الحشيش ينعمون بمستوى مرتفع من الرضى عن أنفسهم وعى حياتهم ، ولو كان هذا صحيحا لما كان هناك ما يدفعهم الى تعاطى الحشيش · فقد كشفت الدراسات الكلينيكية وخصوصا فى صورتها الممعنة ونعنى التحليل النفسى عن وجود أرضية اكتئابية عند الذين يتعاطون الخشيش والخمور وما الى ذلك من مخدرات ، وانهم يحاولون التغلب على هذا الاكتئاب بتعاطى هذه المخدرات التى تعفيهم من الوعى · والأمثلة من هذا القبيل تزيد على الحصر، ولكننا فى الحياة العادية ودون تخصص فى علم النفس كثيرا ما نلتقى بزوجة تشكو مر الشكوة من زوجها وقسوته وعنفه ولكنها مع ذلك ترفض كل محاولة لمساعداتها على الخلاص منه بحجة « العيال » · وتمضى سنوات ويموت الزوج فاذا بها تحزن عليه أشد الحزن وبعد شهور يدهش الذين يعرفونها من أنها تزوجت من رجل آخر ربما يزيد فى قسوته وعنفه عن زوجها الأول الذى توفى· مثل هذه الزوجة سوف تكشف فى أى مقياس مقنن عن ذروة السخط بينما هى فى حقيقة الأمر تشبع مازوشيتها الأنثوية وتشعر فى أعماقها بالرضى عن زوجها بسبب قسوته وعنفه طالما أن سادية تشبع مازوشيتها · وفى احـدي

الروايات لا تكف الخادمة العجوز عن زالشكوى وتمنى الموت · وتموت حبيبة سيدها الشاب وتذهب الى « هيدز » التى هى الآخرة فى الأساطير اليونانية· ويقوم السيد الشاب بالمساعي حتى يتمكن من موافقة الحراس على اخـراج حبيبته من العالم الآخر وعلى شريطة أن يأتيبواحدة أخرىفىمكانها لأن المهم عندهم أن يكون العدد غير منقوص · ويسارع السيد الشاب الى الخادمة العجوز وهو على ثقة من كل شيء ولكنها ترفض بشدة وتقول له « صحيح أننى أشكو وأتمنى الموت ، ولكن ليس معنى هذا اننى أريد أن أموت بل اريد أن تكون حياتى سلسلة متصلة من الشكوى وتمنى الموت » وتعتبر هذه العبارة أدق تعبير عن المازوشية الانثوية التى لا تبلغ اللذة الا عبر المعاناة ·

فالمقاييس المقننة بكل صورها وان اتسمت بالتقنين الكمى الذى يكسبها مظهر الدقة والموضوعية (١) وما الى ذلك من أشكال الضعة العلمية (من حيث أنها تقدم النتائج فى أرقام يسهل مقارنتها وتصنيفها بالرجـــوع الى الدراسات الاحصائية) ، فانها مع ذلك تقتصر على تحديد هذا الوجه أو ذاك من الأوجه الجزئية للشخصية ، تمسك به « ها هنا وفى اللحظة الحـاضرة » دون أن تقيمحسابا للشخصية منحيث هيوحدة كليةحاليةووحدة كلية زمنية وقوى تتمخض صراعاتها عن محصلات هى المسالك والميكانيزمات الدفاعية·

يتضح هذا القصور للمقاييس المقننة من المثالين التاليين · فعند تطبيق المقياس الخاص بالمهارة اليدوية على واحد من أشـــهر الجراحين ، كشف القياس عن انعدام المهارة اليدوية لديه · ولما كان واقع حياته كجراح من أشهر الجراحين يقدم الدليل القاطع على كذب المقياس فقد وجد علمـــاء القياس النفسى أنفسهم مضطرين (لتفسير هذه الظـــاهرة) الى ابتداع ما أسموه « بحشد القدرة » بمعنى أن الجراح قد حشد كل مهارته اليـدوية فى مجال الجراحة فخلت من هذه المهارة كل المجالات الآخرى · وفى هـذا ولا شك ما يرينا ضرورة النظر الى الشخصية كوحدة كلية حالية تنطـوى

---

(١) لتبين الطابع الزائف لموضوعية أدوات القياس النفسى أنظر ما كتبه د · سيد عثمان رئيس قسم على النفس التعليمى بجامعة عين شمس وذلك فى « مشـــكلات ما وراء المنهج ـ الموضوعية والذاتية » من الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ـ المجلد الخامس ١٩٧٨ ـ انظر ايضا فضيحة سيرل برت أمام السيكومترية فى العالم ·

على مجالات عديدة يتحتم دراستها جميعا قبل الانتهاء الى شيء ينطوى على قيمة علمية · والمثال الآخر · لفرنسى أعمى من عميان الحرب العالمية الأولى يستمتع بحيوية دافقة ومع ذلك يرفض العمل مكتفيا بمعاشه · وتبين مخيمر أنه لا يريد أن يعمل حتى لا يتيح لزوجته مزيدا من رغد الحياة · كان يكره زوجته هذه ويأخذ على الكاثوليكية أنها لا تتيح تعدد الزوجات · كان قد تعرف عليها فى الأيام السابقة على رحيله الى الحرب ولم يكن ينتوى الزواج منها بل كان يرفه عن نفسه قبل الرحيل الى خط القتال ، وأصيب فى أحد المعارك وفقد بصره وعاد الى قريته ليعلم منها أنها حملت منه وأرغمته مشاعر الاثم التى كان يفهم من خلالها اصابته بالعمى الى أن يتزوج منها اصلاحا للخطأ الذى أنزله بها · وعليه فانه لم يكن فى حياة زوجية وانما فى هيكل يضطلع فيه بالتكفير عن فعلته الشنعاء · والآن وقد مرت سنوات طويلة من التكفير يشعر بالظلم وبأنه الضحية ولكن ما من طلاق ممكن فى الكاثوليكية · فكيف يعمل ليزيد من رغد الحياة بالنسبة الى امرأة تجثم كالكابوس على أنفاسه · وهنا لم يكن بوسعنا أن نفهم رفضه للعمل (المجال المهنى) الا بدراستنا لعلاقته مع زوجته (المجال الزواجى) بل هذه العلاقة بين الزوجين مكان لها أن تتضح دون الرجوع الى (تاريخ الحالة) وفى هذا ما يرينا ضرورة دراسة الشخصية من حيث هى وحدة كلية حالية ووحدة كلية تاريخية للبلوغ الى صراعاتها الأساسية ·

وفى حديثنا عن التشخيص رأينا كيف أن المقاييس تنظر الى الفرد على أنه مجرد حاصل جمع · فما دامت اجاباته تكشف عن توافقه فى ٩٩ سؤالا من بين المائة سؤال لاستبيان التوافق فانه يكون بذلك فى أعلى مستويات التوافق · وكما قلنا من قبل فان الاجابة على السؤال الأخير رقم ١٠٠ تكشف عن وجود « نيكروفيليا » لديه مما يعنى أن اتصالاته الجنسية قاصرة على جثث النساء اللائى توفين حديثا · ومن هنا فان العالم السيكومترى يقيم تشخيصه على الغالبية ويغفل تماما الاجابة على السؤال الاخير ، بينما الكلينيكى لا يقيم تشخيصه الا على السؤال الأخير · فالسيكومترية تقوم على معيار واحد هو التواتر أى مرات التكرار ، أما الكلينيكية فلا يعنيها التواتر فى شيء ولكن لها معاييرها الستة التى سبق أن شرحناها · والرجل العادى أقرب الى الكلينيكية لأنه لا يحكم على خطيئته استنادا الى عشرة أشهر من السلوك الذى لا يرتفع اليه غبار ، بل يكفى أن يراها مرة واحدة أثناء

هذه الفترة أو فى نهايتها تتبادل القبلات بين أحضان رجل آخر ، أنه يرفض هو الآخر منطق التواتر فى تشخيصه ويرفض النظر الى الشخصية على أنها مجرد حاصل جمع ٠

ولا تقتصر السيكومترية على ذلك بل انها لا تضع فى حسابها الدينامية والصيرورة ، وما ينطوى عليه الوجه الواحد الذى تقيسه من امكانيات كامنة مضمرة يمكن أن تتضح فى المستقبل وقد أوضح مخيمر فى مفهوم جديد « للتوافق » ان كل اختبارات التوافق مثلا تتخذ من خفض التوتر هنا والآن معيارها الوحيد وبذلك تغفل الجنبات الايجابية التى يمكن أن تغير اللوحة تماما فى مستقبل قريب ٠ فصميم الكائن البشرى هو دينامية بسبيل التطور وكيان فى صيرورة مما يعنى استحالة تشخيص الحاضر دون أن نضع فى اعتبارنا ما كان عليه الماضى وما يحتمل أن يكون عليه المستقبل ٠ وكم من شخص يبدو الآن غارقا فى مشكلاته ولكنه ينطوى على الكثير الذى يبشر بمستقبل زاهر ٠ وكم من فرد يبدو متألقا هنا والآن بينما لا ينطوى على شىء بالنسبة الى المستقبل بل وربما ينطوى على أشياء تؤكد انهياره الوشيك ٠

هذا كله الى ما يتسم به التجريب والقياس من طابع مصطنع يحتم علينا التردد قبل أن نسحب نتائجه بحسبانها تصدق على مواقف الحياة الحقة التى يعيشها الشخص ٠ ومن هنا فليس من الغريب أن ينتهى رئيس قسم علم النفس التعليمى بجامعة عين شمس الى أن الموضوعية العلمية لا تكون فى استخدام أدوات القياس المقننة بل تكون فى ما يسميه بالبصيرة ، هذه التى يعنى بها الاستبصار أو الحدس الكلينيكى الذى يتيح لصاحبه أن يبلغ الى « اعادة بناء » الوقائع فى صوره نمط كيفى يقدم العلاقة المثالية للجنبات الرئيسية للظاهرة ، هذه العلاقة المثالية التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيله من المتبينات التى لا نهاية لتباينها بتبين السياقات البيئية ٠ ونحن لا نغالى عندما نقرر أن مقال الدكتور ـ سيد عثمان ـ الذى اسبقت الاشارة اليه يعتبر أخطر ما كتب فى العربية فى مجال علم النفس بحيث لا تقترب منه أكداس المؤلفات الأخرى فى علم النفس سيان بالعربية أو بلغة أجنبية ٠

مسلمات المنهج الكلينيكى

المنهـــج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية بصرف النظر عن ائتمانها الى السوية أو اللاسوية • وتقوم هذه الدراســـة العميقة بدراسة شاملة مطوقة تستند الى ثلاث ركائز :

١ ـ **لا كلينيكية بغير دينامية** : تلك هى المسلمة الاولى من حيث الاهمية وان كانت الأخيرة من حيث مراحل العمل • فبدراستنا للوحدة الكلية التاريخية وللوحدة الكلية الحالية يكون بوسعنا أن نبلغ الى الدينامية بمعنى أن نبلغ الى تبين الصراعات الأساسية عند المفحوص •

وسيان كانت المسالك سوية أو لا سوية فانها تكون دائما مجرد محصلات لصراع القوى ونعنى الحفزات الغريزية والدفاعات الأخلاقية • تستوى فى ذلك على سبيل المثال ظاهرة الموضة التى هى عادية سوية ، وأى أعراض مرضية أخرى • ان الدراسة السيكولوجية للشخص ليست غير دراســـة لصراعاته ، وكل كائن بشرى يوجد دائما فى موقف صراع ، ويكرر فى مواقف حياته الحالية تلك الدفاعات التى استخدمها فى صراعاته الطفلية • وليست الحياة كما قلنا غير سلسلة من الصراعات ومحاولات حلها ، أو قل من ضياع الاتزان ومحاولة اعادة الاتزان ، وان كانت الصراعات والسعى اليها كاشتهاء للاستثارة هى التى تنتمى حقا فى رأى مخيمر الى غرائز الحياة بينما ينتمى خفض التواترات وفض الصراعات الى غرائز الموت ، طالما أن الصـــورة القصوية لخفض التوتر هى الموت والعدم •

ليست الحياة غير سلسلة من صراعات ومحاولات فضها • والكائن المتكيف هو الذى يستطيع أن ينهى صراعاته بمعنى أنه يشبع حاجاته ومن ثم يزيل توتراته بشكل مكتمل وعلى مستوى الرشد وبصورة تساير قيمة الذات وتحقق الامكانيات • أما الكائن غير المتكيف أو عديم التكيف فهو لا يبـــلغ الى ذلك بمعنى أنه لا يبلغ الى فض صراعاته وخفض تواتراته بشكل مكتمل، ومن ثم يلجأ الى الدفاع (عندما يستحيل الاشباع يكون الدفاع) وفى طليعة الدفاعات النكوص الى مرحلة سابقة من مراحل النمو وفى هذا المســـتوى النكوص يقوم بفض صراعاته وخفض تواتراته • ولكن بشكل جزئى وعـــلى حساب وحدة الشخصية وقيمة الذات •

واذا كان مفهوم الدفاع فى اشكاله غير الناضجة (يقوم) على النكوص فذلك شبيه بما يحدث عندما يعجز الجيش عن مواجهة العدو فيتقهقر حتى يصل الى هذه النقطة من خطوطه التى كان قد ترك عندها فى تقدمه أكبر عدد من قواته (نقطة التثبيت) • ولو عبرنا عن ذلك بلغة التحليل النفسى لقلنا أن النكوص يكون دائما الى نقطة التثبيت • وفى الحالة التى ينكص فيها الكائن البشرى الى مرحلة من مراحله الطفولة (الاوديبيــــــة أو الاستية السادية) بمعنى انه يواجه المشكلة على هذا المستوى من الطفولة فذلك هو العصاب أو المرض النفسى • أما اذا بلغ الشخص فى نكوصـــه الى هذه المرحلة السابقة على التمايز ما بين الذات والعالم الخارجى (بداية المرحلة الفمية) ومن ثم يلغى المشكلة بالغائه للعالم الخارجى من حيث هو كذلك ، فذلك هو الذهان أو المرض العقلى فى اخطر صوره مما يعرف باسم الفصام (شيزوفرينيا) • وهذا المفهوم يعرف بالنشوئية أى تحديد السوية اللاسوية بالرجوع الى مراحل النشأة • فكل سلوك فى اوانه سوى بينما يكون هو نفسه عندما يظهر بعد فوات أوانه مرضيا • ولكن بالاضافة الى مفهوم النشوئية ينبغى أن نضع فى اعتبارنا المفهـــومين الآخرين اللذين يكملان ما يسميه فرويد (الميتاسيكولوجية) ونعنى مفهوم الطبوغرافيـــة والاقتصادية النفسية • والطبوغرافية تعنى ان كل صراع هو دائمـــا ابدا صراع بين الحفزات الغريزية للهى والدفاعات الأخلاقية للأنا ، بينما تشير الاقتصاديات النفسية الى حساب كميات الطاقة للقوى المصطرعة •

فاذا كانت كمية الطاقة المستثمرة فى الحفزات الغريزية أكبر من تلك التى فى الدفاعات فســوف تنتصر الحفزات ، والعكس بالعكس • وكذلك فاننا فى الاقتصاديات النفسية نتبين كمية الطاقة المتاحة تحت تصرف النشاط الشـــعورى وقبل الشـــعورى للأنا (بعدما يضيع من طاقة فى المكبوتات والدفاعات) وبذلك نتبين قوة الأنا فى قدرتها على مواجهة الهى والأنا العليا• وقوة الأنا هى المعنى العلمى الوحيد للشخصية القوية • مثال يتضح منـه كيف أن فهم الشخصية هو فى صميمه كشف عن نوعية القوى المصطرعة عند الشخص وما تتمخض عنه الصراعات من محصلات هى بمثابة الميكانيزمات الدفاعية أو الأعراض المرضية أو المسالك التى تبدو لاسوية • وذلك هو ما يعبر عنه التحليل النفسى عندما يقرر بأن فهم الشخصية يتحقق بالكشف عن المواقف النوعية التى تثير عند الفرد مشاعر القلق والوسائل الدفاعية

الخاصة التى يستخدمها هذا الفرد فى مواجهة القلق · طالبة جامعية تتشبث بصورة من صور الحجاب بحيث لا تسمح لشعرة واحدة من شعر رأسها أن تبدوا لأنظار الآخرين · انها فى الحادية والعشرين وتصر على ذلك بعناد شديد منذ ستة سنوات عند بلوغها · وقد فشلت كل محاولات أبيها وأمها واخواتها لاقناعها بالعدول عن ذلك · ومن ست سنوات أيضا تعرفت على شاب يحظى بكل تقديرها واعجابها وتتصل به تليفونيا بشكل منتظم على مسمع من الجميع ولكنها ترفض أن تلتقى به فى الخارج · ومنذ الوهلة الأولى كان التناقض فى سلوكها صارخا · ففى الوقت الذى لاتستطيع أن تسمح لشعرة واحدة من رأسها أن تظهر خارج الحجاب ، كانت ترتدى بنطلون ضيقا بحيث يعطى عن النصف السفلى من بدنها صورة لا تختلف كثيرا عن تلك التى يمكن تكون للرائى لو كانت عارية ·

وطابع المحصلة واضح : فهى تريد ان تعرض للآخرين جمال بدنها (استعراضية) ولكنها فى الوقت نفسه لاتريد ولا تستطيع بالنظر الى القيم الأخلاقية ان تسمح لنفسها بذلك · ومن هنا كان الحرص المرضى المسرف على تغطية شعر الرأس بحيث لا يظهر غير الوجه واليدين الى المعصم · كان نصفها العلوى يترجم بدقة وفى صرامة عن الحفزات الأخلاقية ، بينما كان نصفها السفلى يكشف عن تآمره مع الحفزات الغريزية الاستعراضية ، وسيكولوجية الموضة تقوم كما يقرر مخيمر (١) على صراع بين الحفزات الغريزية الاستعراضية (التى تدفع المرأة الى الكشف عن مفاتنها) وبين الحفزات الدفاعية الأخلاقية (التى تدفع المرأة الى حجب مفاتنها) · ومن هنا فصميم الموضة هو ـ سلوك المحصلة ـ بحيث تستر المرأة بدنها على نحو يكشف عن مفاتنها ·

ولكن يستلفت الانتباه فى هذه الحالة أن تكون المحصلة على النحو الذى هى عليه بحيث تنفرد الأخلاقيات بالنصف العلوى من بدنها ، بينما تنفرد الحفزات الاستعراضية الغريزية بالنصف السفلى من بدنها · بل وربما يكون أكثر معقولية لو كان الأمر عكس ذلك · ثم ما هذه الأهمية غير العادية التى توليه لشعر رأسها بحيث تحرص على تغطيته كل هذا

---

(١) أنظر سيكولوجية الموضة ـ مخيمر ـ الطبعة الثانية ـ الانجلو ·

الحرص ؟ فى مقابلتين لا أكثر اتضح ان لديها « فوبيا » من الخفافيش فهى ترتعب منها • وفى مستدعياتها ذكرت هذا الاعتقاد الريفى الخاطىء الذى يدعى « أن الخفاش لما يلبد فى الوشى ، ما يطلعش الا بالطبل والزمر البلدى » ثم ذكرها الطبل والزمر البلدى بالفرح فى الريف ، وعندما قامت بمستدعيات على «يلبد فى الوش» تذكرت أنا الناس فى الريف يقولان عادة من قبيل الأدب « يأخذ وشها » بما يفيد ازالة بكارتها • وواضح من هذا كله ان « الوش » مرادف فى أعماقها للمهبل مما يستند ولا شك الى ميكانزم الازاحة الذى نلتقى به كثيرا وعلى الخصوص الاذاحة من أسفل الى أعلى •

بذلك تتضح الدلالة العميقة لحرصها المرضى المسرف على تغطية شعر رأسها • فما ذام وجهها يعنى المهبل ؟ فان شعر رأسها يعنى بالضرورة شعر العانة • وبالتالى فقد كانت بالنسبة الى أعماقها اللاشعورية تحرص على تغطية شعر العانة • وقد كان هذا التفسير كافيا بالنسبة اليها ليس فقط لتتخلا عن الحجاب بل وأيضا لتسمح لصديقها بأن تلتقى بها فى الخارج • وقبل ان يمر شهر واحد على ذلك كانت الأسرتان تحتفلان بالخطبة الرسمية لهمـــــا •

ولكن ينبغى أن نشير الى أن هذه الطالبة كانت فى حالة طرح موجب بالنسبة الى المعالج الذى كان اســـــتاذها وكانت تعجب بعلمـــــه وتعتز بشخصيته • فالتفسير وحده كناحية معرفية لايمكن أن يتمخض عن شىء • وكانت تعرف منذ اللقاء الأول ان استاذها المعالج يريد لها أن تكون منطقية مع نفسها بحيث تلغى الافراط فى نصفها العلوى وتلغى التفريط فى نصفها السفلى •

٢ ـ لا كلينيكية بغير وحدة كلية حالية :

وتنحصر المسلمة الثانية فى ضرورة تناول الشخصية فى وحدتها الكلية الحالية فقد كان الأمر فى البداية شبيها بالطب البيطرى ، يقتصر على مجهود الأعراض المرضية فى انعزال عن الشخصية تماما كما يحدث عند تشخيص حمار مريض أو كلب يتألم • وكان الأمر يقتصر على الصاق بطاقته باسم مرض من الأمراض المعـــــروفة • كان كل شىء يمض وكأن هذه الأعراض لا تنتسب الى شخص بعينه يعيش فى بيئة بعينها وذلك فى لحظة بعينها من

لحظات تطوره · أما المنهج الكلينيكى اليوم فليس للأعراض عنده من دلالة أو معنى الا بالرجوع للوحدة الكلية للشخصية فى صلتها بالعالم ·

يتضح ذلك مثلا من دراسة مخيمر « للأنماط الانفعالية للمكفوفين » ـ الانجلو · فالأعمى من النمط التسولى أو الضغيفى مما يمثل حضيض التوافق لا يكشف عن قلق أو توترات أو صراعات تذكر ، وذلك لأنه يتقبل تصـــور المبصرين للعمى على أنه عجز وانعدام لكل قدرة وبالتالى يعيش على حسنات الآخرين وعطفهم · أما الأعمى المتوسط والذى يمثل بالنسبة الى مخيمر درجة أعلى من التوافق ، فانه يرفض مفهوم المبصرين عن العمى ويقبل الدخول فى تحدى معهم ومع العمى وبالتالى يزداد قلقه وترتفع توتراته وتتعدد صراعاته وتظهر لديه كثرة من الأعراض المرضية (١) ·

وكذلك الحال بالنسبة الى المرأة الجملية التى ترفض أن تتعامل مع العالم على أساس التفريط فى شرفها الأنثوى ، فانها تعـــانى الكثير من الصراعات وتظهر لديها كثرة من الأعراض المرضية بالقياس الى زميلتها التى قبلت أن تبيع بدنها لتشبع حاجاتها على مستوى من الرفاهية· فمن ذلك نرى ان دلالة الأعراض المرضية لايمكن أن تتضح الا بالرجوع الى الشخصية فى وحدتها الكلية ضمن ظروفها البيئية ، مما يعنى ضرورة أن تنصب الدراسة على كل مجالات الحياة للمفحوص · ومن المعلوم فى دراسة التوافق ان مجال الانفعالية الحميمة بما ينطوى عليه من عاطفية وانسالية يمثل الأرضية التى تجرى عليها المباراة الأخيرة للتوافق · فلا توافق بغير رضى الفرد عن ذاته وحياته فى هذا المجال ·

٣ ـ لاكلينيكية بغير وحدة كلية تاريخية :

تنحصر المسلمة الثالثة فى ضرورة تناول الشخصية فى وحدتها الكلية التاريخية · فاستجابة الشخصية بازاء موقف حالى مشكل لايمكن أن تتضح دلالتها الا فى ضوء تاريخ حياة الشخص ، ليس فقط بالنسبة الى ماضيه بل وأيضا بالنسبة الى اتجاهه من المستقبل · فالتشخيص يستهدف الامساك بلحظة من لحظات تطـــور الكائن البشرى ، هذا الذى ينحصر وجوده فى

---

(١) أنظر رسالة الماجستير ـ سامية القطان · جامعة عين شمس · عام ١٩٧٤ ·

دينامية بسبيل التطور ، وكينونه فى صيروره · يتضح ذلك من حالة زوجة شابة لديها طفلان ويتسم زوجها بوداعة ولطف فى المعاملة والعشرة · كانت تشكو من دخولها فى علاقات جنسية مكتملة مع بعض زملائها فى العمل · كانت تستسلم لهم على الرغم منها ولا تشعر فى علاقاتها الجنسية معهم بأى لذة أو نشوة ثم تعانى بعد انتهاء الأمر من أحاسيس غامرة من الذنب ولم تكن تدرى لسلوكها هذا سببا خاصة وأنها لم تكن تحصل على اشباع جنسى الا فى علاقتها بزوجها · كانت أمها قد توفيت منذ سنوات ولكنها كانت أما تسلطية فى حنانها المسرف الذى تفرضه على من حولها · كانت أمها هى التى اختارت لها زوجها بل وأصرت أمها على أن يكون مسكن الزوجية لابنتها « الحالة » ملاصقا لمسكنها فى نفس العمارة ، وكانت الأم تطهى لهما كل شىء بل ويأكلان فى مسكنها فلا يذهبان الى مسكنهما الا للنوم · ولم يتغير الموقف بعد انجاب الطفلين · وكان كل قرار يتصل بحياتهما الزوجية تناقشه الأم مع زوج ابنتها وهى تشاهد ذلك وما من سبيل لابداء رأيها · كانت تشعر بينها وبين نفسها بأن زوجها ليس بزوج لها بل هو زوج لأمها · وكان زوجها كأبيها لاحول له ولا قوة فالكل يخضع لما تراه الأم · وكانت الأم فى هذا كله تحتج بأن ابنتها تعمل بينما هى متفرغة لحياة البيتين · كانت كل أحلام الزوجة الشابة تكشف عن عدوانيتها تجاه أمها التى تلغى وجودها وتجاه زوجها الشاب الذى لا يجترىء على معارضة أمها بينما كانت تنتظر منه أن يقوم بتحريرها من ربقة أمها ·

لم تكن لها قبل الزواج أى علاقة جنسية على أى نحو ولكنها بعد عام من زواجها وجدت نفسها بشكل قهرى تستسلم لكل زميل فى العمل يغازلها ويريد الاتصال بها ، وكانت تستسلم لهم وكأنها مسلوبة الارادة بينما كانت فى غير ذلك أقرب ما تكون الى الحزم وقوة الشخصية · كانت تقتدر فى يسر على مواجهة أى شخص فى العمل أو فى الطريق وتلزمه حدوده بينما تبدو عاجزة تماما أمام أمها · لم تكن تجترىء على مواجهة أمها وكان زوجها مجرد « ملكية » لأمها وعبثا حاولت أن تستثيره ليحميها من طغيان أمها · وبديهى أن أمها كانت تتخذ من الفضيلة والأخلاق « والأصول » ما تبرر به تسلطها وطغيانها · ومن هنا كان يتحتم على الابنة الشابة أن تتخذ اسلوبا غير مباشر فى انتقامها من أمها ومن زوجها معا · كان لسان حال (علاقاتها الجنسية مع زملائها) يقول لأمها « اذهبى انتى وأخلاقياتك وفضائلك الى

الجحيم » بينما يقول لزوجها « خلى أمى تنفعك » ٠ وقد ماتت أمهـا ولكن الزوجة الشابة تابعت انتقامها على الرغم منها فقد كانت عدوانيتها بغير حدود تجاه أمها وزوجها ٠ لم تكن تجترىء على العدوانية الصريحة المباشرة فى وجه أمها لا ولا العدوانية المباشرة الصريحة فى وجه زوجها الذىكان ينعم بحماية أمها ، فلم يكن أمامها الا سبيل العدوانية غير المباشرة ٠ وصحيح أن الخنجر فى هذه الحالة كانت تضربه فى صدرها لينفذ من الخلف فيصيب أمها وزوجها ولكن لم يكن أمامها من سبيل آخر غير سبيل شمشون بعد أن فقد قدرته « على وعلى أعدائى يارب » ٠

يترتب على هذه المسلمات أو الركائز الثـــلاث أن يكون لب المنهج الكلينيكى هو المقابلة الشخصية التى نمسك فيها ليس فقط بتـــاريخ الحالة وبمختلف المجالات الحالية لحياتها بل وأيضا بما تكون عليـــه استجابات المفحوص فى هذا الموقف الحيوى للفحص هنا والآن ٠ والمقابلة الشخصية ينبغى أن تكون طليقة لا تتقيد بترتيب للمجالات لا ولا بترتيب للأسئلة داخل كل مجال ، بل هى رؤوس موضوعات فى ذهن الكلينيكى يكفيها فى ترتيبهـا وسعة مجالاتها تبعا لفردية كل مفحوص ٠ ففى حالة ما تكون المجالات محددة سبقا والأسئلة جاهزة سبقا يكون الاستبيان الذى ينتمى الى المنهج التجريبى السيكومترى سيان أعطينا أو لم نحدد درجات للاجابة على الأســـئلة ٠ فالمقابلة الكلينيكية لايمكن أن تكون الا مقابلة طليقة ٠

المقابلة الشخصية (الاستخبار)

سبق أن رأينا أن المقابلة الشخصية يمكن أن تتخذ جملة من الأشكال التى تتراوح ما بين الصورة المقننة للاستبيان (الاستخبار) مما ينتمى الى المنهج التجريبى السيكومترى ، وبين الصورة الطليقة للتداعى مما ينتمى الى التحليل النفسى كصورة ممعنة للمنهج الكلينيكى ، والتى لا تتقيـــد بخطة ســـــابقة أو بأنموذج مرسوم ومحدد ٠ وبين هاتين الصورتين القصويتين للمقابلة ، توجد درجات متفاوتة من الأسلوب الموجه للمقابلة الشخصية حيث يهتدى الكلينيكى برؤوس الموضوعات الرئيسية التى تستقر فى ذهنه يطوعها فى مرونة ليجيب على النوعية الفريدة للحالة ٠ والواقع أن ذلك نفسه يحدث على وجه الدقة فى حالة التحليلالنفسى ولكن دون ما توجيه للمريض أو تدخل فى مستدعياته الطليقة بحيث يتكلم فى الاتجاه المطلوب طالما أنه لا يوجد فى

التحليل النفسى اتجاه يمكن اعتباره مطلوبا اكثر من غيره • هذا بالطبع الى قيام التحليل النفسى على الحيادية والطرح بينما يقوم المنهج الكلينيكى فى صورة غير التحليلية على المعاملة الودية فى غير ما التزام بتأويل الوقائع التى تتتابع أثناء الجلسة على أنها طرح من جانب المريض لماضيه الطفلى على حاضره العلاجى •

ومن الناحية التاريخية كان المنهج الكلينيكى فى بدايته استجوابيا على طريقة محضر البوليس وكان ينصب على المرض فى اغفال للمريض وظروف حياته • ولكن كوردييـــــه شرع منذ عام ١٩٣٣ ينصح باتباع الدبلوماسية والكياسة تجنبا للأسئلة الحرجة وما يلحق بها من أكاذيب ولكنه كان مع ذلك يحصر همه فحسب فى دراسة تاريخ المرضى وتتبعه • ومثل هذا الرسم لتاريخ الحياة لم يكن يختلف فى شيء عن هذا الذى ينتهى اليه الطبيب البيطرى باستجوابه للرجل صاحب حمار أو كلب مريض • وهذا ما تنبه اليه سجوين عندما أوضح أن هذه الطريقة لا تنظر الى المريض قط بحســـبانه شخصا مكتملا وكلا متكاملا رأى بحسبانه كائنا عيانيـــــا وبرمته فى جملة علاقاته ببيئته • وفى هذا ما يتضمن ضرورة أقامة علاقة ودية مع المفحوص تجعله يشعر بالارتخاء والثقة بحيث يتكلم فى حرية عن كل شيء في الاتجاه المطلوب• وهذه العلاقة الطبية مع المفحوص أو المريض تعتبر اليوم حجر الزاوية ليس فقط بلنسبة الى المنهج الكلينيكى بل وأيضا بالنسبة الى كل أشكال العـلاج النفسى • فلو شعر المفحوص أو المريض ولو شعورا غامضا بأن الكلينيكى لا يحفل به أو بأنه لا يبعث على الثقة فان المفحوص لا يدلى بل ولا يستطيع الادلاء بكل المعطيات اللازمة للتشخيص الحق • فكثير من هذه المعطيـــات تضيع من ذهنه بحيث لا يتذكرها الا بعد انتهاء المقابلة •

ومن هنا فان وجود شخص ثالث أو الاستعانة بأية تسجيلات يعتبر من الأخطاء الفادحة التى تذهب بكل ثقة المفحوص حتى على الرغم مما يدعيه فى الظاهر ، بل ان تسجيل ما يقوله دون علمٍ منه يعتبر عملا منافيا لأخلاقيات المهنـــة •

وعليه فان المقابلة الشخصية ينبغى أن تتم فى اطار يتسم بالعـــلاقة الودية مما يسميه التحليل النفسي بالطرح الموجب • ففى مثل هذا الاطار

يتاح للمفحوص ليس فقط أن يرتخى بل وان يشعر بشىء من التنفيس وهو يتحدث باسراره الدفينة فى اطار من الثقة المطلقـــة بالكتمان · فالمقـــابلة الشخصية فى هذه الحالة تكون بالنسبة الى المفحوص فرصة ليتخلص عن طريق الافراغ اللفظى والاعتراف بالسر من بعض ما يثقل نفسه · يتضح ذلك بشكل بارز عندما يتحدث المفحوص مثلا عن بعض حبراته الجنسية فى الطفولة مع موضاعات محارميه كأمه أو شقيقاته · وتسمى المقابلة الشخصية بالاستبار لأنها تسبر الأعماق ·

١ ـ أهداف المقابلة :

ينبغى للمقابلة تبعـــا لما يراه فلاندرزدنبر عام ١٩٤٣ أن تكشف عن النقاط الثلاث الآتية :

أولا : استجابات المفحوص السابقة منها والحالية تجاه :

١ ـ ذاته وبدنه ·

٢ ـ عائلته وعمله ·

٣ ـ بيئته الاجتمـــاعية فى مراعاة للوضع الاقتصـــادى والعقيدة والأصدقاء ·

٤ ـ حياته الجنسية (ذاتية أو مثلية أو غيرية) ·

٥ ـ مرضه الحالى ·

ثانيا : مدى اســتعداد المفحوص وتهيؤه سبقا كتربة للمرض وذلك بالكشف عما يلى :

١ ـ التكوين البدنى والعوامل الوراثية ·

٢ ـ الصراعات النفسية الأساسية ·

٣ ـ العلاقة الزمنية ما بين الأحداث الصدمية (أو فترات التوتر) وبين لحظة احتدام الصراع أو ظهور الأعراض ·

٤ ـ تبين الأعراض التى هى مظـــاهر تترجم عن الصراع بالحفزات الغريزية وان كانت فى الوقت نفسه دفاعات ضد هذه الحفزات ·

ثالثا : مدى رغبة المفحوص فى الشفاء وبذلك بالكشف عما يلى :

١ ـ اتجاهه من أمراضه السابقة ومن مرضه الحالى ٠

٢ ـ المزايا التى تكسبها من وراء مرضه الحالى ٠

٣ ـ الهدف (الدلالة العميقة (١)) لأعراضه المرضية الحالية ٠

٤ ـ تبين مدى قدرة الأنا لديه ٠ أى مدى قدرته على فض الصراعات وذلك بتبين اقتصادياته النفسية (كمية الطاقة المتاحة حاليا تحت تصرف الأنا بعدما ضاع منها فى المكبوتات والدفاعات) ٠

فنيات المقابلة الشخصية (والاستبار) :

تتباين المقابلة كموقف عيانى تبعا للكلينيكى الذى يتيح للفرد ان ينبسط بدنيا ويرتخى نفسيا فى جو من الثقة والعلاقة الودية أو يضيق عليه الخناق فى جو من التوتر البوليسى ظنا منه أنه بذلك يرغم المفحوص على الادلاء وينسى أنه يخاطر بكل شىء وأنه يغدو عديم الحيلة لو ان المفحوص لاذ بالصمت ٠ ما من سبيل ممكن غير العلاقة الودية وثقة المفحوص بالكلينيكى ٠ وكنزى قد ألح على ان المقابلة من حيث هى موقف عيانى ينبغى أن تتسم باللطف والود حتى يسترسل المفحوص على سجيته فى غير ما اضطراب ، ويسمى ذلك بأسلوب صاحب البيت فى معاملته لضيفه ٠ وبديهى أن خصوبة المقابلة تتطلب الكشف فى عمق عن جنبات الشخصية ولا يتأتى هذا الا عندما يندمج المفحوص فى الموقف ، الأمر الذى لا يمكن أن يكون الا عن طواعيه ورغبة من جانبه ٠ ومما يعينه على ذلك أن تبدأ المقابلة بالحديث عن تلك المجالات من حياته التى تتعرض لأقل قدر من مقاومته ثم يكون بعد ذلك الانتقال الى المجالات الأكثر فالأكثر تعرضا لمقاومته ٠ فبقدر ما يندمج فى الحديث وينسى نفسه ان جاز القول تكون قدرته على التغلب على المقاومة فيسترسل ـ على أرضية من الود والثقة ـ بكل الحرية فى الحديث ٠ وغالبا ما تكون البداية بالحديث عن حياته المهنية والاقتصادية والأسرية قبل البلوغ الى حياته العاطفية والجنسية ٠فبغير ذلك يمكن أن «يقمع» المفحوص معطيات

---

(١) غالبا ما يتحقق ذلك بسؤال المفحوص عما ينتوى فعله بعد شفائه ، فيكون ذلك فى العادة هو صميم ما يعمل على تجنبه حاليا بمرضه ٠

حياته بمعنى أن يحبسها عن شعور وقصد فلا يتحدث بها الى الكلينيكى ، كما يمكن أن « تنكبت » بمعنى أنها تغيب عن وعى المفحوص نفسه فلا ينتبه اليها الا عندما يصبح بعيدا عن موقف المقابلة ولكن لتضيع من ذهنـــه من جديد فى المقابلة التالية ٠

وفيما يتصل بمشكلة تسجيل أقوال المريض تجنبا لنسيانها أو لاغفال بعض النقاط الهامة فيها فينبغى أن ننتبه الى ان الكلينيكى لو قام بتسجيل كل شىء فسوف يتوزع انتباه ما بين الكتابة وبين ما يقتضيه الموقف من ملاحظة متصلة لكل ما يصدر عن المفحوص من حركات مرهفة ٠

صحيح ان الكلينيكى بكتابته لأقوال المفحوص يضمن عدم نسيان أو اغفال نقطة من النقاط ولكنه يضيع بذلك على نفسه فرصة التنبـــه الى تلك الحركات المرهفة التى تصدر عن المفحوص والتى تكشف عن أعماقه بأكثر مما تفعل كلماته ، هذا بالاضافة الى ما تستثيره الكتابة من مقاومة عاتيـــة عند المفحوص تتمخض عن الكبت انلم يكن عن القمع الصريح ٠ ويتـوهم البعض أن ليس فى « الكتابة » ما يزعج المفحوص أو ليس فيها على الأقل ما ينبغى أن يزعجه ، فحسبه ان يقتنع باهتمام الاخصـــائى به وعمله على مصحلته ٠ ولكن أصحاب هذا الرأى أنفسهم يرون أن تتوقف الكتابة عندما يصل الحديث الى جنبات الحياة الحميمة من حياته (كعلاقاته الجنســـية والعاطفية ٠٠ الخ) وذلك تفاديا لابتعاث القلق لديه وازدياد مقـــاومته ٠ فعندما يرى المفحوص أسراره الدفينة تسجل على أية نحو فلن يكون بوسعه ان يمنع قلقه من ان تنتقل هذه الأسرار يوما الى العلانية ٠

ويرى مخيمر ان الكلينيكى المتمرس ينبغى أن يعول تماما على ذاكرته فلا يستعين أثناء الجلسة بتسجيل أقوال المفحوص لا ولا بعضها سيان كان ذلك بالكتابة أو بأجهزة للتسجيل ٠ وأكثر من ذلك ما يذهب اليه من ان الكلينيكى المتمرس لا ينبغى أن يستعين بشىء مكتوب أمامه كرؤس الموضوعات التى ينبغى أن يستجليها ٠ ففى ذلك ما يتيح للكلينيكى أن يتفرغ بكل انتباهه لملاحظة المفحوص وهو يتحول به فى مهارة غير محسوسة من مجال الحديث الى مجال أكثر مقاومة ٠

واذا كان هذا هو الحال بالنسبة الى تدوين الكلينيكى لأقوال المفحوص،

فان الأمر لايمكن الا أن يزداد عسرا عند السماح لشخص ثالث بأن يكون حاضرا فى المقابلة ليقوم بتدوين أو اختزال كل ما يقوله المفحوص · ففى مثل هذه الحالة يضيع كل معنى للكتمان المهنى وينتقل الموقف الى العلانية ، وعبثا كل ما يمكن أن يقوله الكلينيكى لتبرير ذلك من قبيل ان هذا الشخص الثالث قد اعتاد الاستماع الى مثل هذه الأمور ويحرص على كتمانها · بكل بساطة لا تكون هناك مقابلة كلينيكية بل مجرد « دردشة » · واذا كان مثل هذا الأسلوب يصلح مع بعض الأمريكيين الذين اعتادوا الحديث عن أدق أسرار حياتهم أمام الآخرين ، فان ذلك لا يصلح على الاطلاق مع كل الأمريكيين فضلا عن غيرهم من الشعوب الأخرى · وكذلك فيما يتصل باستخدام أجهزة التسجيل الصوتية والمرئية دون اعلام الشخص · أو حتى بعد اعلامه فانها تذهب بكل معنى وقيمة للمقابلة الشخصية ، فضلا عن مجافاتها للأوليات الأخلاقية عندما لا يكون المفحوص على علم بذلك ·

وخلاصة هذا كله انه يتحتم على الكلينيكى تجنب التسجيل فى كل صوره أثناء المقابلة وعدم السماح بثالث بالحضور على أى نحو من الانحاء· ولكن عادة ما يقوم الكلينيكى عند اللزوم بتسجيل بعض النقاط بعد انتهاء المقابلة شريطة الا يذكر اسم المفحوص أو مهنته أو أى شىء يكون من شأنه أن يتمكن الآخرون من التعرف عليه ولو كان لهذه المذكرات ان تقع فى يد آخر · وعلم النفس الضمنى على نحو ما يظهر فى أمثال وحكم الشعوب يقرر بأن السر لو زاد عن اثنين لا يكون سرا · وفى هذا ما يقطع بضرورة استبعاد أى شخص ثالث وان صورة من صور التسجيل ·

ان العلاقة الودية وحدها لا تكفى ، بل لابد للمفحوص من ان يثق فى الكلينيكى ان كان له ان يتحدث فى حرية تامة وبصدق عن كل جنبات مشكلته ، ومن هنا يتحتم على الكلينيكى منذ البداية أن يلح على المفحوص بأهمية ذلك حتى يستبصر بطبيعة الموقف ويفهم أن الأسئلة التى يوجهها اليه لا مفر من توجيهها والاجابة عليها بكل صراحة للامساك بمرضه · فاذا ما تبين الكلينيكى أثناء المقابلة أن المفحوص يلجأ الى تزيف الوقائع يكون عليه ان ينبهه الى ضرورة الاجابة فى صدق ، والا تضيع كل الجهود فى غير طائل ·

ويتحتم على الكلينيكى أن يتكيف مع الفردية الفريدة لكل مفحوص بحيث يجعله يتكلم فى حرية ويصدق فى الاتجاه المطلوب ودون أن تكون هنـــاك ايحاءات على أى نحو ٠ وأصحاب الاتجاه السيكومترى يقعون فى خطــأ فاحش عندما يدافعون عن استبيناتهم المقننة متوهمين لها الموضـــوعية مع تيسير فى الوقت نفسه لفنيات المقابلة ٠ وكل ما هنالك أن السيكومترى عندما يقوم بتثبيت كل شىء ، حتى بتثبيت نفسه كمتغير يتوهم أنه قد بلغ بذلك الى الموضوعية العلمية ٠ وقد سبق أن رأينا ان هذه « الملاحظة الخارجية » لاتعنى تثبيت دلالته بالنسبة الى المفحوصين ٠ فمهمـــا اتسمت مســالك السيكومترى بالآلية والجمود بحيث تكون هى نفسها مع الجميع ، فسوف تكون له مع ذلك دلالة خاصة عند كل مفحوص ٠ فليست العبرة بتثبيت المثير، فذلك وهم (القنينة) بل العبرة بما تكون عليه دلالة المثير عند المفحوص القائم بالادراك ٠ وعليه فلا سبيل غير « الملاحظة المشاركة » بحيث يعيش الكلينيكى الموقف مع المفحوص ، ولكنه ككلينيكى متمرس يكون بوسعه ان يرجع الى ما وراء نفسه بحيث يمسك بالمفحوص ضمن اطاره الخاص بعيدا عن كل احتمالات التحريف التى يمكن أن تصدر عن اســـقاطات الكلينيكى ودفاعاته الخاصة ٠ ومن هنا يقال فى العادة **ان فهم الكلينيكى لنفسه شرط لابد منه ليفهم الآخر (المفحوص)** ٠ فعندما يكون الكلينيكى على وعى بقاعه الخاص وبما ينطوى عليه من اتجاهات لا شعورية فانه يتوقف عن ان يدرك المفحوص على أرضية من هذا القاع ونعنى قاع (الكلينيكى) ، بل يدرك المفحوص ضمن قاعه الخاص به وفى ظروفه البيئية الخاص به ٠ وتلك هى الموضوعية التى سبق وان رأينا أنها يستحيل ان تكون الا من خلال ذاتية الباحث أو الكلينيكى ٠

نعود من جديد الى الاستبيان المحدد سبقا لنتبين أن تثبيت مجـــالاته وأسئلته سبقا ليس فقط بجانب الموضوعية بل ويذهب بكل قيمـــه للمقابلة الشخصية ٠ فالاستبيان فى هذه الحالة يصاغ سبقا استنادا الى تصورات السيكومترى وفى اغفال لما ستكون عليه فردية المفحوص ٠ فليس للمجالات نفس الدلالة ونفس الوزن عند كل المفحوصين ، وما يكون يسير بالنســبة الى مقاومة الواحد بحيث يمكن أن يبدأ الكلينيكى به ، يمكن أن يكون غاية فى العسر بالنسبة الى مقاومة الآخر بحيث يتحتم على الكلينيكى أن يدعه الى النهاية ٠ ويصدق ذلك على ترتيب الأسئلة داخل كل مجال من المجـــالات

(هذا الى أن الكلمة الواحدة ضمن السؤال يمكن أن تتباين دلالتها بتبـــاين المفحوصين · ومثال بارز على ذلك أن يكون السؤال عن الحب أو الحرية) فمن الواضح أن سؤالا بعينه قد يكون أساسيا للواحد وخلوا من الأهمية بالنسبة الى الآخر ، بحيث ينبغي في الحالة الأولى أن يضطرد البحث فى هذا الاتجاه بكثرة كثيرة من الأسئلة ، وهذا ما نعنيه بوزن المجال · ان الكلينيكى فى المقابلة الشخصية أشبه ما يكون بالمهاجم الذى يتلمس ثغرة فى الخط الدفاعى للعدو حتى يستطيع أن ينفذ منها ، وهكذا أمام الخط الدفاعى الذى يليه والذى يليه فى طريقه الى الأعماق ·

وخلاصة هذا كله أن ترتيب مجالات البحث وترتيب الأسئلة داخل كل مجال بل وعدد هذه الأسئلة داخل كل مجال كلها أمور تتباين بتباين المفحوصين هذا الى أن الكلينيكى يتحتم عليه أن يتبين ما تعنيه الكلمات بالنسبة الى كل مفحوص من المفحوصين ولابد للكلينيكى أن يحسن اختيار كلماته تبعا لنوعية الموقف · فالتعبير اللفظى يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية والخلفيـــات الثقافية ·

واذا كان من الخطأ فى الحالات العادية استخدام المصطلحات الفنيــة فان ذلك يصبح ضرورة فى بعض الحالات من الطبقة الوسطة لتفادى المقاومة عند الحديث عن الأمور الحميمة من المجال الجنسى · ذلك أن المصطلحات الفنية كاللغة الأجنبية تسهل على الفرد التخلص من قيد التابو ·

واذا كنا نرفض تقنين المقابلة فى صورة استبيان جاهز سبقا ، فــان الأمر يختلف تماما بالنسبة الى رؤوس الموضوعات التى ينبغى أن تستقـر واضحة فى ذهن الكلينيكى بحيث يكيفها فى مرونة تبعا للفردية الفـــــريدة لكل مفحوص ·

مما سبق يكون من البديهى أن يترك الكلينيكى لسياق الحديث ترتيب المجالات والأسئلة ووزنها عند كل مفحوص على حـــــدة · فترتيب المجالات وترتيب الأسئلة ينبغى أن يساير المقاومة الشخصية للفرد ، بينما وزن المجالات ووزن الأسئلة ينبغى أن يساير ما لها من أهمية عند الفرد ·

ولكن ينبغى التنبه الى أن المقاومة تتخذ صورا عديدة مختلفة ، فمن

الصمت الى التردد الى حركات تعبيرية لا ارادية (لازمات) الى شعور بالحرج (نحنحة ونظرات خافضة) الى ذلات اللسان وما الى ذلك • ومهما يكن من أمر فلا يمكن حصر المظاهر المختلفة التى تأخذها المقاومة ولا سبيل الى التغلب عليها بعدد من النصائح ، فتلك مسألة من صميم عمل الكلينيكى الذى يجد فى اعداده وخبراته ما يمكنه من القيام بذلك • ان الذى يحدث فى العادة اننا لا نكاد نلمس الدوافع العميقة عند المفحوص حتى يعبىء أعنف المقاومة مدافعا بشكل لا شعورى ضد كل محاولة تستهدف كشفها ، ويخطىء البعض عندما يلجأ الى استخدام وسائل الضغط من احداق النظر والانهيال على المفحوص بسيل من الأسئلة المتلاحقة السريعة على أمل أن ينهار فيدلى بالحقيقة كلها ودون تحريف • فهذه الأساليب البوليسية خطرة يتحداها المفحوص بالصمت فيضيع كل شىء •

ان قيمة المقابلة انما تتوقف على قيمة الكلينيكى المضطلع بها • وذلك انه يتعين على الكلينيكى أن « يحسن الاستماع » فهو ينصت ويعين الشخص على ان يتكلم فى حرية ممسكا مع ذلك بزمام الحديث يوجهه حسبما يرى • فالكلينيكى لا ينبغى فحسب أن يبعث الثقة فى نفس المفحوص فيعينه بذلك على الكلام وانما ينبغى أن يعينه على أن يتكلم بحرية فى الاتجاه المحدد • والكلينيكى المتمرس هو وحده الذى يستطيع أن يدير دفة الحديث فى مهارة وفعالية ، فهو يوجه الحديث وان تجنب ما قد يوحى الى المفحوص باجابات معينة ، وهو ينتقل من التجربة الحية الشعورية الى المستويات العميقة اللاشعورية ، ويتبين من مقاومة المفحوص بنوعيتها هذا الذى تحاول دفاعاته أن تتجنبه •

وينبغى أن يكون الكلينيكى بادى الاهتمام بالمفحوص والا استحال الطرح الموجب • ولكن هذا الاهتمام ينبغى أن يكون شعورا صريحا لا ضمنيا حتى لا يفلت من زمام الكلينيكى بل يخضع لارادته وذلك ما يعرف فى التحليل النفسى « بمقابل الطرح » •

وصحيح أن الطرح الموجب يتيح للمفحوص أن يتعاون بأقصى طاقاته مع الكلينيكى فيتكلم فى حرية وصدق بعيدا عن المقاومة • ولكن الطرح الموجب لا ينشأ بشكل آلى بل يتوقف على جملة من العوامل كسن الكلينيكى وجنسه ومظهره البدنى ونبرات صوته وتعبيرات وجهه •• الخ • هذه العوامل تلعب

دورها فى المقابلة الشخصية التى لا تمتد امتداد التحليل النفسى بل تقتصر على عدة جلساه · انها تحكم ظاهرة الطرح عند المفحوص ومن ثم تحـــكم اتجاهاته واستجاباته · ومن الممكن أن تكون هذه العوامل بحيث يظهر عند طرح ســـــالب ممـــا يعنى كراهيـــة للكلينيكى وعدوانيـــــة بحيث يأتى بنجاح فى المقابلة الشخصية · وتبعا لما تكون عليه حالة المفحوص بحيث يأتى على الطرح السالب ويحل فى محله الطرح الموجب ، والا يتعـذر عليه المضى بنجاح فى المقابلة الشخصية · وتبعا لما تكون عليه حالة المفحوص من الطرح تتحدد دلالة استجاباته · فابتسامة المفحوص يمكن أن تكون تعبيرا عن المحبة كما يمكن أن تكون تعبيرا عن تحديه للكلينيكى ·

وكذكالك أيضا ينبغى على الكلينيكى أن « يحسن الملاحظة » فيتنبه الى رد الفعل العارض السريع وذلات اللسان ونوعية الحركات المصاحبة للحديث عن موضوع بعينه الخ · ويتحتم على الكلينيكى أن يتنبه الى ما يســـىء المفحوص التعبير عنه وما يكمن وراء ذلك من دوافع وما حال بينه وبين التعبير الصحيح من دفاعات ، وهناك أيضا ما لا يستطيع المفحوص التعبير عنه الا عندما يعينه الكلينيكى على ذلك · وينبغى على الكلينيكى أن يتنبه لما استبعده الشخص نتيجة للقمع ولما استبعده نتيجة للكبت ، ويكون عليه فى هذا كله أن يسد هذه الثغرات فى تأويله ·

وينبغى ··· وينبغى ··

وكل ذلك يتلخص فى أن قيمة المقابلة الشخصية تعكس قيمة الكلينيكى، فمقابلة شخصية واحدة يمكن أن يخرج منها الكلينيكى المتمرس بتشخيص للمشكلة بينما يكون الكلينيكى غير المتمرس أشبه ما يكون بصياد عديم الخبرة تقفز الأسماك من حوله تظهر وتختفى فى سرعة البرق فلا يتنبـــه اليها ولا يصطاد منها شيئا ·

فالكلينيكى بالاضافة الى الاستعداد يحتاج الى اعداد وخبرة طويلة قبل أن يكون كلينيكيا حقا وبمعنى الكلمة ·

وهنا لا يختلف الأمر عما عليه الحال فى مجال الطب البدنى · فبوسع

صبى المعمل أن يقوم بتسجيل حرارة المريض وضغطه بل وان يقوم بالتحاليل اللازمة بحيث تكتمكل كل المعطيات اللازم للتشخيص • هذه المعطيات سهلة يسيرة فى الحصول عليها بكل دقة•ويكون على الطبيب البدنى بعد ذلك أن يقوم « ببناء كل هذه المعطيات فى ذهنه » فى صورة التشخيص • ذلك هو صميم عمل الطبيب ينجح فى بناء هذه الوقائع فى ذهنه فى صورة تشخيص صحيح فيكون بذلك طبيبا أو يفشل فى ذلك فيكون لا شىء على الاطلاق وكذلك الحال بالنسبة الى الكلينيكى النفسى وان كانت المعطيـــات هنا أكثر صعوبة فى الحصول عليها وأقل دقة •

وغنى عن البيان ان الكلينيكى يتحتم عليه أن يتجنب الحل الســهل بالصاق بطاقة بمرض من الأمراض على المفحوص وانما يضع فرضا ابتداء من المعطيات ، ويترك للمعطيات التالية أن تقوم بتأيد فرضه أو دحضــه أو تعديله ، حتى يبلغ الى التشخيص الختامى الذى هو بناء لكل التشخيصـات الجزئية فى وحدة الكل التفسيرى الواحد ، وهذا هو التشخيص من حيث هو « موائمة » تتخطى مجرد « المماثلة » •

رؤوس الموضوعات الهادية :

يتحتم على الكلينيكى أن تستقر فى رأسه بشكل واضح المجـــالات الرئيسية التى يتحتم عليه أن يستجلبها بل وفى داخل كل مجال ، الجنبات الأساسية التى لا ينبغى أن يغفلها • ذلك هو ما نقصده من رؤوس الموضوعات الهـــادية •

المجال الأول (المرض الحالى) : ينبغى أن نترك المريض يتحدث فى حرية عن أعراض مرضه فلقد جاء من أجل ذلك • ينبغى أن نلح حتى نتبين متى كان احساسه وكيف كان احساسه بالأعراض الأولى ، ثم ماذا كان منه عند ذلك وما الذى ترتب على ذلك •

ينبغى الا نقع فى خطأ الايحاء للمريض باجابة ما ، فلا ينبغى مثـــلا أن نسأل ما ان كان يستشعر هذا العرض أو ذاك من الأعراض المرضية التى لم يتحدث عنها •

المجال الثانى (الأسرة) : نسأل المريض عما اذا كان أبوه لا يزال حيا، وعن عمره وصحته وعمله ، وعن أى نمط من الرجال هو ، وعما ان كان يسرف فى الشراب الخ . فاذا كان الأب قد توفى فمتى كان عمره عند الوفاة وما سبب الوفاة وكم كان عمر الأم عند وفاة أبيه الخ . فاذا ما انتهينا من الأسئلة المتعلقة بالأب أعدناها فيما يختص بالأم فالاخوة والأخوات والاجداد والجدات . نسأله عما ان كان اخوته وأخواته أشقاء وشقيقات ونسأله عن موقعه بين أخوته وأخواته ، فتلك مسألة تنطوى على أهمية بالغة . ففارق كبير بين أن يكون الابن الأول أو الابن الثانى أو الابن الأخير ، وكذلك بالنسبة الى الابنة الأولى أو الثانية أو الابن الذكر الوحيد بين اخـــواته أو الابنة الوحيدة بين أخوتها . نسأل المريض عما اذا كان قد عاش حتى اليوم بين أبويه فان أجاب بالنفى سألناه عن الأشـــخاص الذين عاش معهم مكررين الأسئلة السابقة . نسأله عن الطريقة التى تمت عليها تربيته ومدى ما كانت تتسم به من تسامح أو صرامة . نسأله عما اذا كان قد نزل به العقاب فان أجاب بالاثبات سألناه لماذا وكيف وممن . نسأله كيف كانت استجابته . ونسأله عمن كان أكثر الأشخاص تدليلا له . ونسأله عما ان كان يفضل فى حبه أباه أو أمه ملحين عليه حتى نبلغ الى الاجابة . فهناك دائما اختلاف فى درجة الحب . نسأله عمن كان يحظى بتفضـــيل الأب وعمن كان يحظى بتفضيل الأم . نسأله عما كان عليه تفاهمه مع اخوته وأخواته . وعما كان عليه تفاهم الأبوين فيما بينهما ونسأله فى النهاية ما ان كان يشعر بالسعادة بين أهله .

المجال الثالث (الطفولة) : نسأل المريض عن طفولته وعن أى نمط من من الأطفال كان فى طفولته من حيث الهدوء أو « الشقاوة » أو الشراسة .. الخ .. نطلب اليه جميع المعطيات المتصلة بتطوره البدنى والنفسى مبتدئين فى ذلك من الحمل للولادة لننتقل الى الفطام فالمشى فالكلام الخ . نسأله عن السن التى انتهى عندها تبليله لفراشه . ونستفسره عما اذا كان قد مارس قضـــم اظافره . نطلب اليه ما ان كان قد مر بنوبات عصبية الخ . نسأله فى حالة تبليله لفراشه الى سن متأخرة عما ان كان ينام بجوار أمه أو أخته .. الخ ، وعن السن التى بدأ ينام فيها بمفرده الخ . وكذلك نحاول أنْ نتبين ما أن كان قضمه لأظافره أو تبليله لفراشه بعد تدربه على النظافة يرتبط بظروف أسرية كميلاد أخ جديد الخ .

المجال الرابع (سنوات التعليم) : نسأل المريض عن السن التى ذهبت فيها الى المدرسة وعما كانت عليه استجابته · نسأله هل كانت له كثرة من الأصدقاء وعن طبيعة اللعبة التى كان يحب أن يمارسها · نسأله هل كـان يشعر بالميل الى تزعم الغير أم الى اقتفاء أثرهم · نسأله عن الحد الذى انتهى اليه ووقف عنده فى دراسته وعن المادة التى كانت تحظى بشغفه واهتمامه، وعن المهنة التى كان يتمنى أن يزاولها حين يكبر ، نسأله عما كان عليه من تفوق أو تخلف فى دراسته وعن الضغط الذى كانت تمارسه الأسرة فى هذا السبيل · نسأله عما ان كان بعض مدرسيه قد ترك أثرا قويا لديه سيان كان ذلك أثرا طيبا أو سيئا ·· الخ ·

المجال الخامس (العمل) : نسأله عن عمله الأول ، طبيعته وما كـان عليه ، ومدى ما كان يشعر به من تعلق تجاهه · نطلب اليه الدافع الذى دفعه الى هذا العمل والفترة التى زاول خلالها هذا العمل ، ثم نطلب اليه السبب فى تركه أو ارتحاله عنه · نستفسره عما اذا كان شغوفا بعمله الحـــالى وعما اذا كان راضيا عنه وسبب ذلك نطلب اليه ما ان كان قانعا بأجره راضيا بمرتبه ، وما ان كانت علاقاته طيبة مع رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه · نسأله عما يطمح اليه فى مجاله المهنى · هذا الى الأسئلة الأخرى التى نحاول بها الكشف عن موقف المريض تجاه ظروف حيـــاته المهنية من مشاكل مادية وصراعات انفعالية وصدمات نفسية الخ ··

المجال السادس (مكان الاقامة) : نسأله عن تاريخ ارتحاله لأول مرة عن مكان ميلاده ، وعن السبب الذى دعا الى ذلك ثم نطلب اليه ما ان كان محل الاقامة الجديدة ينزل من نفسه منزلة الرضا · تتكرر الأسئلة بالنســبة الى كل مكان أقام فيه ، وعن علاقاته بالجيران من زملائه ·· الخ ·

المجال السابع (الحوادث والأمراض) : نتناول بالأسئلة كل حــادث على حدة حتى نأتى عليه بالفحص منتهين الى ظروف الحادث بالنســبة الى الحالة النفسية التى كان عليها الشخص وقتها ، ففى ذلك ما يكشف لنا عن مدى استعداده السابق تجاه الحوادث من حيث هو استعداد يرجع الى دافع لا شعورى · نسأل عما كانت عليه استجاباته كما نسأله عما يراه من رأى تجاه العاهات ، وما كانت عليه استجابته تجاه الختان وفى أى عمر حـدث وذلك لنتبين موقفه من (الخصاء) نستعرض الأمراض التى نزلت به محاولين

بذلك أن نبلغ الى وصف دقيق لأعراض المرض واستجابات المريض النفسية تجاهه فاذا ما بلغنا هذا الحد من الاستجواب اتخذنا من الأسئلة المنصبة على الأمراض الجنسية ما يعيننا كمعبر على الدخول الى صميم الحقل الجنسى ٠

المجال الثامن (الحقل الجنسى) : ويعد هذا الميدان أصعب الميادين تناولا ، وان كان بوسعنا مع ذلك أن نبلغ بالمريض الى أن يتحدث عنه فى حرية بل وأن يشعر فى حديثه بكثير من الراحة والتخفف ٠ ويكون هذا حين نوفق الى تخطى هذه المسافة النفسية التى يشعر بأنها تعزله عنا وذلك بتحقيق جو من الثقة والفهم بعيدا عن الحياء المصطنع والاستطلاع الشغوف ٠ ويمكن القول بأن الصعوبة التى يشتهر بها هذا الحقل الجنسى ترجع الى اتجاه الكلينيكى وموقفه منه أكثر مما ترجع الى مقاومة المريض وعناده ٠

ففيما يتصل بالرجل نسأله عما ان كان يشعر برغبة قوية تجاه النساء، وعن الوقت الذى بدأ فيه حياته الجنسية ، وفى ذلك ما يدفعه الى الحديث عن تجارب المراهقة والفترة السابقة عليها ٠نسأله هل كان يشعر ابان الطفولة وبداية الصبا بالرغبة القوية فى استكشاف مجاهل الحياة الجنسية ، ونطلب اليه ما اذا كان قد حدث له أن حضر مشهد اتصال جنسى ٠ نسأله فيما نسأله عن الوقت الذى استطاع فيه أن يدرك لأول مرة وجود فارق بين الجنسين ٠ ونطلب اليه ما كانت عليه استجابته تجاه ذلك ، نسأله عما كان عليه اعتقاده فيما يتصل بميلاد الأطفال ٠

نطلب اليه أن يحدد الوقت الذى بدأ فيه الاستنماء ولا ينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الحيادى بمعنى ما ان كان الشخص قد قام به أم بل يكون سؤاله عن معدل ممارساته للاستنماء فى الأسبوع ٠ نسأله بعد ذلك عن أحلام اليقظة التى كانت تصاحب عملية الاستنماء وتعين عليها ٠ نسأله ما ان كان يستمنى الآن بين حين وآخر حين تسنح له الفرصة ٠

نسأله عن الوقت الذى باشر فيه العملية الجنسية لأول مرة وكيف حدث ذلك ؟ ومع من حدث ؟ نحاول أن نتبين ما ان كان الاتصال الجنسى الأول قد تم بفعل المبادأة الشخصية أو نتيجة لغواية الأصدقاء الى آخر ذلك من الدوافع

عن عاطفة أو مقابل أجر الخ · نسأله بعد ذلك عن نوع الأثر الذى خلقه فى نفسه هذا الاتصال الأول بمعنى انه واصل اتصالاته أو توقف أو اقتصر على العلاقة العاطفية الخ ·

ننتقل بالأسئلة الى الاستفسار عن اتصالاته الجنسية الحالية · فنتبين معدل تكرارها ومدى تبدل موضوعاتها وما قد يكون من قذف باكر (أى أن الجماع لا يستمر أكثر من خمس دقائق) أو تعذر أو استحالة النشوة · نسأله عن قوة انتصابه وما أن كانت تتعرض للانهيار عند الايلاج أو بعده ·· الخ · نسأله عن استجابته عقب الفعل الجنسى بمعنى أن يشعر بالنشوة والراحة أو التعب والتقزز ·· الخ ·

نطلب اليه بعد ذلك ما ان كان قد شعر بميل قوى الى أن يعيش تجربة الحب · ونسأله عن أول مغامرة غرامية محاولين أن نتبين كيفية انبثاقها ، وفترة استمرارها وطبيعتها ونهايتها · نكرر الأسئلة بالنسبة الى كل مغامرة من مغامراته العاطفية ·

ننتقل بعد ذلك الى الزواج بالنسبة الى الشخص المتزوج ، فنسأله عن الكيفية التى تم بها اللقاء والتعارف مع زوجته وعن الفترة التى قضاها فى مغازلتها · ونسأله عما يعتقد أنه الدافع الذى دفع به الى حبها · وينبغى أن نلح عليه بهذه الأسئلة حتى ننتهى الى الكشف عن الدافع الذى يكشف لنا بدوره عن الجوانب العميقة للشخص · وهناك فارق بين قوله بأنه قد أكره على ذلك ، أو أنه كان ينبغى له أن يستقر ويجد الزوجة التى تستطيع أن تسهر على راحته وبين قوله بأنه كان يحبها من أعماق قلبه ·· الخ ·

نسأله عما ان كان يتشاجر كثيرا مع زوجته ولا ينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الساذج عما ان كان متفاهما مع زوجته · نطلب اليه ما ان كان لديه أطفال · فان أجاب بالايجاب استرسلنا معه فيما كان عليه الحمل والوضع وما كانت عليه تنشئة كل منهم · فان أجاب بالنفى طلبنا اليه سبب ذلك ·

نسأله عما يراد فى مدى تفاهمه الجنسى مع زوجته · نسأله بعد ذلك عما ان كان يحدث له أن يتصل جنسيا بين حين وآخر بغير زوجته فان أجاب

بالايجاب طلبنا اليه أن يتحدث عما يدفعه الى ذلك · نسأله أخيرا عن رأيه فى النساء على وجه العموم ·

أما فيما يتصل بالمرأة فمن المهم أن نسأل عن السن التى بدأت عندها دورة الطمث وعما ان كانت قد هيئت لذلك من قبل أم أن الأمر كان بالنسبة اليها مفاجأة ومصدر ذعر · نسألها هل كانت على الما بالأمور الجنسية قبل أن يأتيها الحيض ·

وينبغى علينا بعد ذلك أن توجه اليها نفس الأسئلة التى توجه الى الرجال فيما يتصل بالجنسية ابان الطفولة والصبا والمراهقة الخ · نطلب اليها ما ان كان لها كثرة من المعجبين والمحبين وكم كان عمرها حين أحبت لأول مرة · ثم نوجه اليها نفس الأسئلة التى توجه الى الرجال فيما يتصل بكل مغامرة من مغامراتها العاطفية · نسألها تبعا للحالة عما ان كان لها صديق فى الوقت الحاضر أو عن السبب الذى دفع بها الى الزواج · نطلب اليها ما كانت عليه استجاباتها ليلة الزفاف ثم نستطرد موجهين اليها نفس الأسئلة التى توجه الى الرجل فيما يتعلق بالحياة الزوجية والأطفال · نسألها ألم يدر بخاطرها قط أن من الجائز أنها كانت تكون اكثر سعادة مع رجل آخر · ونسألها بعد ذلك عما ان كانت قد حاولت تبين ذلك ·

نختتم الأسئلة طالبين اليها ما تراه من رأى فى الرجال على وجه العموم ·

المجال التاسع (العادات والمعتقدات) : نسال المريض عما يفعله خارج ساعات العمل · نسأله عما ان كان له كثرة من الأصدقاء المقربين · وكيف يقضى الوقت معهم · وفى حالة ما يجيب المريض بان ليس له من أصدقاء نسأله عن سبب ذلك · نسأله عما ان كان يؤمن بعقيدة من العقائد الدينية وعن السبب الذى دفعه الى اختيار هذه القصيدة أو استبدالها بأخرى ان كان هناك ثمة اختيار أو ابدال · كما نسأله عن مدى ممارسته لعقيدته · نطلب اليه ما ان كان الاسراف فى الشراب لا يضره · وينبغى علينا أن نعيد السؤال فيما يتصل بالتدخين وتعاطى المخدرات · نطلب اليه آراءه السياسية بعد أن نفهمه ان اهتمامنا لا يتعدى مجال الحدود المهنية · نطلب اليه فلسفته فى الحياة بمعنى المبادىء التى يهتدى بهديها فى سلوكه ، وما ان كان يؤمن بالسحر ورأيه فى الاعتماد على الجهد أو الوساطة أو العلاقات الخ ·

المجال العاشر (اتجاهه من أسرته) : نطلب الى المريض أن يحـــدد الأفراد الذين يعيش معهم حاليا والسبب في وجودهم معه ، نسأله عمـــا ان كان يعاني الكثير من المضايقات في بيته · ونسأله عن طبيعة العــلاقة التي تربطه ببقية أفراد أسرته الخ · وما أن كان يتمنى أن ينفرد بحيــاته ويستقل بها أو يتمنى الزواج · وبالنسبة الى عائلته (الزوجية) عما ان كان يشعر بالندم على زواجه وما ان كان يتمنى لو اتيحت له زوجة أخرى أو يتمنى العودة الى حياته الاستقلالية السابقة على الزواج الخ ·

المجال الحادى عشر (اتجاهه من المرض الحالي) : نسأل المريض عما يعتقد أنه السبب الذى يمكن أن ينسب مرضه اليه · ونسأله عما يعتقد أنه السبيل لتحقيق شفائه نطلب اليه ما ينتوى فعله حين يتحقـــق له الشفاء · (الاجابة على هذا السؤال تتضمن على وجه الدقة ما لا يرغب المريض في أعماقه أن يفعله ويتشبث بمرضه كي يتجنبه) ·

نحاول أن نتبين المكاسب الثانوية التي يجنيها من مرضـــه سيان من أسرته أو معارفه أو الآخرين ، فهذه المكاسب الثانوية تشـــكل أعتى دعامة لمقاومته للشفاء ·

المجال الثاني عشر (الأحلام) : نسأل المريض عما ان كان ينام جيــدا وعما ان كان يعاني الكابوس · نطلب اليه ما ان كان يحلم ونلح عليه حتى يقدم الينا على سبيل المثال بعض أحلامه · وعلى الخصوص الأحلام التي تتكرر والأحلام المزعجة (الكوابيس) وآخر احلامه التي يذكرها · ثم نطلب اليه مستدعياته عن كل حلم من هذه الأحلام حتى نتمكن من الوصـــول الى المحتوى الكامل أي الى الرغبات العميقة التي تعبر عنها هذه الأحلام · وهذا المجال وما تنطوى عليه من جنبات هامة ينبغي أن تكون مستقرة بشكل واضح في ذهن الكلينيكي بحيث يكيفها في مرونة تبعا لفردية المفحـــوص · وليس للكلينيكي أن يستعين على أي نحو بنسخة مكتوبة لهذه المجالات وجنباتها ، وذلك لأنه يحتاج الى كل يقظته وطاقته ليحسن الاستماع ويحسن ادارة الحديث ويحسن الملاحظة · فالمقابلة الكلينيكية ملاحظة مشاركة بكل معنى الكلمة مما يعني أن الكلينيكي ينبغي أن يعيش الموقف ويشارك فيه وان كان عليه في الوقت نفسه أن يدير دفته وهو يصغي الى كل شيء في اهتمام ولا تفلت من ملاحظته أدق الحركات والسكنات ·

الاختبارات الاسقاطية

فى عام ١٩٤٠ استخدمفرانك مصطلحالاسقاط ليشير به الى الاختبارات التى هى من قبيل التات الرورشاخ • وكلمة الاسقاط تشير فى علم النفس الى ثلاث معانى متميزة •

١ ـ فهناك الاسقاط من حيث هو ميكانزم دفاعى محدد فى التحليــــل النفسى وينحصر فى أن يلصق الفرد بغيره مشاعره الأليمة ودوافعه الغريزية المستهجنة • وهذا النمط من الدفاع القائم على طرد الأفكار غير المقبولة من الذات الى العالم الخارجى انما يجد أنموذجه الأصلى الأول فى عملية بصق الفم للأشياء الكريهة • وميكانزم الاسقاط يعمل بصفة أساسية فى الفوبيات (المخاوف المرضية) وفى البارانويا (هزيانات الاضطهاد والعظمة) ، ولكنه يعمل أيضا عند الأسوياء •

كان جوبلز وزير الدعاية أيام النازية الهتلرية يقول فى اضطهاد الألمان اليهود بأن اليهودى (كرمز للامور المستهجنة) يوجد فينا جميعا ولكن من الأفضل والأيسر ان نضربه خارج أنفسنا • وكذلك العـــانس التى تكبت رغبتها فى الانطلاق الجنسى وتسقطها على الأخريات ، فانها تدرك الأخريات مسرفات فى ابتذالهن الجنسى • والجندى فىالحرب عندما يستشعر الخوف الذى لا يليق برجل فانه يكبت أحاسيس خوفه ويسقطها على أحد زملائه فيخيل اليه أن زميله يرتجف خوفا وقد اصفر وجهه كالموتى • وفى حالة المخـاوف المرضية يسقط المريض مخاوفه الداخلية على شىء خارجى غير موضوع خوفه الأصلى فتكون بذلك الفوبيا •

فهانز الصغير كان يكره اباه ويخاف منه ولكن كل هـــذا انكبت لديه وأسقطه على الخيل فأصبح لا يخاف من أبيه ولا يكرهه بل يخاف من الخيل ويمقتها اشد المقت ، وفى حالات البارانويا تكون البداية عشقا مثليا لفرد من نفس جنس المريض، ثم ينقلب العشق الى كراهية وتنكبت هذه الكراهية تمهيدا لاسقاطها على ذلك الزميل الذى كان فى البداية موضع عشق المريض

عندئذ يخيل للمريض أن زميله يكرهه ويضطهده وأن من حقه بالتالى أن يجيب على الاضطهاد بالاضطهاد وعلى الكراهية بالكراهية واذا كان زميله يضطهده فما ذلك الا حقد هذا الزميل على عظمته غير العادية · بذلك تستقر هذيانات الاضطهاد والعظمة عند مريض البارانويا · تلك أمثلة على ميكانزم الاسقاط عند الأسوياء وعند العصابين وعند الزهانين ·

٢ ـ وهناك الاسقاط من حيث هو نتاج طبيعى للدينامية التى تحكم الادراك · فظاهرة الادراك كأى ظاهرة نفسية هى انتظام ينتج كمحصلة لصراع كل القوى القائمة فى الحقل ونعنى العوامل الذاتية والقوى البيئية · ومعنى هذا أن المثيرات الخارجية ليس لها من حيث المبدأ نفس الانتظام أو نفس الدلالة بل يتحدد هذا الانتظام وتتحدد هذه الدلالة بالرجوع الى شخصية الفرد القائم بالادراك · ذلك ما أوضحته نظرية الجشطلت بتجاربها القاطعة على العوامل الذاتية والشروط الخارجية وما يمكن أن نرجع اليه فى الترجمة العربية لكتاب جيوم « علم النفس الجشطلت » ص ١٦٥ وما يليها ·

فبعض المثيرات الخارجية تكون من القوة والوضوح بحيث لا تسمح بأى هامش لعمل العوامل الذاتية ، بينما يكون بعضها الآخر من عدم التحدد وعدم الوضوح بحيث يسمح بهامش فسيح لعمل العوامل الذاتية · فهذه منضدة وهذا كتاب ولا امكانية للاختلاف على ذلك بين الأفراد بينما يمكن أن يختلف الأمر تماما لو كانت الاضاءة تقترب من الاظلام أو كان الكتاب بين أشياء تحجب على نحو معين جانبا منه · ولكن مهما كانت الظروف فان الادراك يكون دائما محصلة الصراع بين الشروط الخارجية والعوامل الذاتية · وبقدر ما تكون الشروط الخارجية واضحة التحدد ، يتضاءل الدور الذى تلعبه العوامل الذاتية وعلى العكس من ذلك عندما تكون الشروط الخارجية غير واضحة التحدد فينفتح المجال فسيحا أمام فاعلية العوامل الذاتية فى اضطلاعها بتحديد الانتظام (البنيان) وفى تحديد الدلالة · هنا تكون الكلمة الفاصلة لدوافع الشخص واتجاهاته ، لرغباته ومخاوفه · فهذا الشىء الذى يسعى فى ظلمة المساء يدركه العاشق وكأنه طيف العشيقة التى تسعى اليه ويدركه اللص وكأنه طيف الشرطى الذى يتربص به ، وقد يدركه العاشق على أنه طيف

المنافس الغاضب ، وقد يدركه اللص على أنه صيد ثمين يسوقه القدر · فكل ذلك وغيره يتوقف على الدوافع الغلابة فى شخصية الفرد ·

وهكذا فبقدر ما يكون بنيان الموقف فقيرا فى انتظامه غير محدد فى دلالته تتدخل الشخصية بالقدر نفسه لتسبغ على المثيرات انتظامها ودلالتها، ذلك هو الأساس الذى تستند اليه الاختبارات الاسقاطية حين تقدم الى الشخص مثيرات غير محددة الدلالة فنطلب اليه أن يصفها أو يصنع منها قصة أو غير ذلك بما ينطوى على ادراك هذه المثيرات من خلال شخصيته · والفرد فى ادراكه لهذه المثيرات انما يسهم بشخصيته فى تحديد دلالتها فيتيح لنا أن نمسك بالخصائص العميقة المميزة لشخصيته ·

٣ ـ وهناك الاسقاط من حيث هو نتاج طبيعى للدينامية التى تحكم كل مسالك الفرد بغير استثناء · وهذا المعنى الثالث والأخير للاسقاط هو أكثر المعانى شمولا · فالادراك ليس غير شكلا من أشكال السلوك والدينامية التى تحكم الادراك هى الدينامية التى تحكم السلوك ومن هنا فان الشخصية تترجم عن نفسها فى كل سلوك من مسالكها ، الأمر الذى يعبر عنه الفهم الشائع عندما يقرر بأن كل اناء ينضح بما فيه · فالشخص فى انتقائه لملابسه وكتبه وصحفه وأنديته ومسارحه وأثاث منزله وأصدقائه ·· الخ ، انما يكشف عن الخصاص المميزة لشخصيته واذا كان الانسان يتكلم ببدنه بأعمق مما يتكلم بكلماته ، فان مسالكه التعبيرية تمثل أدق وأصدق لغاته على الاطلاق (أنظر الفيلسوف الفرنسى جان فال) فتعبيرات الوجه المرئية وحركات البدن الايمائية ونبرات الفرد الصوتية كلها تعبر عن الخصائص العميقة للشخصية · واذا كانت التربية (التعلم) تمكن الفرد من أن يكذب بكلماته وتعبيراته المرئية فان تعبيراته الصوتية غالبا ما تفلت من مقتضيات التزيف التى يفرضها التواؤم الاجتماعى ولكن اذا كان الشخص يتكلم ببدنه فينبغى الا ننسى أنه يستطيع دائما أن يصدق أو يكذب ولكن الحقيقة كثيرا ما تندس فى أكاذيبه · فالمرأة التى تنطوى على عدوانية فى أعماقها كثيرا ما تكون ملائكية فى حديثها ونبرات صوتها ناعمة فى مصافحتها بحيث تسلم يدها لتنام فى يدى الآخر مما يرجع بالتأكيد الى التكوينات المضادة كميكانزمات دفاعية ·

نظرية جديدة فى الاسقاط :

ان هذا التمييز الشائع بين أنواع ثلاثة من الاســـقاط يبدو لنا أمرا مجافيا لأوليات العملية العلمية · فهذا التصنيف للاسقاط الى أنواع ثلاثة انما يستند الى الأسلوب الارسطاطالى الذى يقوم على تفكير الوقائع بلغـة الفئات والأصناف ، بعيدا عن « المجانسة » و « الشرطية » · وفى مقدمة الطبعة الثانية من ترجمته لكتاب سيكولوجية الاشاعة (١) استطاع مخيمر أن يرينا ان ظاهرة الاشاعة ليست غير صورة من الصور التى ينتظم عليهـا الادراك الجمعى عندما تكون المثيرات الخارجية غير واضحة التحدد والدلالة ومن ثم تفسح المجال عريضا أمام فاعلية العوامل الذاتية ·

ونحن هنا نستند الى عبارة جوته الشهيرة والتى تقدر بأن « ما هو فى الداخل هو أيضا فى الخارج » · فالدوافع العميقة للشخصية تلعب دائمـا دورها ضمن هامش الحرية الذى تتيحه لها الشروط الخارجية · ومعنى هذا أن عوامل الفرد الذاتية بكل نوعياتها الدفاعية أو غير الدفاعية تترجم عن نفسها — ما أمكن فى المسالك الخارجية وهنا ينبغى أن نتنبه الى أن الفرد الذى يحقق اشباعا هلوسيا لرغباته وأماله فى القصص التى يبتدعها وفى الادراكات التى يعيشها انما يقوم على نحو ما بالدفاع عن كيانه ، على نحو لا يختلف عن دفاعه عن كيانه عندما يلصق مشاعره المستهجنة بالآخرين ·

فالشخص الذى يتوهم تحقق أماله يدافع عن كيانه كالشخص الذى يتوهم تخلصه من آلامه فى الحالة الأولى يتوهم لنفسه الخير والفضيلة وفى الحالة الثانية يتوهم لنفسه الخلو من الشر والرذيلة ، ويظل الهـــدف فى الحالين واحدا فى طبيعته الدفاعية ·

مما سبق يكون بوسعنا أن نقرر ان ما هو فى الداخل هو أيضا فى الخارج سيان كان ذلك فى صورة دفاعية أو غير دفاعية ، فى صورة أدراكات

---

(١) الناشر سعيد رأفت سنة ١٩٧٩ ·

أو مسالك خارجية ، وفى « تناول جديد فى تصنيف الأعصبة والعـــلاجات النفسية » أوضح مخيمر مستويات التمخرج لهذا الذى هو فى الداخل بحيث يكون بوسعنا أن نمسك بتمخرجه فى الاحلام ، أو بتمخرجه فى أحلام اليقظة والادراكات وما الى ذلك من ظواهر شـــــعورية أو فى تمخرجه فى اللعب والسيكودرامة وما الى ذلك أو فى تمخرجه فى المســـــالك التعبيرية وشتى الصور التى تتخذها المسالك الخارجية · فما هو فى الداخل أشبه ما يكون بالحسناء التى تحرص على ان تستمر فتنتها اكثر فاكثر كلما امعنت المضى فى طريقها الى الخارج حيث تلتهمها عيون الآخرين · وهكذا اتقدم خطوة على الطريق التى بدأها مخيمر بمجانسته لظاهرة الاشاعة كصورة من الصور التى ينتظم عليها الادراك · هنا أيضا نعيد بناء الوقائع من خلال تفكيرها بلغة السياقات واضعين فى اعتبارنا « المجانسة » و « الشرطية » فاذا الاصناف الثلاثة للاسقاط مجرد تشكيله تباينات للصور التى تتجسد عليها العوامل الذاتية فى انتظامات الادراكات والمسالك الخارجية · وهكذا يرتد الأمر كله الى فينومينولوجيا الادراك وديناميات الحقل ·

لا استخدام لمنطق التواتر فى التأويل :

ان تأويل الاختبارات الاسقاطية على مختلف أنواعها ينبغى أن يكون تأويلا طليقا يستند الى مفاهيم السيكوديناميه والتحليل النفسى · فكل محاولة لتصنيف الاجابات وحساب تواترها (عدد مرات تكرارها) انما تقحم على السياق الحى للانسان بديناميته ووظيفته ، منطقا غريبا عليه كل الغرابة ونقل منطق السيكومترية الذى يقوم على التواتر وذراتيه وميكانيكية · يقول فرج أحمد فرج فى رسالته للماجيستير عام ١٩٦٥ ص ٤٣ ما يلى :

« والخلاصة ·· هى أن أصحاب الموقف السـيكومترى من الممارسين لاختبار تفهم الموضوع يحاولون نقل مفاهيمهم بموقفها النظرى الضمنى الى اختبارات ترتبط باطار نظرى متكامل ومغاير تماما للاطار النظرى الـذى ظهرت داخله هذه المفاهيم · ومن هنا فان المشكلة الرئيسية هى محاولة نقل مفاهيم القياس النفسى الى الاختبارات الاسقاطية على الرغم من اختلاف طبيعة الموقف الفكرى النظرى لكل منهما · ان الاختبارات الســـــيكومترية

التقليدية انما تقوم على منطق الشعور منطق العمليات الثانوية ، وتستند فى صدقها الى معيار التواتر فى حين أن الأساليب الاسقاطية انما تقوم على منطق العمليات الأولية والثانوية معا ومن ثم فاننا اذا ما أردنا أن نقوم الاختبارات الاسقاطية كاختبارات سيكولوجية فانه ينبغى أن تستمد معايير هذا التقويم من هذا المنطق الجديد أساسا ، لا ان نلجأ الى معايير مستمدة من منطق الشعور وحده (١) » ٠

يتضح ذلك مثلا عند النظر الى بعض المسالك النمطية التى تعبر بتكرارها عن بعض الخصائص المميزة للشخصية ، فليس لنا فى مثل هذه الحالات ان نعمد الى حساب التواتر طالما ان ذلك يبتعد بنا تماما عما ننشده من «فهم» للظواهر النفسية ٠ صحيح ان اسلوب اللغة التى نتكلمها أو نكتبها يعبر عن شخصية الفرد . وذلك لأن الكلمات لا تعبر فحسب عن الأفكار والوقائع وانما تعبر أيضا عن شخصية الشخص الذى يستخدمها ٠ وليست الكلمات التى تلبسها الافكار هى وحدها تعبر عن الشخصية ، ولكن ايضا الملابس التى يلبسها الفرد تعبر هى الاخرى عن شخصيته ٠ وكذلك الأصوات المنطوقة والخطوط المكتوبة ٠ ويمكن القول بان الكتابة المنتظمة كاللهجة الهادئة فى الكلام وكالالوان الوقورة فى الملابس والألفاظ المعتدلة فى التعبير عن الفكرة كلها تترجم عن اتزان صاحبها وسيطرته على ذاته بعيدا عن الطرفين القصويين ونعنى الكف بتردده وأحجامه من ناحية والاندفاعية من ناحية أخرى ٠ كل هذا صحيح ولكن الذى ليس بصحيح هو الانتقال من دلالة هذا التواتر لبعض المسالك النمطية الى حسابات تواترها ومحاولات تقنينها ٠ فقد حاول البعض مثلا تقنين الكتابة بدراسة لسمك الحروف وطولها للانتهاء من هذا كله الى جدول يكون اشبه شىء بمفتاح الشفرة بحيث تكون لبعض الرموز دلالات ثابتة بعينها ٠ وهذا يذكرنا ولا شك بما كان سائدا فى تفسير الأحلام قبل ظهور التحليل النفسى بديناميته ووظيفيته ٠ فحتى الرموز العامة فى الأحلام لا ينبغى ان يكون تأويلها الا بالرجوع الى الوحدة الكلية الفريدة لشخصية المفحوص ٠ ومن جديد مع نظرية الجشطالت وقانونها عن العضوية

---

(١) أنظر الصفحة الاخيرة من الفصل الاول حيث يتضح بشكل قاطع ما يذهب اليه مورای من أن علم النفس ينبغى أن يكون علما بالحالة الفردية ، بعيدا عن التجريبية السيكومترية التى تقوم على التقنين والتواتر ٠

ينبغى ان نذكر أن الجزء هو ما هو عليه بالرجوع الى الكل الذى ينتمى هذا الجزء اليه · فالجزء فى انعزال يختلف عنه ضمن كل ويختلف عنه ضمن كل ثانى وهكذا تتحدد دلالة كل جزء بل يتحدد وجوده وتتحدد وظيفته بالرجوع الى هذا الكل الذى ينتمى الجزء اليه · فالثعبـــــان الذى يعتبر فى تفسير التحليل النفسى للأحلام من أكثر الرموز عمومية فى دلالتها على القضيب ، التقى به مخيمر كرمز للمهبل بحيث لا ينزعج الحالم ويصحو مذعورا من نومه الا عندما يفتح الثعبان فمه وكذلك الحال أيضا بالنسبة الى الكلب فقد التقى به مخيمر كرمز للمهبل لا للقضيب وهكذا يستحيل تفسير سلوك من المسالك مهما كان تواتره بدون الرجوع الى الوحدة الكلية لشخصية صاحبه. وكل تثبيت للعلاقة بين سلوك أو رمز أو بين دلالة بعينها هو خروج على أبسط مقتضيات الدينامية والوظيفية ·

فليس للمسالك لا ولا للرموز من دلالة ثابتة وانما تتحدد دلالاتهــــا بالرجوع الى شخصية الفرد · ومن هنا انتهى «نوتكات» كما انتهى «موراى» الى ما يفيد أن علم النفس لايمكن الا ان يكون علما بالحالة الفردية · يقول « نوتكات » فى كتابه « سيكولوجية الشخصية (١) » بأن علم النفس العــام يتحتم عليه ان يخلى السبيل أمام دراسة الحالة الفردية ، ان كان لنا أن نبلغ من النتائج شيئا أكثر مما هو « تقريبى » · فالفردية تنتصب حقيقة عنيدة تذهب بكل قيمة للقوانين فى مجال النفس البشرية ، وللمستويات الاحصائية التى تتمخض عنها التجريبية السيكومترية · فما جدوى ما يقول به «ميللر» من ان الاحباط يولد العدوانية ، فذلك يصدق على البعض دون البعض الآخر· ولابد أمام هذه الحالة التى توجد هنا والآن من دراسة شاملة لنتبين ما ان كان الاحباط يولد لديها العدوانية أو ذروة النشوء الجنسية · فكل القوانين فى علم النفس هى مستويات احصائية أكثر منها قوانين بمعنى الكلمة ومن ثم تنتمى الى علم نفس الجماعات أى الى علم النفس الاجتماعى ·

وخلاصة ما سبق أن الاختبارات الاسقاطية هى اختبارات ولكنها ليست بمقاييس مقننة على أى نحو· فالمعطيات التى نحصل عليها من الاختبـــار

---

(١) الترجمة العربية ـ مخيمر ـ الانجلو ·

الاسقاطى انما تتحدد قيمتها ودلالتها الرجوع الى الوحدة الكلية للشخصية وتمكننا من ان نبلغ الى « فهم » هذه الشخصية اســـــتنادا الى مفــــاهيم السيكودينامية وذلك كله بعيدا عن المعايير الاحصائية التى تستند اليهــــا المقاييس المقننة فى تحديدها لمكان المفحوص من الآخرين بتجميع للنتـــــائج الجزئية ٠ فبينما تنطوى معطيات الاختبار الاسقاطى مباشرة على دلالتهــــا فان المقاييس المقننة (والاستبيانات وسلالم القيــــاس ٠٠ الخ) ٠ لا تحفل بالدينامية وتنظر الى الشخصية وكأنها مجرد حاصل جمع لبعض القدرات أو العناصر الأولية الأولى ٠ وبعبارة أخرى فان المقاييس المقننة تقوم على « الذراتية » والميكانيكية وتتناول الانسان كما تتناول علوم الطبيعة « أشياء » الطبيعة مما يمكننا من تصنيف الأفراد ومقارنتهم بعيدا عن كل محاولة لفهمهم٠ وصحيح أن الرورشاخ (بقع الحبر) يقوم بحسابات لاجابات الفرد الشائعة النادرة ولاجاباته الراجعة الى اللون والشكل وتلك التى ترجع الى الحركة مما يصل بنا الى تحديد نمط الشخصية ، ولكن هذه الحسابات هى مجرد وسائل يستعين بها الكلينيكى فى فهمه بعيدا عن كل معنى للتقنين ٠ فاختبار الرورشاخ لا يتمخض عن تحديد مكان المفحوص بالنسبة الى الآخرين ، بل يقدم عن المفحوص لوحة كلينيكية تشخيصية فى بضعة أسطر ٠ فعلى الرغم من عناية المشتغلين بالرورشاخ بالوسائل الكمية وبتحديد الدرجات فانهم يأبون تماما ربط هذه الدرجات بأية دلالة ثابتة بعينها ، على طريقة مفتـــاح الشفرة ٠ ولولا رفضهما هنا لتوقف الرورشاخ عن أن يكون اختبارا اسقاطيا ولأصبح مجرد مقياس مقنن وأداة سيكومترية ٠

وتلك هى الغلطة الكبرى التى يقع فيها بعض الجاهلين بالاختبـــارات الاسقاطية عندما يضعون الدرجات ويجمعونها على نحو ما يحدث أحيانا فى اختبار ساكس لاكمال الجمل أو عند استخدام استمارة بيلاك لحساب تواتر الاستجابات فى اختبار الادراك الداخلى للموضوع (التات) ، وما الى ذلك ٠ أنهم بذلك يلغون الاختبار الاسقاطى من حيث هو كذلك ويخفضونه الى مجرد مقياس مقنن وذلك لأنهم ينتقلون من منطق السيكودينامية الى منطق التواتر٠

ذلك هو الحال مثلا بالنسبة الى كينت وروزانوف فيما يتصل باختيارهم

لتداعى الكلمات عندما قاما بحساب مرات التكرار لكل اجابة من الاجابات ، وأصبح من الممكن مقارنة اجابات المفحوص بالقائمة الاحصائية المقننة التى قاما باعدادها · وكانت العصابية فى ذلك الوقت تقـــاس فى أمريكا بميل المفحوص الى انتاج عدد كبير من الاستجابات الفردية والنادرة · وكذلك الحال عندما يكون على المفحـــوص ان ينتقى اجابة من جملة اجابات معدة سبقا مما يعرف بالاختيار المتعدد ويعنى تعدد الفرص أمام اختيار المفحوص· فمثل هذه الاختبارات تقوم على التقنين ومنطق التواتر فهى مقاييس مقننـــة لاصلة لها على الاطلاق بالاختبارات الاسقاطية التى تقوم أساسا على منطق السيكوديناميه ·

ويتضح هذا كله بشكل بارز عندما نتبين الأسباب التى دفعت الى ظهور الاختبارات الاسقاطية · لماذا الاختبارات الاسقاطية ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتضح بالاجابة على سؤالا آخر فى مجـــال التحليل النفسى ونعنى الأسباب التى دفعت فرويد الى ابتداع التداعى الطليق هذا الذى يســـميه بالقاعدة الأساسية والذى يعتبر العمود الأول الذى يقوم عليه التحليل النفسى بينما يمثل الطرح العمود الثانى والأخير . كان التنويم المغناطيسى لا يصلح مع جميع الحالات وكانت نتائجه العلاجية غير حاسمة وكان التنويم المغناطيسى يزيد من تباعية المريض بينما يستميل كل معنى للشفاء بغير زيادة للاستقلالية، من هنا شرع فرويد يجرب طريقة الايحاء للمريض بعد ان يسترخى على أريكة ولكن ذهبت جهوده عبثا ، فميكانزمات الدفاع تقف فى وجه المكبوتات تحول بينها وبين التسلل الى الشعور· فما السبيل لجعلها تتسلل الى الشعور اللهم الا أن يكون خداع هذه الدفاعات استنادا الى الحتمية النفسية · نطلب الى المريض ان يتكلم بكل ما يخطر على ذهنه دون استبعاد لشىء أو انتقاء أو تفضيل لشىء · انه بذلك يتخلى عن المعقولية ومنطق الشعور ليقوم بمجرد «الدش» كيفما اتفق · ولما كانت الظواهر النفسية تجهل الصدفة العشوائية ، فانما يبدو للمريض مجرد « دش » يخلو من كل علاقة ومعنى فى تتابعه ، انما يرتبط أوثق الارتباط بالنسبة الى أعماقه · بذلك يكشف لنا عن أعماقه دون ان يتنبه الى أنه يفعل ذلك ·

ذلك على وجه الدقة هو صميم ما تهدف اليه الاختبارات الاسقاطية · « يكشف عن أعماقه دون ان يتنبه الى ذلك » فلو ان المفحوص قد تنبه الى

ذلك فلن يكون بوسعه ان يمنع نفسه من الدفاع ، وقديمـــا قال الفيلسوف « سبينوزا » بأن الانسان هو ابعد الكائنات عن نفسه · فكل ما هو شعورى يتسم بالجزئية والتحيز بحيث تكون صورتنا الشعورية عن أنفسنا شيئا زائفا ولكننا نستطيع أن نرضى عنه · وهكذا فان المفحوص عندما لا يدافع بشكل شعورى عن طريق الأكاذيب المقصودة فان ميكانزماته الدفاعية تتولى ذلك بشكل لاشعورى غير مقصود ·وفى الحالتين تكون النتيجة هى اجابات زائفة· ومن هنا كان ولابد من استخدام شىء شبيه بالتداعى الطليق فى التحليل النفسى وبحيث يكشف المفحوص عن أعماقه دون أن يتنبه الى ذلك ·

ومن هنا كان استخدام « مادة اثارة مبهمة » خاصية أســاسية لكل الاختبارات الاسقاطية ، سيان اقتصر الابهام على الدلالة أو تخطى ذلك الى الانتظام البنيانى للشكل · ويترتب على هذا الابهام ان تكون الاســتجابات الممكنة لا نهائية فى تنوعها وثرائها وبعيدة كل البعد عن مفـــاهيم الخطأ والصواب · انها هى الأخرى مجرد « دش » كيفما اتفق · يتضح ذلك فى ادراكنا لبقع الحبر فى الرورشاخ وفى تأليفنا لقصة من مشهد اللوحة فى اختبار الادراك الداخلى للموضوع (التات) وفى اكمالنا لبعض العبارات الناقصة وفى رسومنا الطليقة وفى لعبنا بالدومة وفى كل شىء نقوم به على مسرح الابهام وعدم التحدد · وقد سبق ان رأينـــا بأنه كلما كانت عوامل الانتظام الخارجية قوية مستقرة واضحة ، ضاق المجال أمام فاعلية العوامل الذاتية ، والعكس بالعكس · ومن هنا يتحتم على المثيرات فى الاختبـــارات الاسقاطية أن تسمح بحيز من الابهام واساءة الفهم يفتح الباب عريضا أمام العوامل الذاتية لتعبر عن نفسها ·

فالمقاييس المقننة بكل أشكالها وما يتصل بها من استبيانات وســلالم قياس تستجوب الشعور بل وتستجوبه بشكل عمودى مباشر يوقظ المقاومة ويحرك الدفاعات بحيث تختلط التحريفات الشعورية بالتحريفات اللاشعورية جاعلة من النتائج مجرد أكاذيب لا جدوى منها · وقد سبق ان رأينا ان المتعاطين للحشيش قد كشفوا فى اجاباتهم على الاستبيان عن مستوى رفيع من الرضى عن ذاتهم وحياتهم بينما يسخر واقع حياتهم من هذه النتيجة طالما ان تعاطى الحشيش يستحيل بغير ارضية اكتئابية تصرخ بعدم رضى الفـرد عن ذاته وحياته جميعا · ولكن ما حيلة المقاييس المقننة وهى لا تستطيع الا

ان تستجوب الشعور وبشكل عمودى مباشر وصريح · ان الاجابة عليهـــا ـ شأنها شأن حديث المنجمين ـ تكذب وان صدقت طالما ان الصدق الشعورى ينطوى بالضرورة على التحريف والتزيف لأن الشعور بطبيعته مجهلة واذا كان الأفراد يأخذون حذرهم بشكل شعورى أو لا شعورى عندما توجه اليهم أسئلة مباشرة ، واذا كان شعورهم نفسه ينطوى على التحريف والتزيف ، فلم يعد بد من استخدام طرائق لا ينتبهون معها الى ما نستهدفه فتتعطل بذلك دفاعاتهم ويكون بوسعها فى الوقت نفسه ان تحرك أعماقهم العميقة بحيث تظهر فى استجابتهم · فأمام لوحة من لوحات التات يكون علينا ان نبتدع قصة بما تنطوى عليه من أحداث وتنتهى اليه من نهـــــاية · وعالم النفس الكلينيكى المتمرس لا يستطيع مع كل علمه ودرايته أن يتجنب الكشف عن أعماقه ان هو قام بابتداع القصة · فلا سبيل الى الافلات الا بالامتناع عن الاجابة ·

تاويل المعطيات الاسقاطية :

ان تأويل المعطيات الاسقاطية يتم فى الغالب بالرجوع الى المضمون وكما هو الحال فى (التات) ولكن احيانا ما يتم بالرجوع الى الشكل من قبيل أسلوب الادراك كما هو الحال فى الرورشاخ · ومع ذلك فان التأويل فى واقع الأمر يستند الى المضمون والشكل جميعا ، وان تباينت أهمية الواحد والآخر فى كل حالة من الحالات ففى حالة لوحات موراى التى تسمى (بالتات) ينصب الاهتمام على تحليل المضمون ولكن فى غير ما اغفال لأسلوب القصة وكلماتها وما تنطوى عليه من ذلات للقلم وما الى ذلك · وفى حالة الرورشاخ ينصب التأويل أساسا على أسلوب الفرد فى الادراك بمعنى ان ادراك الفرد ان كان يغلب عليه ادراك البقعة كلها أو أجزاء كبيرة منها أو الأجزاء المسرفة فى الصغر ،وما ان كانيستند فى ادراكه هذا الىشكل البقعة أو لونها وما ان كانيدركها كشىء ثابت أو متحرك الخ ·ولكنالرورشاخ لايغفل بحال مضمون الاجابة من حيث أنها تنصب على انسان أو حيوان أو شىء من الأشياء ·

ولكن اذا كان موراى فى تاويله لمضمون (التات) يعول على توحدات المفحوص مع أبطال قصصه ،فان توميكنز يهتم بالكشف عن الاتجاهات النوعية للمفحوص ازاء النوعيات المختلفة من مواقف الحياة · وبديهى أن طريقة

موراى تنفتح للكثير من العسر واللبس · فقد يتوحد المفحوص مع بطل من غير جنسه وقد يتوحد جزئيا مع البطل الرئيسى فى القصة وجزئيا مع بطل ثانوى · هذا الى ان توحد المفحوص مع البطل يمكن أن يكون تعبيرا عن نفسه « كما هو » ويمكن ان يكون تعبير عن نفسه « كما كان » ويمكن ان يكون تعبيرا عن نفسه « كما يود أن يكون » أو « كما يخشى أن يصير » · ومن هنا يفضل مخيمر طرقة توميكنر على ان يقوم المفحوص بكتابة القصة وعلى ان يبتدع لها العنوان الذى يراه مناسبا · وعادة ما يبدأ مخيمر باللوحة العاشرة التى تكشف عن اتجاه الفرد من العاطفية ثم اللوحة الثالثة عشر التى تكشف عن اتجاهه من الانسالية لينتقل بعد ذلك الى اللوحة الأولى التى تبين اتجاه الفرد من الخصاء · تأتى بعد ذلك اللوحتان السادسة والسابعة للكشف عن الأوديبية بما تنطوى عليه من اتجاه المفحوص ازاء أمه وازاء أبيه · وأحيانا ما تكون البداية بهاتين اللوحتين لاســـتحالة التفسير الأكيد دون الرجوع اليهما · وعادة ما تأتى بعد ذلك اللوحتان التاسعة والثانية عشر تكشف عن اتجاه المفحوص من الجنسية المثلية ، وهنا تتباين بالطبع اللوحات تبعـــا لجنس المفحوص · ويكون على اللوحة الثامنة بعد ذلك أن تكشف عن دور العدوانية عند المفحوص قبل الانتقال الى اللوحتين الحادية عشر والثامنة عشر للكشف عن الدور الذى يلعبـــه القلق عند المفحوص · وأحيـانا ما تكون الاستعانة بعد ذلك باللوحتين الثانية عشر (القارب) والخامسة عشر (المقابر) لتبين ما عليه المفحوص من تفاؤل وتشاؤم · وتبعا للفردية الفريدة للحالة يمكن اضافة لوحات اخرى كاللوحة الرابعة للغيرة وما الى ذلك · وينصح مخيمر بعدم الشروع فى التأويل قبل ان يفرغ الكلينيكى من قراءة تاريخ الحياة بما يشتمل عليه من احلام نمطية أو مزعجة أو حديثة العهد وقبل ان يفرغ من قراءة كل القصص التى كتبها المفحوص · فالقصة الواحدة هى بمثابة جزء لا يمكن ان تتضح دلالته الا بالرجوع الى الوحدة الكلية للحالة الفردية · والعملية الأساسية فى التأويل تكاد تنحصر فى معيـــار التكامل ومعيار التقاء الوقائع من معايير المنهج الكلينيكى · فكل الوقائع ينبغى أن تتكامل فى كل تفسيرى واحد بحيث لا تبقى واقعة واحدة لا تجد مكانها ضمن هذا الكل التفسيرى · والوقائع المستمدة من القصص ينبغى أن تلتقى فى دلالتها بدلالة الوقائع المستمدة من تاريخ الحياة ومن تأويل أحلام المفحوص· ويرى مخيمر ان الوفاء بهذين المعيارين يتيح للتأويل العمق والدقة معا ·

وإذا كان لنا ان نتابع آراء مخيمر كعميد للكلينيكية فى الشرق الأوسط ، لكان من المحتم أن نلح على تفضيله للتـــات على الرورشـــاخ · فتأويل الرورشاخ عملية آلية وان تطلبت فترة طويلة من الدراية والممارسة ومن ثم فانها لا تتيح بآليتها هذه مجالا لخبرة الكلينيكى وتمرســـه . هذا الى ان الرورشاخ يتيح لنا الصاق بطاقة تشخيصه بالحالة التى نقوم على فحصها دون ان يمكننا كما يفعل التات من تبين الصورة الفريدة التى ينتظم عليهـا المرضى فى الحالة التى تعنينا · وبعبارة أخرى فان الرورشاخ يتيح لنـــا التشخيص من حيث هو « مماثلة » بينما يمكننا التات من التشخيص فى معناه الحق ونعنى من حيث هو « موائمة » · هذا الى ان الكلينيكى لا يستطيع ان يتخلى عن حريته فى تناول الوقائع ليحصر نفسه ضمن خطة ثابتة للتحليل على النحو الذى يحتمه الرورشاخ . وذلك حتى لا يتعرض لخطر تجاهل تلك الوقائع التى لا تساير الخطة المرسومة سبقا ·فالكلينيكية علاقة حرة وملاحظة مشاركة وبالتالى فان كل تقييد لهذه الحرية بآليات ثابتة فى التأويل انما يقضى على الطابع الصميمى للكلينيكية ويهبط بها الى مستوى السيكومترية ·

وفى تأويل الشكل لا ينصب الاهتمـــام على المضـــمون التصورى لاستجابات المفحوص بل على اسلوبه الادراكى لهذا المضمون وأســـلوبه التعبيرى عن هذا المضمون · وبعبارة أخرى فان الكلينيكى يهتم هنا بالطريقة النوعية التى تغلب على ادراك المفحوص وعلى أســـلوبه فى التعبير عن مضـــامين بعينها بحسبانها ممثلة لجملة من المواقف المتكافئة الدلالة · فالتأويل هنا لا ينصب على الاتجاهات النوعية من النوعيات المختلفة لمواقف الحياة بما ينطوى عليه ذلك من صراعات وتصورات نوعية بل ينصب على هذه الارادية اللفظية التى تتبدى فيها صراعاته واتجاهاته وتصوراته وما قد يكون مصاحبا لذلك من حركات بدنية وتعبيرات صوتية · فانتقاء الشخص للألفاظ التى يستخدمها فى القصص التى يبتدعها عن لوحات « التـــات » وطريقة الشخص فى صياغة عباراته تكشف عن خصائص هامة فى شخصيته وكذلك الحال بالنسبة الى تماسك القصة أو ما يمكن ان نسميه « بالحبكة الروائية » ففى ذلك ما يشير الى ارتفاع حظ المفحوص من الذكاء · هذا الى اهمية التعبيرات التى تغلب على المفحوص كأن يكون ميـــالا الى القول « يبدو لى » ، « يخيل لى » مما يعبر عن عدم ثقته ومما يختلف عن قوله « ليس من شك » ، « من المؤكد ان » ، « بديهى ان هذا » ·· الخ · مما يترجم

عن ثقة زائدة بالنفس والتى تقترب من الاندفاعية بعيدا عن التروى . وكذلك الحال عندما يكون المفحوص ميالا فى عباراته الى استخدام ما يكشف عن احتمالات مختلفة ، « اما ان يكون كذا . وفى هذه الحالة الخ ، واما أن يكون كذا وفى هذه الحالة .. الخ » ، ففى ذلك ما يكشف عن تردد شديد يترجم عن ميل الى التشكك يحملنا ولا شك على افتراض وجود عصاب قهرى . وبالاضافة الى هذا كله فان ذلات القلم والكلمات المشطوبة والنسيانات وما الى ذلك تكون قاطعة فى دلالتها . وخلاصة هذا كله ان التأويل لاينبغى بحال ان يغفل الشكل والأسلوب وما الى ذلك من أردية وملابسات تتبدى فيها أفكار المضمون ومعانيه واتجاهاته .

وكذلك الحال بالنسبة الى الرورشاخ . كانت تأويلاته فى البداية تنصب أساسا على التشخيص الفارق لمختلف صور العصاب وذلك استنادا الى دراسة العمليات الادراكية . ولكن الاختبار يستخدم اليوم وبنفس الفاعلية على جميع الأفراد . ولكن الكلينيكى فى استخدامه للرورشاخ يقوم باتباع أليات تصل به الى التشخيص دون أن « يفهم » سببا لذلك . فرورشاخ قد وصل الى ما وصل اليه من نتائج بعد عشر سنوات من العمل المضنى ليستخلص فى النهاية الخصائص المميزة لاستجابات الأسوياء وتلك المميزة لاستجابات الهستريين أو القهريين وما الى ذلك . فاختبار الرورشاخ اختبار امبيريقى يتيح لنا بالياته ان نبلغ الى التشخيص ولكن دون ان « نفهم » الأسباب التى تبرر مثل هذا التشخيص . كل ما هنالك ان تجريب الرورشاخ على مدى عشر سنوات قد كشف عن وجود هذه الخصائص المميزة فى حالات كذا .. الخ . فاختبار الرورشاخ ينتمى الى قوانين التواتر التى تسمح بالتنبأ دون أن تسمح بالفهم ، بينما ينتمى اختبار التات الى القوانين الفهمية التى تسمح بالتنبؤ وبالفهم جميعا (١) . وثمة اتجاه حديث يميل الى تأويل الرورشاخ استنادا الى المضمون وبالرجوع الى مفاهيم لتحليل النفس وذلك بدلا من اتباع الوسائل التقليدية للتأويل . وفى هذا الاتجاه الجديد ما قد يتيح « الفهم » بالاضافة الى التنبؤ .

واذا كان الطرائق الاسقاطية عديدة تستحيل على الحصر فليس من

---

(١) أنظر وحدة علم النفس - الترجمة العربية - مخيمر - الانجلوا - ص ٥٢ وما يليها .

الضرورى بحال ان نختار بينها · فبوسعنا ان نستخدم الاختبـــارات التى تنصب على تأويل المضمون جنبا الى جنب مع الاختبارات التى تنصب على تأويل الشكل ، وبوسعنا أن نستخدم فى هذه الحالة وتلك بعض الاختبارات التى تستند الى منبهات سمعية وبعضها الآخر الذى يستند الى منبهات بصرية، فغالبا ما تكمل هذه الاختبارات بعضها البعض بصورة مفيدة · بوسعنا أيضا ان نستخدم أسلوب اتمام القصص تبعا لنوعية الحالة · ففى انتقائه لبعض الاخصائيين الاجتماعيين للعمل مع العميان استخدم مخيمر مع بعض لوحات التات اتمام القصة التالية : « الآن وقد فرغت من دهان بدنك بالدواء الجديد أصبحت رجلا خفيا بحيث ترى الجميع بينما يستحيل على أحد ان يراك كيف تستفيد من هذه القدرة العجيبة ؟ » وغنى عن البيان هنا ان المفحوص يجد نفسه بذلك فى نفس الموقف الذى سيكون عليه مع العميان فهو يرى كل شيء منهم بينما لا يرى أحدا من العميان شيئا منه · ومن هنا فان اجابته تكشف عن مدى قوة أو ضعف وازعة الاخلاقى ومن ثم عن استعداداته الانتهازية والاستغلالية من الزاويتين الجنسية والعدوانية جميعا · وفى استخدام التات اللفظى مع العميان كثيرا ما نطلب الى الواحد منهم فى النهاية ان يكتب لنا فى سطور ما يفعله لو أصبح مبصرا لاسبوع واحد · ومهما يكن الأمر من أمر فليست العبرة بجمع مادة كثيرة وانمـــا باســـتخلاص خير ما يمكن استخلاصه من المادة المتاحة لنا ·

كلمات عن بعض :

الاختبارات الاسقاطية الشهيرة :

١ - اختبار تداعي الكلمات :

تعد هذه الطريقة أول طريقة اسقاطية استخدمها البحاث · وربما يرجع هذا الى ماكان للارتباطات والنظرية الترابطية من أهمية فى علم نفس القرن التاسع عشر · ولقد قام يونج بمحاولة ليجعل من هذه الوسيلة طريقة منهجية تسمح بالكشف عن مواطن الصراع · وفى هذه الطريقة يطلب الكلينيكى الى الشخص ان يجيب على الكلمة المقترحة بأول كلمة ترد الى ذهنـــه ، فيسجل الكلينيكى الاجابة وزمن الرجع وبعض الملاحظات المتصلة بالسلوك الاجمالى للشخص · ولكن هذه الطريقة لاتستخدم فى الوقت الحاضر الا نادرا ، سيان

فى صورتها القديمة التى تستند الى قوائم من الكلمات المعدة من قبل او فى صورتها الحديثة حيث تقود الكلمة المعطاة للمفحوص الى كلمة يجيب بهـا فنقدمها اليه من جديد فتقود الى كلمة جديدة وهكذا على نحو ما يحدث فى تفسير الأحلام • فكلا الطريقتين قليل الفاعلية بالقياس الى الطرائق الأخرى المتاحة •

ويخطىء البعض ولاشك حين يتوهم بساطة الظاهرة هنــا ، فتدخل ميكانزمات الدفاع والمقاومة فى شتى صورها يبعد بها عن البساطة المزعومة، فحين تتلاحق الكلمات المقترحة بصورة سريعة يمكن للدفاعات أمام الكلمة الهامة ان تضطلع بتأجيل الاستجابة الحقيقية فيستجيب فى التو بكلمة حيادية بينما يستجيب بعد كلمتين او ثلاث كلمات ، بالكلمة التى اضطلعت المقاومة بتأجيلها • ومعنى هذا ان الاجابة الحقة لاتظهر أمام كلمتها وانما امام كلمة اخرى من الكلمات التالية • وثمة صور أخرى للمقاومة منهــا أن يجيب الشخص بكلمة مرادفة أو باسم النوع الذى تدخل الكلمة تحته أو بتعبير من التعبيرات الثقافية الشائعة وما الى ذلك من استجابات منطقية دفاعيــة • وهكذا تعتبر اختبارات تداعى الكلمات مسائلة تاريخية ليس غير •

٢ ـ اختبار اكمال الجمل واتمام القصص :

نقوم فى العادة بتقديم جملة ناقصة الى المفحوص ونطلب اليه ان يقوم باكمالها على النحو الذى نجده فى اختبار ساكس • وعادة ما تشتمل الجملة على كلمة هامة ضمن اطار موجه من قبيل « كنت اتمنى لو كان أبى ••• » ، « أشعر بالقلق عندما ••• » ، « يعترينى الشعور بالذنب اذا ••• » الخ • وكذلك الحال بالنسبة الى اتمام القصص عندما نقدم الى المفحوص عبارة تصلح بداية للعديد من القصص وذلك من قبيل « وكانت الشمس على وشك الغروب عندما انطلق الزورق بى وهى تجلس الى جانبى على صفحة النيل الهادئة ••• » ، « وأخيرا استطعت الحصول على العصا السحرية وأمسكت بهــا ••• » • وهذه الاختبارات وخصوصا فى صورة اتمــام القصص لا تختلف فى شىء عن اختبارات التات وان كانت أقل شمولا بالقياس اليه • انها تفيد فى الحصول على فكرة استطلاعية عن المفحوص بالاضــافة الى سهولة اندماجه فيها بحيث لا يتنبه الى الطابع المصطنع لموقف الاختبار • ومن

الأفضل تطبيقها عن طريق الكتابة ومن الممكن استخدامها بصورة جماعية ولكنها على اية حال تعد محدودة النتائج بالقياس الى التات ·

٣ - اختبار التوتوفون :

ابتدع سكنر عام ١٩٣٦ جهازا كالحاكى يخرج مقاطع صوتية ايقاعية مبهمة غير واضحة البنيان أو الدلالة · ولقد كان روزنزفايج أول من فكر فى استخدام هذا الجهاز كاختبار اسقاطى ، وذلك بأن يطلب الى الشخص ان يحكى ما يسمعه · وحيث ان الشخص لا يسمع كلمات محددة المعانى وانما مجرد مقاطع صوتية مبهمة فانه يسقط شخصيته من خلال ادراكه السمعى · فما يفهمه الشخص أو ما يتوهم انه سمعه ليس الا ما يريد ان يسمعه بل وأحيانا ما يخشى ان يسمعه (أنظر شهادة الشهود فى « سيكولوجية الاشاعة » - الترجمة العربية - مخيمر - الناشر سعيد رافت) · وفى وسعنا أن نستخدم صورا صوتية مبهمة فتكون بمثابة لوحات صوتية من الـ ت·أ·ت· ومن المنتظر أن يكون لمثل هذه الصور الصوتية أهمية كبرى فى المستقبل وذلك لما هنالك من صلة وثيقة بين المجالين الصوتى والانفعالى ·

وقد قامت بعض الاذاعات بعمل مسابقات تقوم على التأويل الصوتى بحيث تقدم لوحات صوتية وتطلب الى المستمعين تحديدا ما يسمعونه ، وكان مما يستلفت الانتباه مثلا أن توزعت تأويلات المستمعين بالنسبة الى احد الأصوات ما بين تأويل الصوت على أنه صوت زجاجة الشمبانيا وهى تفتح وتأويله على أنه صوت طلق نارى ينطلق من مسدس · ومن الحقائق المعروفة ان الأمهات عندما يتقدم بهن السن ويثقل سمعهن يسهل على الابناء ان يتبينو حقيقة ما يرغبنا فيه ويخجلنا من التصريح به وذلك عندما يسمعنا الكلمات التى ينطق بها الأبناء لا على النحو الذى هى عليه بل على النحو الذى يترجم عن رغباتهن · والنادرة الريفية المشهورة عن الأسرة الصماء تصور ذلك بشكل دقيق · فقد جلس الأب والأم والأبنة يتناولون الطعام وهم يتحدثون ، وقال الأب بأن المحصول فى هذا العام يكون على ما يرام فأجابته الزوجة « منذ متى اذهب معك لانتقى قماش ملابسى ؟ اشترى لى ما تريد كعادتك فانت تحسن الاختيار » وعندئذ قامت الابنة بالتعليق · فقالت « ليس لى من خيار ، زوجونى فى بحرى أو فى قبلى كما ترون فالأمر لكم » ·

٤ ـ اختبار لوحات السحب :

ابتدع شتيرن هذا الاختبار ليتجنب بعض أوجه القصور التي يأخذها على الرورشاخ ، من قبيل ذلك ما تتسم به بقع الرورشاخ من تناظر كامل وما يطبعها من حدود قاطعة مما لا يتفق في رأيه مع ما ينبغي للاختبار الاسقاطي من بعد عن التحدد · ويرى مخيمر ان شتيرن على حق فيما يذهب اليه خاصة عندما ينصب تأويل الاختبار على المضمون · فبقدر ما يكون الاختبار غامضا غير محدد بعيدا عن المألوف ، تزداد قدرته الاسقاطية ومن هنا يخطيء البعض عندما يتوهم ضرورة تمصير لوحات التات بجعله مشاهدها مصرية · فالمصرى أمام صوره رجل غربى لا تكون دفاعاته على حذر بقدر ما تكون أمام صوره رجل مصرى يلبس نفس ملابسه بحيث يرى فيه نفسه ولكنه قهر التقنين يفرض نفسه على أوهام السيكومترين فلا يتصورون امكانية للعلم بغير تقنين ·

وفى اختبار لوحات السحب نقدم للمفحوص صورا لثلاث سحب ونطلب اليه وصف ما يراه فيها · ويميز شتيرن فى الاجابات بين ما هو منطقى نمطى وما هو حسى وما هو ابتكارى · ولكن اختبار لوحات السحب نادرا ما يستخدم الآن بل نادرا ما يستعين المعالج النفسى بالاختبارات الاسقاطية طالما يستطيع فى المقابلة الشخصية وعن طريق الأحلام ان يبلغ الى كل ما يريده من معطيات الأعماق ·

٥ ـ اختبار اللوحات الأربع :

يعد هذا الاختبار الذى ابتدعه « فان لينيب » تمهيدا لاختبار موراى · تمثل احدى اللوحات المكتب ، وتمثل الثانية غرفة النوم ، والثالثة جولة التنس والرابعة رجلا وحيدا فى الطريق يستند الى شيء · نطلب الى المفحوص ان يبتدع قصة واحدة عن كل هذه اللوحات · وتشير اللوحات الى أربعة مواقف اجتماعية محددة : الشخص عندما ينفرد بنفسه فى غرفة النوم ، وحين يجد نفسه وحيدا فى الطريق ، وحين يلعب الرياضة مع آخر ، وحين يعمل مع آخر · وليس هنا ترتيب بعينه للوحات ، أما التأويل فينصب أساسا على المضمون · ويستند الاختبار الى افتراض قيام الشخص بالتوحد مع البطل ، فيكشف بذلك عن مشكلات حياته الأساسية · وفى حالة ما يعجز

المفحوص عن تأليف قصة واحدة عن اللوحات الأربع ، نطلب اليه أن يبتدع قصة لكل لوحة ، فاذا ما فرغ من ذلك طلبنا اليه أن يقوم بالتأليف بين قصصه في قصة واحدة . وهى الاختبار نادرا ما يستخدم اليوم لقصوره بالقياس الى الثبات .

٦ ـ اختبار الرورشاخ :

تتلخص فكرة الرورشاخ فى استخدام بقع الحبر للكشف عن العمليـــات النفسية التى تميز شخصية الفرد الذى يقوم بادراكها . ولقد كان تأويل البقع يستخدم فى القديم للتنبؤ بالمستقبل مما نجد بعض مخلفاته فى تأويل رواسب القهوة والزاج الأبيض (الشبه الزفرة) . ولقد نبه بارتلت عام ١٩٠٦ الى وجود وصلة بين نوع الاجابة التى يقدمها الشخص وبين حياته العاطفية الخاصة .

ومن المعلوم أن رورشاخ قد انتهى الى لوحاته العشر بعد عشرة أعوام من التجريب الأعمى . ويستند هذا الاختبار أساسا الى تأويل الأســاليب الادراكية فلا يلعب تأويل المضمون الا دورا ثانويا . وعلى الرغم مما يطبع هذا الاختبار من اهتمام بحساب الدرجات فانه مع ذلك اختبار دينامى فى صميمه ، ينتهى بنا الى لوحة كلينيكية تشخيصية .

تعتبر هذه الاجابات بمثابة عينة لطريقة الشخص فى الاستجابة ازاء جملة من مواقف الحياة المختلفة . لقد كانت تأويلات رورشــــاخ كما قلنا تستهدف فى البداية التشخيص الفارق لمختلف صور العصاب ، فكان ينتهى الى تشخيص نوع العصاب عند الفرد . ونظرا لأن لوحات الاختبار لاتتيح تدخل الدفاعات فقد وفق الرورشاخ الى حد كبير فى تحقيق ما كان يستهدفه.

ومن الصحيح أن رورشاخ قد نحا بتفكيره منحى أقرب الى التنميمية منه الى الدينامية . ولعل هذا يرجع الى ماكان سائدا فى المانيا من دراســات تنميطية تستهدف تصنيف الشخصيات فى أنماط . فعلى سبيل المثال نجد أن تأويل الاجابات تأويلا يستند الى المنطقة يساير النزعة الشائعة عند علماء الأنماط والتى ترى فى الاجابات الاجمالية التى تنصب على البقعـــة كلها ما يشير الى الميل الى التجريد والتعميم ، بينما تفضيل الأجزاء يشير الى

النزعات العملية اما الاغراق فى التفاصيل يشير الى عدم السوية · وكذلك فكرة التقابل ما بين الشكل واللون فانها من الأفكار الشائعة فى علم النفس الألمانى حيث يرتبط اللون بالانبساطية الاندفاعية والهستيرية بينما الشكل يرتبط بالجوانية العقلانية والقهرية · أما الاجابات التى تستند الى الحركة (الكنيستيزيا) فتشير الى ثراء الامكانيات الداخلية والاستعدادات الطبيعية الجوانيه · ولكن مهما يكن من أمر هذه النظرات التنميطية والاعتماد على الأرقام والاحصاء ، فان الاختبار يستند فى أساسه الى الديناميـــة بمعنى الأساليب الادراكية التى يستجيب بها الشخص ازاء مواقف الحياة · ويتضح ذلك من ان الاختبار لا ينتهى الى مجرد تحديد نمط للشخص لا ولا تحديد مكانه بالنسبة الى الآخرين وانما يقدم عنه لوحة كلينيكية تشخيصية ·

تتباين طريقة استخدام هذا الاختبار على الرغم من محاولات عديدة لتوحيدها الى حد أن الرموز المستخدمة مازالت تختلف من بلد الى آخر ، فبينما يفضل البعض انيستلقى الشخص أثناء اجابته نجد البعض الآخر يفضل ان يجلس الشخص فى مواجهته ويفضل البعض الثالث أن يكون الى الوراء من الشخص ليستطيع النظر الى اللوحة فى اســـتبعاد للخجل أو الحرج · وتحرص الغالبية على استبعاد العوامل الدخيلة التى قد تؤثر على طبيعـــة الاجابات وذلك كالأصوات أو الاضاءة غير العادية ، وأما قياس زمن الرجع فيتم بدقة بالنسبة الى كل اجابة وكل لوحة ·

اما صعوبة افهـــام الشخص ما ينبغى أن يفعله تدفع البعض الى التضحية باللوحة الأولى ليتخذها مثالا يشرح عليه · ولكن هذا يؤثر على التأويل فى تتابعه التلقائى الذى أراده له رورشاخ · ومن هنا فان الغالبية تتبع طريقة كلوبفير فى التوضيح بعبارة كهذه : « كثير من الناس يرى فى هذه البقعة كثرة من الأشياء فمــــاذا ترى أنت ؟ » · وينبغى أن يحرص الاخصائى على ان يتبع طريقة موحدة بعينها فى تقديم اللوحات الى الشخص فلا يقدم الواحدة مثلا معدولة والأخرى مقلوبة وان كان عليه ان يترك الحرية للشخص فى ان يغير من اتجاه اللوحة كما يشاء ·

وثمة مشكلة تتصل بصعوبة تحديد الشكل بمعنى تحديد المنطقة التى ينصب عليها ادراك الشكل · فلو طلبنا الى الشخص ان يحدد المنطقة فى نهاية كل لوحة فان ذلك سيؤثر ولاشك على تتابع الاجابات · أما اذا طلبنا

اليه ذلك فى نهاية الاختبار فستعرض تحديداته لتأثير الذاكرة والنسيان • ومع هذا فالغالبية تفضل اتباع هذا الحل الأخير • أما فيما يتصل بالأشكال الشائعة فان البعض لا يتحرج من أن يوحى الى الشخص بها حتى يتبين ما ان كان الشخص قد رآها وأحجم عن الادلاء بها لتفاهتها وظهورها الواضح أو أنه حقا لم ينتبه اليها •

ويتم تسجيل الاجابات باستخدام الرموز • فلو أدرك الشخص البقعة كلها فى لجملها سجلنا بالانجليزية W أو بالفرنسية G ولو انصب ادراكه على جزء كبير سجلنا D • أما فى حالة جزء تفصيلى أو قليل الأهمية فنسجل DD • وهذه الحالة الأخيرة يمكن أن تتخذ صورا مختلفة فلو أدرك الشخص أرضية اللوحة على أنها الشكل سجلنا dd—bl الى غير ذلك •

العوامل المحددة للادراك :

ونعنى الشكل والحركة واللون والتظليل •

(أ) **الشكل** : ويمكن أن يكون هو العامل الذى حدا بالشخص الى ان يدرك ما أدركه • فحين تبدو البقعة مطابقة للاجابة « خفاش مثلا » نسجل F+ • وحين تكون عكس ذلك نسجل F— وحين تكون بين بين نسجل F ± • وازدياد نسبة الأشكال الحسنة F+ يترجم عن ارتفاع الامكانيات العقلية للشخص• والاجابة التى يقدمها الشخص اما ان تكون شائعة أو فريدة تتسم بالأصالة • ويتم ذلك بالرجوع الى النتائج الاحصائية •

(ب) **الحركة** : فاذا رأى الشخص الشكل فى حالة حركة سجلنا بالاضافة الى ما سبق K « كنستزيا » ثم الرمز الخاص بالانسان H أو الحيوا A أو الأشياء O تبعا للمضمون •

(جـ) **اللون** : وهنا نسجل مدى ما اضطلع به اللون فى تحديد الادراك الذى أدركه الشخص وذلك بالقياس الى عامل الشكل • فلو انفرد اللون بتحديد الادراك سجلنا C ولو تغلب اللون سجلنا CF ولو تغلب

الشكل سجلنا FC وتعد الصلة بين اللون والحركة غاية فى الأهمية.
فحسبما تكون هذه الصلة يتحدد ما يسمى نمط حياة الشخص .

(د) **التظليل** : وقد اضيفت بعد رورشاخ ويتصل بالفاتح والقاتم أى بتباين الدرجات اللونية من الرمادية الى الأسود .

ومن الاهمية بمكان أن نلاحظ السلوك الاجمالى للشخص وما يصدر عنه من امارات التعجب او الصدمة أو الدهشة أو تعليقات أو استغراق نسبى فى الصمت أو رفض اللوحة . كذلك فان عدد الاجابات التى يقدمها الشخص لها اهمية فى هذا الاختبار . فهى تتراوح عند الشخص العادى فى اللوحات كلها ما بين عشرين وثلاثين اجابة ، وقد تنخفض الى خمس عشرة ، وقد ترتفع الى السبعين . وتشير كثرة الاجابات عندما تكون حسنة الى الذكاء والخيال . اما حين تكون كثيرة وفقيرة فغالبا ما تكون فى حالات الفصام ، وزمن الرجع عند الشخص العادى هو حوالى نصف دقيقة من الرؤية الى الاجابة . وهناك نسبة شبه ثابتة تتوزع بينها الاجابات من حيث المنطقة عند الشخص العادى . ففى ثلاثين اجابة عادة ما نجد حوالى سبع اجابات تنصب على البقعة فى اجمالها أى G ونجد عشرين اجابة تنصب على الاجزاء D وثلاث اجابات على التفاصيل dd . وعادة ما تشير كثرة الاجابات من النوع الأخير الى وجود القلق او التأخر العقلى .

فاذا ما انتهينا من تسجيل الاجابات وافراغها فى « البروتوكول » مستخدمين الرموز الاصطلاحية ، ومبينين العوامل المحددة ، فاننا نشرع فى عملية التفسير وذلك بتعيين نمط الحياة عند الفرد . يتحدد هذا النمط تبعا للنسبة ما بين عدد الاجابات التى ترجع الى عامل الحركة وعدد الاجابات التى ترجع الى اللون ، اذ تشير الأولى الى حياة باطنية ثرية تتسم بالروية بينما تشير الثانية الى الانفعالية التى تتسم بالاندفاعية . وهنالك أربع أنماط :

(أ) **النمط المنبسط** : عندما تكون اجابات اللون أكثر من اجابات الحركة .
(ب) **والنمط الباطنى** : عندما تكون اجابات الحركة أكثر من اجابات اللون .
(ج) **والنمط الفقير** : عندما تتساوى هذه الاجابات وتلك فى ضآلة عددها .
(د) **والنمط الثرى** : عندما تتساوى هذه الاجابات وتلك ولكن فى ثراء وكثرة .

واختبار الرورشاخ وان لم يكن اختبار ذكاء الا أنه يستطيع أن يقدم لنا صورة كلينيكية لا رقمية عن ذكاء الشخص ٠ فالاجابات الاجمالية تكشف عن الذكاء النظرى بينما تشير الجزئية الى الذكاء العملى ٠ هذا وتكشف الاجابات ذات الأشكال الحسنة F + ، أى هذه التى تنطبق تماما على البقعة ، عن ارتفاع الذكاء ٠ كذلك يكشف عنه تواتر الترتيب لمناطق الاجابات، بمعنى أن يبدأ الشخص باجابات اجمالية وينتقل الى الجزئيـــة وينتهى بالتفصيلية فى كل لوحة ، كذلك يكشف تعدد اجابات الحركة عن ارتفـــاع مستوى الذكاء عند الشخص ٠

وفى الحالات التى يقلب فيها الشخص اللوحة بصورة منتظمة بحيث يبدأ دائما بتأويل مناطقها السفلية فكثيرا ما يكشف ذلك عن ميـــول الى الجنسية المثلية ٠

وحين تكثر التأويلات ذات الطابع العلمى أو المدرسى فمن المحتمل أن يكون ذلك من الشخص محاولة لدفع مشاعر النقص أو رغبة منـــه فى الاستعراض ٠

أما الاجابات التشريحية الطابع فقد تصدر فى حالة اهتمام الشخص بصحته ٠ وينبغى أن نتنبه الى أسلوب اللغة عند الشخص وما قد ينطوى عليه من تعبيرات التأكيد أو الشك أو التعجب أو التعليق فى غير موضعه ٠

ومهما يكن من أمر فان تطبيق هذا الاختبار على نحو مفيد انما يتطلب اخصائيا قضى السنوات فى تعلمه وممارسته ٠ ولقد حاول البعض تبسيط هذا الاختبار باستخدامه كاختبار جمعى ، فتظهر اللوحة على شاشة العرض بينما توزع على الأشخاص كراسات ذات رسوم تخطيطية يحددون عليهـــا اجاباتهم ٠ ولكن هذه المحاولة تكشفت عن قصورها ٠

وأخيرا نضيف بأن الرورشاخ يشتمل على عشرة لوحات تشتمل كل لوحة منها على بقعة من الحبر تتسم بالسيمترية ، تماما كما يفعل الأطفال عندما يقومون بتطبيق ورقة الى أربع بحيث تنطبع بقع الحبر المنثورة على ربع فيها على بقية الأرباع ٠ وغالبيـــة هذه البقع تتراوح ما بين الأبيض والأسود فيما عدا بعض اللوحات التى تشتمل على اللون الأحمر ٠ وينبغى أن

نذكر القارىء بأن الرورشاخ أداة تشخيصية فعالة اذا فهمنا من التشخيص مجرد الصاق لافتة بالحالة ، بينما يكشف الرورشاخ عن قصـــوره عندما نفهم التشخيص بمعناه الملىء الذى يحتم على الكلينيكى ان يبلغ الى الانتظام الفريد الذى يتجسد عليه المرض فى هذه الحالة بالذات ٠

٧ ـ اختبار التات : (ادراك الثيمات) (١)

ابتدع موراى ومرجان هذا الاختبــــار عام ١٩٣٥ ٠ وهو يتألف من ثلاثين لوحة تشتمل كل واحدة فى الغالب على منظر به شخص أو جمـــلة أشخاص فى مواقف غير محددة مما يسمح بادراكها على أنحــاء مختلفة وبينها لوحة بيضاء ٠ بعض هذه اللوحات خاص بجميع الذكور ويحمـــل الرمز BM « ص٠ر » ، وبعضها الآخر خاص بالذكور فيما فوق ١٤ سنة ويحمل الرمز M « ر » بينما بعضها الثالث خاص بالذكور فيما تحت ١٤ سنة ويحمل الرمز B « ص » ٠ وهناك لوحات خاصة بجميع الاناث وتحمل الرمز GF « ب ٠ ا » ، بينما توجد لوحات خاصــــة بالاناث فوق ١٤ سنة وتحمل الرمز F « أ » ولوحات خاصة بالاناث تحت ١٤ سنة وتحمل الرمز G « ب » ٠ ويرى مخيمر عدم ضرورة الالتـزام بهذه التحديدات ، فكثيرا ما يتوحد الرجال ببطلات القصص وتتوحد النساء بأبطال القصص ٠ فليست العبرة فى الذكورة والأنوثة بالاساس التشريحى بل بغلبه السادية أو المازوشية ٠

نطلب الى الشخص أن يبتدع قصة عن منظر اللوحة ونفهمه أن القصة لابد وان تنطوى على ماضى نتبين منه ما حدث حتى أصبح الموقف على ما هو عليه الآن . كما لابد وأن تنطوى القصة على نهاية توضح ما ستنتهى اليــه الأحداث ٠ نعطى اللوحات العشرين على جلستين تستمر كل منهـــا ســاعة ولا يحدد عادة وقت لكل لوحة ، ولكننا نحاول عندما يقف الشخص عنـــد مجرد وصف اللوحة أن نستثيره بأسئلة من قبيل « كيف ؟ » ، و « متى ؟ » ،

---

(١) الثيما : تعنى الموضوع المحورى الذى تدور حوله الاحداث ٠ ومن هنا يحسن تسمية التات باختبار ادراك الثيمات ، فتلك تسمية أدق من الادراك الداخلى للموضوع ومن اختبار تفهم الموضوع ٠

و « ما السبب ؟ » ، « ثم ماذا ؟ » ٠٠ الخ أما فيما يتصل باللوحة البيضاء فنطلب الى الشخص أن يتخيل بنفسه المنظر ثم يبتدع بعد ذلك قصة عنه ٠ وينبغى فى رأى مخيمر أن تكون الاجابة كتابة لما ينطرى عليه الشطب والخطأ والتصحيح من دلالة ! كما يستحسن ان أمكن أن يعطى المفحوص لكل قصة العنوان الذى يراه ٠ وقد سبق أن رأينا ما يشير به مخيمر من ضرورة تكيف الكلينيكى مع كل حالة وان كان يفضل فى العادة أن تبدأ القصص باللوحتين (١٠ ، ١٣) لتبين اتجاه المفحوص من العاطفية والانسالية ثم يأتى دور اللوحة (واحد) لتبين موقفه من الخصاء وبعد ذلك تأتى اللوحتان (٦) و (٧) تبعا لجنس المفحوص لتبين موقفه من الأوديبية ، مما يعتبر أساسيا لتفسير اللوحات السابقة واللاحقة ٠ يكون بعد ذلك الانتقال الى اللوحة (٨ص ر) لتبين العدوانية ثم يأتى دور اللوحتين (٩) ،(١٢) تبعا لجنس المفحوص لتبين موقفه من الجنسية المثلية ٠ وتبعا للحاجة يمكن أن ننتقل الى اللوحتين (١١) ، (١٨ ص ٠ ر) لتبين موقف المفحوص من القلق ثم الى اللوحة (١٢ ص،ب) لتبين موقفه من التفاؤل واخيرا تكون اللوحة (١٥) التى يمكن أن تحدد موقفه من التشاؤم ٠

وتبعا للحالة أيضا يمكن الاستعانة بطريقة اتمام القصص بحيث نعطى للمفحوص عبارة تنطوى على اطار موجه ويكون عليه بعد ذلك اتمام القصة٠ وقد استخدم مخيمر التات اللفظى مع العميان ثم مع المبصرين فكشف عن فاعلية لا تختلف بحال عما يمكن أن يكون عليه الأمر عند استخدام لوحات التات ٠

وينبغى تسجيل ملاحظات عن السلوك الاجمالى للشخص، وعن مناسبات التردد أو الصمت وعلامات الدهشة والتعليقات المختلفة ٠ ويمكن بعد الانتهاء من الاختبار أن نستوضح الشخص ما نرى ضرورة استيضاحه من نقاط ٠ ولا بد لفهم الاجابات وتشخيص الحالة من أن نطلب الى الشخص الكثير من المعطيات عن تاريخ حياته ٠ وينبغى أن ننظر الى الاجابات وسلوك الشخص بحسبانهما وحدة كلية ٠ وينبغى التنبه الى أن التات اختبار كلينيكى بمعنى الكلمة يستند فى تأويله الى مفاهيم السيكودينامية بعيدا كل البعد عن حساب التواترات الذى تقوم عليه استمارة بيلاك ٠ ومن هنا فان تأويل قصص التات يحتاج فى العادة كى كلينيكى متمرس لا يشرع فى التأويل الا بعد أن يفرغ

من تاريخ الحالة ومن قراءة لكل القصص التى كتبها المفحـــوص • فكثيرا ما تنطوى قصة لاحقة على مفتاح التأويل الدقيق لقصة سابقة ، وكذلك الحال بالنسبة الى معطيات تاريخ الحياة وما يتمخض عنه تفسير بعض أحلامه •

مرة أخرى ينبغى أن ننبه الى ضرورة النظر الى الاجابة فى وحدتها الكلية وفى صلتها بنوعية مجالات الحياة • صحيح ان النهاية التى تغلب على قصص الشخص تشير الى ما يغلب عليه من تفاؤل أو تشاؤم ، ولكن لا ينبغى أن نقع فى الخطأ الذى يتورط فيه البعض من أصحاب العقلية السيكومترية عندما يحاولون حساب متوسط التفاؤل أو التشاؤم • فليس لهذا الاتجاه أو ذاك من قيمة الا بالنسبة لنوعية الموقف والمجالات التى يتكشف فيها •

وصحيح أن تأويلهذا الاختبار يستند أساسا كما رأينا الى المضمونومن هنا كان اهتمام موراى بالكشف عن التوحداتواهتمام تومكينز بتبين اتجاهات المفحوص النوعية من مجالات الحياة المختلفة • ولكن ليس معنى هذا أن نغفل تأويل الأسلوب أو الصياغة •فانتقاء الشخص لألفاظه وتكرار بعض التعبيرات وطريقته فى صياغة الجمل كلها تكشف عن خصائص هامة فى شخصيته ، على النحو الذى سبقت الاشارة اليه •

واذا كنا قد رأينا من قبل قصور الرورشاخ بالنسبة الى امكانية التات فى البلوغ بنا الى التشخيص بالمعنى الملىء للكلمة ، فقد مضى مخيمر خطوة الى الأمام باشرافه على مجموعة من الرسائل التى تستهدف تبين مدى فاعلية التات فى تشخيص الأعصبة والأذهنة المختلفة (١) • ويمكن القول بأن اختبار التات هو أعظم الاختبارات الاسقاطية فاعلية واقتـــدارا على التشخيص شريطة أن يقوم بتأويله كلينيكى متمرس •

---

(١) أنظر رسالة الدكتوراه ـ محمد الطيب ـ كلية التربية ـ جامعة طنطا ، رسالة الماجستير ـ على الخطيب ـ كلية التربية ـ جامعة طنطا ، رسالة الماجستير المغاورى ـ كلية التربية ـ جامعة طنطا ، رسالة الماجستير ـ على أبو زيد ـ كلية التربية ـ جامعة المنصورة •

القــات اللفظى

الســلسلة الأولى :

١ ـ صبى صغير جالس أمام منضدة شعره متهدل على وجهه ورأســه مستندة الى ذراعه وكوعه على المنضدة · توجد على المنضــدة أمامه كمنجة وقوس · وتحت الكمنجة والقوس كراس موسيقى مفتوح · عينــه اليمنى تكاد تكون مقفلة واليسرى مفتوحة نصف فتحة ·

٢ ـ مشهد فى الريف · فى المستوى الأمامى والى اليسار امرأة شــابة فى يدها كتب · يبدو أنها تتطلع بعيدا ، والى اليمين تستند فلاحــة الى شجرة وفى المستوى الخلفى رجل عارى الصدر ، يبدو وكــأنه يعمل فى الحقل·ويرى حصان·رأس الرجل ورأس الحصان ينظران الى الخلف · وفى القاع بعض المنازل والتلال ·

٣ ـ ص·ر ـ شخص صغير السن منحن على نفسه (أو على الأقل شخص مذكر صغير السن) يستند رأسه على ذراعه الأيمن ، وهو منكفىء على سرير ، لا يرى وجهه · والى يســار السرير وعلى الأرض يرى شىء لا يمكن تبينه يوضح من الممكن أن يكون مسدسا ·

٣ ـ ب ـ أ ـ باب مغلق وأمام الباب امرأة شابة · انها واقفة ورأســها مائل الى الأمام تغطى وجهها بيدها اليمنى · ويدها اليسرى تستند أفقية الى الباب ورأسها مستند الى هذه الذراع ·

٤ ـ فى المستوى الأمامى امرأة ورجل · تنظر المرأة الى الرجل ولكن الرجل مشيح عنها بوجهه · قميصه مفتوح · المرأة تحتضنه بذراعيها ويدها اليسرى على كفه الأيمن · وفى القاع يبدو شىء يشبه النافذة · وفى أقصى اليسار تبدو امرأة جالسة وساقها فوق الأخرى ، ملابسها لا تكاد تسترها · نهداها واضحان تماما من وراء الملابس · والى أعلى مساحة بيضاء يمكن أن تكون ورقة مطبوعة ·

٥ ـ حجرة حديثة خافتة الاضاءة · منضدة عليها مصباح والى جــانب

المصباح اناء زهور · رف بالحائط عليه كتب · دولاب غير مرتفـــع عليه بعض الكتب ، والى اليسار باب مفتوح · امرأة متوسطة العمر يبدو أنها قد فتحت لتوها الباب ويدها ما تزال ممسكة بمقبضه · انها تميل قليلا الى الأمام تنظر داخل الحجرة ·

٦ ـ ص·ر ـ امرأة متقـــــدمة بعض الشيء فى السن رمادية الشعر فى حجرة · انها واقفة على مقربة من النافذة تنظر خلالها ونظراتها مثبتة الى بعيد · يقف وراءها رجل أصغر منها سنا ورأسه تجاهك · انه يرتدى معطفا ويمسك قبعته بيديه المتدلية الى أسفل ، وهو ينظر الى بعيـــد ·

٦ ـ ب · ا ـ امرأة صغيرة السن نسبيا جالسة فى ركن أريكة وأمامها منضدة · تلتفت برأسها الى رجل خلفها والى يسارها · والرجل منحن نحوها · يبدو أنها تتكىء بيدها اليسرى على ظهر الأريكة · فى فـم الرجل « بيبة » ونظراته مركزة على المرأة ·

٧ ـ ص · ر ـ رجل متقدم نسبيا فى السن رمادى الشعر وشاربه رمادى اللون يخفض رأسه ناظرا الى رجل أصغر سنا ومحملق الى بعيد ·

٧ ـ ب · أ ـ امرأة متوسطة العمر جالسة على أريكة · وعلى مقـــربة منها بنتصغيرة جالسة فيما يبدو فوق ظهر مقعد وثير قريب من الأريكة ـ الذراع الأيمن للمرأة مستند على المنضدة · وفى يدها كتاب تنظر فيه ويبدو أنها تقرأه للبنت · ولكن نظرات البنت تبعد عن المرأة محملقة الى بعيد · والبنت ممسكة بدمية فى يديها ·

٨ ـ ص · ر ـ الى اليمين فى المستوى الأمامى رجل شاب يتجه بنظـره اليك · وعن يساره بندقية تظهر منها الماسورة · وفى القاع رجل على نقالة وصدره عار · وخلف هذا يقف رجلان يمسك أحدهما بآلة فى يده، ويبدو كأنه يجرى عملية للرجل الملقى على النقالة · والى جانبه رجل يبدو وكأنه ينظر اليه · وما من شىء يظهر بصورة واضحة ·

٨ ـ ب · ا ـ امرأة شابة جالسة على مقعد وتستند بكوعها على ظهر المقعد وذقنها مستندة الى ذراعها الأيمن وتنظر الى بعيد ·

٩ ـ ص٠ر ـ ثلاثة رجال يرقدون على الحشيش يبدو أنهم نائمون وعلى رؤوسهم قبعاتهم ٠ يسند أحدهم رأسه فيما يبدو على جسم الآخر ٠ وأمامهم على الحشيش يجلس رجل رابع لايرى غير ظهره ٠

٩ ـ ب ٠ أ ـ جذع شجرة ـ تقف أمامه امرأة شابة فى ثوب المساء وعلى وعلى ما يبدو ترفع « الجونلة » وكانها تجرى مبتعدة ٠ ومن وراء الشجرة تنظر امرأة ثانية شابة ممسكة بكتاب أو كراسة فى يدها اليسرى وبشيء يمكن أن يكون حقيبة أو غير ذلك ٠

١٠ ـ ظلان غير محددين يبدو انهما لرجل وامرأة فلا يرى فى الحقيقة غير الرأسين ويبدو أن أحدهما يسند رأسه على كتف الآخر ويلمس بيده الكتف الثانى ٠ وكلا الشخصين مغلق العينين ٠

الســـلسلة الثـانية :

١١ ـ منظر يشبه حكاية الجنيات ٠ صخور وأشجار ٠ كل شيء قاتم غيـر واضح ٠ ووسط الأرض الصخرية يوجد طريق ضيق وفى القاع صخرة أو حائط ـ ومن الصخرة حيوان خرافى يمد رأسه وصدره ٠ ويوجـد حيوان مماثل فى مستوى الأرض ٠

١٢ ـ ر ـ رجل شاب ممدد على أريكة عيناه مقفلتان ٠ رجل آخر واقف على مقربة من الأريكة وركبته مستندة الى حافة الأريكة، انه مائل قليلا على الشخص الراقد وذراعه الأيمن ممتدة قليلاً بحيث تبدو يده على مسافة ما من رأس الشخص الراقد وكأنه ينومه مغناطيسيا ٠

١٢ ـ أ ـ فى المستوى الأمامى ظل لامرأة شابة رأسها اليك نظراتها غيـر محددة تحملق الى بعيد ـ وخلفها امرأة متقدمة نسبيا فى السن وحول رأسها « ايشارب » ويدها اليمنى أمام فمها ٠ يبدو وجهها غير مستريح بعض الشيء ٠ تشيح بنظرها عن المرأة الشابة ٠

١٢ ـ ص ٠ ب ـ منظر طبيعى ٠ فى المستوى الأمامى شجرة مزهرة ٠ خلف

ذلك أشجار اخرى والأرض مغطاة بالحشائش · يبدو انه توجد بحيرة صغيرة أو « جدول ماء » وان لم يكن ذلك من المؤكد · وعلى الأرض قارب بغير مجاديف · ليس هنالك وجه بشرى ·

١٣ ـ ر·١ ـ انها ممدة فوق سرير أو أريكة · انها امرأة أو بالأحرى جسم امرأة · الصدر عارى النهدين وذراعها الأيمن يتدلى من فوق حافة السرير · ربما تكون جثة يقف أمامها رجل ووجهه فى اتجاهك وذراعه الأيسر يتدلى الى جانب جسمه وذراعه الأيمن يخفى وجهه · فى الركن الأيمن منضدة عليها كتابان ومصباح ، وخلف المنضدة مقعد ·

١٣ ـ ص ـ كوخ خشبى · الباب مفتوح · صبى صغير جالس على عتبة الباب وكوعاه على ركبتيه ورأسه مستندة الى يديه ·

١٣ ـب ـ يبدو المنظر وكأنه سلم حلزونى ·بنت صغيرة تمسك بحاجز السلم وهى تصعد ·

١٤ ـ كل شىء مظلم غير أن نافذة تبرز فى هذه الظلمة · وعلى حافة النافذة يجلس شخص يمسك بيده اليمنى اطار النافذة ·

١٥ ـ منظر يغلب عليه الطابع الهندسى · أشكال يبدو أنها شواهد قبـــور وصلبان · فى الوسط وفى المستوى الأمامى وجه رجل نحيل وغائر الخدين · ذراعاه متصلبان الى أسفل ويده على الأخرى ·

١٦ ـ صورة بيضاء · يتحتم على الشخص أن يبتدع المنظر قبل أن يبتدع عنه قصـــة ·

١٧ ـ ص ·ر ـ حائط (أو جانب من الحائط) يتدلى أمامه حبل ، ويتعلق بهذا الحبل رجل عار يصعد أو يهبط على الحبل ·

١٧ ـ ب ـ ١ ـ منظر يغلب عليه الطابع الهندسى ولا يسهل تبين التفاصيل بصفة اكيدة · ليس من شك فى أن هنالك كوبرى فوق مجرى مائى · وعلى الكوبرى امرأة فى وضع يوحى بأنها راكبة دراجة · فالدراجة

غير ظاهرة · وتحت الكوبرى منزل عند حافة الماء ومركب · عدد من الأشخاص المحملين بالزكائب فى طريقهم من المركب الى المنزل· وأمام المنزل رجل وكأنه يشرف عليهم · الكوبرى وراءه منزل آخر أو كوخ · وفى أعلى المنظر قرص قاتم تنبعث منه أشعة ·

١٨ — ص · ر — قاع مظلم — وفى المستوى الأمامى رجل معطفه وسترته مفتوحتان ورأسه ملتفت الى اليمين بحيث يظهر الرأس جانبيا · عيناه مقفلتان، ترى ثلاثة ايدى الواحدة فوق ذراعه الأيمن والثانية فوق كتفه الأيمن والثالثة فوق ذراعه الأيسر ·

١٨ — ب · أ — سلم يستند اليه شخص ، يصعب تبين ما ان كان رجلا أو أمرأة وأمام هذا الشخص امرأة تحيطه بذراعيها (وفى الحقيقة لانرى غير اليد اليسرى والابهام مستند على السلم) ·

١٩ — منظر يغلب عليه الطابع الهندسى · ويصعب أن نتبين ما يمثله · ومن الممكن أن تكون سحبا أو كتلا من الجليد ، فى المستوى الأمامى شيء يمكن أن يكون كوخا ·

٢٠ — فانوس يستند عليه شخص ولا نستطيع أن نتبين ما ان كان رجلا أو امرأة · فالوجه غارق فى الظلمة · بعض الأشجار تظهر من خلف الشجيرات · ما من شيء واضح ومتميز ·

ملاحظة :

يشير الحرف « ص » الى أن لوحة خاصة بالصبية ، والحرف « ر » الى أنها خاصة بالرجال ، والحرف «ب» الى البنات ، والحرف « أ » الى الاناث ·

فى الهفـوات والأفعال الاعراضية والأحـلام

١ – الهفوات والأفعـال الاعراضية :

لا صدفة ولا عشـوائية بل حتمية نفسية ٠

تشتمل الهفوات والأفعال الاعراضية على :

(أ) زلات اللسان والقـلم ٠

(ب) أخطاء القراءة وأخطاء السمع ٠

(حـ) النسيان المؤقت لاسماء الأشخاص والاعلام والنسـيان المؤقت للوعود والأعمال التى كان من المفروض تنفيذها ٠

(د) الاضاعة الوقتية لشيء من الأشياء ، وبعض التصرفات غير الموفقة التى تنم فى ظاهرها عن عدم المهارة ٠

وتسمى هذه الظواهر بالهفوات لأنها تنطوى على هفوة غير مقصودة من الناحية الشعورية ويسمى بعضها الآخر بالأفعال الاعراضية حيث تكون هناك أفعال غير مقصودة أيضا من الناحية الشعورية ولكن لها دلالة الأعراض المرضية من حيث انها تمثل محصلة للرغبة المكبوتة او المقموعة ولدفاعات الأنا وعادة ما تعتبر الهفوات والأفعال الاعراضية شأنها شأن الأحلام بمثـابة طريق سلطانى يتيح لنا اطلاله على أعماق الفرد اللاشعورية ٠

والتحليل النفسى لا ينكر دور العوامل التى يعتبرها الفهم الشـائع مسئولة عن هذه الظواهر ، كالتعب الشديد وشرود الذهن والتهيج الانفعالى والخواص الصوتية للالفاظ وما الى ذلك ، ولكنه يعتبرها مجرد عـوامل مساعدة تتيح للحفزات المكبـوتة أو المقموعة أن تفلت من هيمنة الرقابة ٠ والتحليل النفسى فى ذلك لا يختلف فى الواقع عن حدس النساء والفهم الشعبى الشائع ٠ فأين الحبيبة التى تغفر لحبيبها وهى ناعسة بين أحضانه أن يزل لسانه فيتحدث اليها على أنها فتاة أخرى ، بل أين الخطيبة التى تغفر لخطيبها بحجة انشغاله بالعمل أن ينسى موعد اللقاء بينهما ٠

وأين النساء اللائى لا يتشاءمن عندما تفقد الخطيبة خاتم خطبتها وأين وأين ٠٠ الخ ٠

كل هذا الذى أتى به التحليل النفسى ليس بجديد على الناس ٠ فعندما يرتبك الشخص لسبب أو آخر فى مناقشاته العنيفة كثيرا ما يزل لسانه فينطلق بنفس ما يحاول أن ينكره بالألفاظ ٠ هنا تنطلق ألسنة الناس بعبارات من هذا القبيل « والنبى تسمع نفسك ٠٠ انت مش عارف تكدب ٠٠ هو أنت اللى قايلها واللا أنا ٠٠ كلمة الحق طلعت وكفاية الماضة » ٠ والمرأة عندما ينس خطيبها موعد اللقاء بينهما ، غالبا ما ينطلق لسانها بعبارات من هذا القبيل « طبعا احنا قدمنا وبقينا مش على البال ٠٠ ، اللى واخد عقلك يتهنى به ٠٠ جايبينى تعمل بى ايه ، روح لها وخليك صريح ٠٠ الخ » وفى هذا كله ما يشير الى الفهم الشعبى لدلالة الهفوات والأفعال الاعراضية ٠

ومنذ وقت طويل لاحظ الفيلسوف شوبنهاور أن التجار الذين يخطئون فى جمع المبيعات غالبا ما يخطئون لصالحهم على الرغم مما يتسمون به من صلاح وتقوى ، مما يرجع الى رغبتهم اللاشعورية فى الثراء السريع ٠ وكل ما أضافه التحليل النفسى على مثل هذه الحقيقة ينحصر فى أن التاجر يمكن أن يخطىء فى جمع المبيعات لحساب الزبون وذلك عنـــدما تكون لديه أحاسيس ذنب لا شعورية تدفعه الى عقوبة الذات أو عندما يكون الزبون يلقى كل اعجـاب فى أعماق التاجر بحيث ترغب هذه الأعماق فى تقديم كل المشتريات بل واكثر منها هدية للزبون الساحر الحسن ٠ وفى هذه الحالة الأخيرة يعطى التاجر للزبون المشتريات التى طلبها وبقية عشرة جنيهات مع أن الورقة التى دفعهـا الزبون جنيه واحد ٠

يذهب التحليل النفسى الآن نشاط الأنا فى مثل هذه الحالات انما يختل بتأثير دوافع عميقة وقوية لدى الشخص ٠ وهذه الدوافع يمكن أن تكـــون شعورية أو قبل ـ شعورية يتعرف عليها الشخص بسهولة كما يمكن أيضـا أن تكون لا شعورية لا تقبلها الأنا وترفضها بكل شدة ٠ وعادة ما يدخل تفسير الهفوات والأفعال الاعراضية بصورة مستمرة فى العلاج بالتحليل النفسى ، جنبا الى جنب مع تفسير الأحلام والمستدعيات الطليقة للمريض فى تتابعها على النحو الذى تتابعها على النحو الذى تتابعت عليه ٠ ففى حالة مريض كان بشكل لا شعورى يحتال بحيث يستجلب لنفسه المصائب والكوارس وكل أشكال المعاناة ، قال فى الجلسة الأولى « انا والله عايز أموت واستريح ٠٠ أقصد أعيش واستريح » ٠ زلة لسان لم يكن يقصدها ولكنها تؤكد بشـــكل

قاطع رغبته العميقة فى أن يستريح بالموت .... من أحاسيس ذنب لا شعورية تملأ عليه بالتأكيد كل أعماقه . ولا يقتصر الأمر على الدوافع العميقة والمكبوتة بل يتخطاها الى الدوافع العارضة وغير المكبوتة مما يظهر فى كل نشاطات حياتنا اليومية . طالبة شديدة التدين تحرص على صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع . كانت صائمة وهى تقـــوم بترجمة نص من الانجليزية الى العربية واعترضتها الكلمة الانجليزية Tacitly فصارعت الى القـــاموس العصرى « لالياس » . وبعد لحظات كانت تقرأ المعانى العربية المكتوبة « ضمنا بسكوت » . ولكنها قرأت الكلمة الأخيرة بفتح الباء وتسكين السين مما يعنى « باسكوت » مما يعبر عن رغبتها القوية فى الافطار على الرغم من صيامها . وقد كان من المفروض عليها بالنظر الى الكلمة الأولى « ضمنا » أن تقرأ الكلمة الثانية بكسر الباء وضم السين مما يعنى « دون تصريح لفظى » .

وفى حالة أخرى كانت المحللة النفسية تشرح لمريضها كيف أن اعراضه المرضية (من عجز جنسى يعوقه عن الزواج من خطيبته ومن تصرفات غريبة ترغم زملاءه فى العمل على كراهيته ، ورؤساءه على عقوبتـــه) انمـــا هى محاولات للتكفير بعقوبة الذات عن أحاسيس الذنب العاتية والتى نشأت فى الطفولة . واستمرت أثناء الصبا والمراهقة والشباب نتيجة لاتصالاته الجنسية بشقيقاته ، ولكن المريض فى مقاومته راح يرفض فى عنف وعصابية تفسير المحللة وقال لها « كيف يكون ذلك وكل أعراضى المرضية ومتاعبى قد ظهـــرت بعد ذلك . أقصد قبل ذلك » . وزلة اللسان هنا قاطعة فى دلالتها ، فأعماقه تعترف بما تحاول كلاماته الشعورية أن تنكره بحيث يتاح له أن يستمر فى علاقاته المحارمية التى بدأها منذ طفولته .

مثال آخر ، ولكن الدافع فيه غير عميق وغير مكبوت . كانت الزوجة قد دعت الى العشاء زوجة زميل من زملاء زوجها لتحضر هى وزوجها الى العشاء . ولم يكن الزوج يستريح الى هذه المبادرة التى قامت بها زوجته لما كان يشاع عن هذا الزميل من أنه عميل مخابرات يتجسس على زملاءه — ولكن افلت الزمام واجتمع الكل على العشاء . وفى لحظات من الدعابة والمرح راح كل واحد من الحاضرين يقول أفضل ما يحبه من كلمات الأغانى المصرية. وجاء دور الزوج صاحب البيت وعبثا يحاول أن يتذكر شيئا من ثورة الشك التى يفضلها على كل الأغانى بل عبثا حاول أن يتذكر عنوان الأغنية . وكان

من الضرورى أن يقول شيئا ولكنه لم يجد فى رأسه الا تلك الكلمات من احدى الأغنيات لكوكب الشرق والتى استولت بشكل قهرى على رأسه منذ بداية الحفل الى نهايته . وكانت الكلمات من فيلم « سلامة » « خلينا بعيد ... بعيد أسلم » .

والأمثلة كثيرة تعج بها الحياة اليومية لكل الناس . فكثيرا ما تدخل الطالبات الى أستاذهن يسئلن أو يستوضحن شيئا من الأشياء . ويحـــدث أحيانا أن تخرج الواحدة من هن وقد نسيت بعض أشياؤها على مكتب أستاذها لتعود بعد قليل أو كثير تسترد ما نسيت . وهناك فارق هائل فى الدلالة بين أن تنس الطالبة « براية » أقلامها أو تنس حقيبتها او تنس قلمها الذى كانت تكتب به ، ففى كل حالة تختلف الدلالة . فهذه التي تنسى قلمها تكشف عن اتجاهاتها الذكرية بينما تكشف التى تنسى حقيبتها عن اتجاهاتها الانثوية ، أما التى تنسى « براية » أقلامها فانها تكشف عن انثوية عدوانية خاصية ، وما أكثر ما تقوله التصرفات البسيطة والأقوال التافهة ، ولكن لمن يستطيع أن يفهم .

مثال آخر ـ يرينا أن ما من شيء يرجع الى الصدفة او العشـــوائية سيدة فى الثلاثين من عمرها متزوجة ولديها أطفال وتبدو سعيدة فى حياتها. تتسم شخصيتها بالدماثة والاخلاص وبالعطاء الكريم الذى يبلغ حد الشهامة ومن هنا وعلى غير العادة بين النساء لها صديقتان منذ الطفولة يحرصـان دائما على اللقاء بها ويبادلانها أعظم الحب والاخلاص . كانت هذه السيدة كلما خلت بنفسها الى مكتبها تتسلى برسم بعض الخطوط . وكان الرسم لا يخرج أبدا عن أمرين . أحيانا ترسم نجمة سداسية وفي أحيان أخرى ترسم فرع شجرة غير كبير ثم تتسلى بأن تملأ بقية الصفحة كلها بأوراق الفــرع الصغير . ولم تكن تدرى سببا لذلك ، فالأمر مجرد تسلية وتضييع وقت ، ولكن لماذا ترسم هذين الرسمين ؟ .

كانت طالبة فى الدراسات العليا عند مخيمر فسعت اليه بعد ما كان شرحه للحتمية النفسية تسأله عن دلالة هذين الرسمين اللذين لا تخرج عنهما أبدا كما لا تمل من رسمهما . وسألها كيف ترسمين النجمة السداسية فأجابت بأن هذا أمر بسيط . انها ترسم مثلثا قاعدة الى أعلى ثم ترسم فوقه مثلثا آخر قاعدة الى أسفل فتكون النجهة السداسية . ولما كانت الدلالة الرمزية

للمثلث شيئا واضحا فقد اتضح أن هذا الرسم انما يعبر عن جنسيتها المثلية القوية ، فهى تصبو الى الاتصال الجنسى بامرأة أخرى · ولكن ما عساه أن يكون الدور الذى تفضله فى ممارستها المشتهاة للجنسية المثلثة ؟ أتراها تفضل الايجابية بحيث تلعب دور الرجل أم السلبية بحيث تلعب دور المرأة ؟

كانت الاجابة على هذا السؤال فى الرسم الثانى الذى يفرض نفسه عليها ولكن يستحسن هنا أن نشير الى فيلم أجنبى شهير عرفته القاهرة منذ عشرة سنوات وكان يسمى « المرأة والثعلب » ·

قصة الفيلم عن امرأة تقدم بها السن الى الأربعين وترفض الزواج على أى نحو ولكنها تعيش فى مزرعة تقوم على ادارتها مع فتاة فى العشرين تحظى بكل الحب · وفى وسط المزرعة تقريبا ينتصب ساق شجرة كبيرة لا هى مورقة بالغصون والاوراق ولا هى عديمة الحياة ، لم يكن هناك ما يكدر صفو الحياة المشتركة فى هذه المزرعة غير ثعلب ماكر يدأب على سرقة الدجاج وما من سبيل الى قتله أو تفاديه · وتمضى الأيام وتتعرف الشابة اليافعة على شاب جندى وتقوى الصلة بينهما ويعلم ما يزعجها من أمر الثعلب فيجاهد بكل قوته حتى يبلغ الى قتله · عندئذ تولع الفتاة الشابة ببطلها الجندى الشاب وتكثر اللقاءات بينهما ويتفقان على الزواج · كان ذلك بمثابة أعظم كارثة يمكن أن تنزل بالعانس صاحبة المزرعة · ودون أن يفهم أحد سبب لذلك يسقط ساق الشجرة الكبيرة متداعيا على الأرض وتنتهى بذلك قصة الفيلم· فما دور هذه الشجرة التى لم تكن لا هى بالمورقة ولا هى بالميتة ؟ وما معنى تداعيها واقعة على الأرض حتى نهاية هذه القصة ؟ ·

من البديهيات المعروفة فى التحليل النفسى أن البنت فى نموها النفس ـ جنسى تبدأ بالجنسية المثلية قبل أن تنتقل الى الجنسية الغيرية ·· ومن هنا ولع المراهقات بعضهن ببعض أو بمدرسة من مدرساتهن · والجنسية المثلية تعنى نوعا من تثبيت الطاقة الليبيدية على البظر الذى هو بالنسبة الى كل بنت صغيرة قضيبها الصغير · وعندما يكتب للبنت أن تنتقل من المثلية الى الغيرية ، تسقط الطاقة الليبيدية عن بظرها الى مهبلها فتكتمل بذلك أنوثتها · وليس من العسير أن نفهم أن قيمنا الثقافية تشدد على بناتنا اليافعات الصغيرات فى تحذيرهن من الاعيب الرجل وخداعه حتى يظفر منها بما يريد فيلوذ بالهرب

فتصوير الرجل بالثعلب تصوير دقيق بالنسبة الى الفتيات اليافعات ، خاصة وأن الدجاجة شأنها شأن القطة رمز شائع ومألوف للمهبل · ولكن نعود الى ساق الشجرة الكبيرة التى لم تكن لا بالمورقة ولا بالميتة · لم تكن هذه الساق فى الفيلم غير تعبير رمزىعنالبظر المشحون بالطاقةالليبيدية والذى ما يزال حيا وان ظل قاصرا على أن يزهر ويثمر · فقضيب الرجل وحده هو الذى يستطيع الانجاب · كانت الجنسية المثلية عند صاحبة المزرعة التى تقدم بهـا السن ظاهرة تخطت أوانها ومن ثم تنتمى الى اللاسوية ، بينما كانت عنـد الشابة اليافعة ما تزال مرحلة من مراحل تطورها · كانت الشابة اليافعـة ما تزال تعيش أوهام اليافعات ورعبهن من خداع الرجل « الثعلب » ليظفر بالدجاجة ويلوذ بالهرب ، ولكنها تعرفت على الجندى فشفاها من أوهامها ، وحصل على ثقتها ومن ثم لم تعد الأنوثة بالنسبة اليها خطرا يهدد قيمـة ذاتها · عندئذ تحولت الطاقة الليبيدية من البظر الى المهبل واكتملت أنوثتها · وبذلك غدا بظرها بغير حياة أو قل تداعى ساق الشجرة ميتا على الأرض ·

يسهل علينا الآن أن نتبين دلالة ذلك الرسم القهرى الآخر الذى ينحصر فى رسم فرع شجرة ثم القيام بعد ذلك بتغطية الصفحةكلها بأوراق لهذا الفرع · انها كانت بذلك تعبر عن رغبتها فى أن يورق قضيبها الأنثوى الصغير · كانت فى رسمها القهرى الأول تعبر عن رغبتها فى الاتصال الجنسى المثلى ومن هنا كانت لا تتوقف عن وضع مثلثها مقلوبا فوق مثلث الأخرى وهى تتوهم أنها ترسم نجمة سداسية ربما تكون لها صلة باسرائيل · ولكن لماذا قطعنا بأنها تتصور مثلثها هى فوق مثلث الأخرى بدلا من أن نفترض عكس ذلك ؟ بـكل بساطة لأنها تعبر فى رسمها القهرى الثانى عن نزعة ذكرية قاطعة فهى تريد لبظرها ونعنى قضيبها الأنثوى الصغير أن يقتدر كقضيب الرجل على الانجاب ومن ثم يورق ويزدهر ويملأ صفحة الحياة كلها بالبنين والبنات · وهكذا فان هذين الرسمين القهريين يسمحان لنا بأن نقطع بوجود جنسية مثلية ايجابية عند هذه السيدة ، مما يعنى رفضها القاطع لأنوثتها · وليس يعنينا فى المنهج الكلينيكى أن تكون هذه السيدة أنثى من الناحية التشريحية تستمتع بدرجة عالية من الجمال وأنها زوجة وأم لعديد من الأولاد · فالمنهج الكلينيكى هو علم نفس الأعماق ·

وبعد هذه الأمثلة عن الهفوات والأفعال الاعراضية يكون بوسعنا أن

نتحدث عن الأساس النظرى لهذه الظواهر ٠ فنسيان أسماء الأشخاص مع عدم تذكرها بالمرة او تذكرها على نحو خاطىء يشير الى وجود دوافع خاصة تسببت فى كبت هذا الاسم ، كما يشير ايضا الى وجود صلة معينة مع الاسم الخاص الذى احتل مكانه ٠ وقد يتم نسيان الاسم حينما يكون هناك شبه او صلة بين الاسم وبين واقعة كريهة اضطر لشخص من قبل دفعها خارج الشعور أى الى كبتها ٠ كل شىء يبدو وكان المضمون المكبوت فى اللاشعور يجذب نحوه كل عنصر مشابه له (أو يرتبط به على نحو او آخر) يدخل الى الشعور ومن ثم كان يهدد باجتذاب المكبوت الى السطح ٠ ومن هنا يكون احتمال نسيان الاسماء الشبيهة أو المرتبطة بالاسم الكريه الذى عانى الكبت٠ فكثيرا ما ينسى الانسان اسم رواية أو بطلة او بعض فقرات من قصيدة لأنها تشير الى وقائع كريهة تتصل بحياته واضطر شـعوره فى الماضى الى ان يتحول عنها اى يكبتها ٠ وفى هذا ما يفسر شكاية البعض من ضعف الذاكرة عندهم ٠ وفى بعض الحالات يرجع النسيان الى رقابة تتصل بالموقف الخارجى لا الى دوافع الشخص المكبوتة ، كما يحدث حين ننسى نادرة من النوادر لأن سردها لو تم قد يجرح شعور أحد الحاضرين أو قد يسبب للراوى أخطارا ممكنة ، مما يتضح فى نسيان النكات السياسية أمام شخصيات مسئولة أو « عميلة » من الزملاء ٠

وكذلك الحال بالنسبة الى المقاصد والنيات والمشاريع والمواعيد التى ينساها الشخص فيغفل عن الوفاء بها ٠ وقد أشار فرويد بصفة خاصة الى اخطاء « الروشتة » وخطورة علاج الطبيب لأقاربه ومعارفه ٠ وكذلك بعض الأفعال الاعراضية التى تبدو فى ظاهرها مجرد صدفة أو انعداما للمهارة بينما تكون فى الواقع نوعا من المهارة اللاشعورية تتيح لبعض الدوافع الخفية ان تعبر عن نفسها ٠ ان المهارة اللاشعورية التى تضع نفسـها فى خدمة الدوافع اللاشعورية تذكرنا بما يأتيه النائم الماشى من أفعال ٠ وعليه فعدم المهارة البدنية هو فى الواقع مهارة لاشعورية فى استخدام عدم المهـارة الظاهرة للوصول الى الغرض ، كمن يرتبك على رصيف ضيق يزدحم بالناس عندما تكون هناك فتاة قادمة فى مواجهته بحيث ينتهى على الرغم منه الى أن يصطدم بها ويعتذر ٠ ومن ذلك أيضا حالة الشخص الذى يعد عن حرج باعارة كتاب أو تادية خدمة أو زيارة أو الذهاب الى موعد فينسى أو يتأخر أو يضل الطريق ٠ كذلك الحال حين يقطع الانسان اصبعه عن خطأ اثنـاء

استخدامه للسكين ، أو حين تنطلق رصاصة عن غير قصـــد فتقتل آخر ٠ فالتحليل يكشف دائما فى مثل هذه الحالات رغبة فى عقوبة الذات أو عن عدوانية اتجاه الآخر أو عن الأمرين معا ٠ وكذلك أيضا حالة العمال الذين تنزل بهم حوادث العمل المرة بعد المرة مما يعرف باســـتهداف الحوادث أو عصاب القدر ٠ وخلاصة القول ان هناك حتمية نفسية تحكم جميع مظاهر السلوك التى تبدو وكأنها عشوائية ، مجرد صدفة غير مقصودة ولا ترتبط بدوافع معينة ٠

وتفسير هذا كله ينحصر فى ان الانتباه من حيث هو ضرب من الرقابة يحول فى الحالات العادية دون خروج أية كلمة أو أى تصرف لايكون ملاءما للموقف ، ولكن عنـــدما يضعف هذا الانتباه لسبب أو آخر تنطلق الدوافع الكامنة فتعبر عن نفسها بالقول أو الفعل رغما عن صاحبها ٠ ومن هنـــا يصطنع رجال الشرطة والمخابرات كل الوسائل لاضعاف الرقابة باستخدام المخدرات أو التخدير أو الاجهاد المضنى كالاستجواب بعد الحرمان من النوم لفترة طويلة وما الى ذلك من وسائل ٠ ومعنى هذا ان وقائع التجارب الحية تنتظم داخل الفرد كما عاشها ، ولكن متطلبات الحياة الاجتماعية والواقع يفرضان عليه ألا يكشف من نفسه عن كل شىء بل هو يعرف منها القدر الذى يراه مناسبا فى الظروف التى يراها مناسبة وفى الصورة التى يراها مناسبة٠ ومن هنا كان دور الرقابة فى صورة كبت أو قمع حتى لا تفلت بعض الوقائع الكريهة أو الخطرة أو المحرجة ٠ فاذا ضعفت الرقابة أو غفلت ، فذلك غياب القط الذى يتيح لفيران الدوافع الكامنة أن تنطلق لاهية على مسرح التحقق الخارجى ٠

٢ - الأحـــلام :

الأحلام هى الطريق السلطانى الى أعماق النفس البشرية ٠ فعنـدما نعاشر شخصا من الناس سنوات طويلة لانستطيع أن نفهم منه اكثر مما يفهم عن نفسه طالما ان كل المعارف الشعورية جزئية ومتحيزة ، بينما تكفينا بضعة أحلام لنتعرف بدقة على أعماقه ٠

ولكن كيما نفهم الحلم ينبغى أن نتبين وظيفته ، هذه التى لا تتضح

الا بفهمنا للنوم · وفهم الحلم لايختلف فى الواقع عن فهم الهفوات والأفعال الاعراضية المرضية·فالفكرة الأساسيةتنحصر فى ان الأنا تهيمن على مسرح الشعور وتفرض رقابة دفاعية على جميع المواد النفسية التى يمكن أن تدخل الى نطاق الشعور أو التى يمكن أن تخرج منه الى حيز التعبير والتحقق الخارجى · فالحفزات الغريزية التى تنطلق من منظمة الهى وتبلغ ما قبل الشعور ، تنظر الانا فى أمرها بالرجوع الى الأنا العليا . فان رأت صلاحيتها مسايرة لقيم الأنا العليا أتاحت لها ان تدخل الى الشعور بل وان تخرج منه الى حيز التنفيذ الفعلى · اما اذا رأت الأنا عدم ملائمة هذه الحفزات الغريزية، كان على ميكانزمات الأنا الدفاعية ان تضربها وان تعيدها من حيث أتت وان تقف فى وجهها لتحول بينها وبين أى محاولة أخرى للتسلل · ذلك هو الكبت فى صورته الأولية ولكن اذا تسللت الحفزات الى الشعور قبل ان تلحق بها الدفاعات فتعيدها من حيث أتت وتسد عليهـــــا كل طريق فذلك هو الكبت الثانوى · ويمكن للأنا أن تسمح للحفزة الغريزية بالبلوغ الى الشعور دون ان تسمح لها باية صورة من صور التعبير الخارجى ألفاظا كانت أو أفعالا وذلك ما يسمى بالقمع · فاذا ما ضعفت رقابة الأنا لسبب من الأسباب كان بوسع الحفزات الغريزية مكبوتة كانت أو مقموعة ان تستغل الفرصة وتنطلق فى صورة هفوات أو أفعال أعراضية أثناء اليقظة أو فى صورة أحلام أثناء النـــــوم ·

ولكن ما هو النوم ؟

كل سلوك له دافع ، والنوم من حيث هو سلوك دافعـــه الحاجة الى الراحة · ومن هنا فان النوم الهادىء يمثل أقصى صورة لخفض التوتر عند الكائن الحى ، مما يرجع الى ان النوم موت صغير · وفى هذا بالطبع مايؤكد ما ذهب اليه مخيمر من ان خفض التوتر ينتمى الى غرائز الموت بينما يكون اشتهاء الاستثارة (التوتر) هو المبدأ التفسيرى لغرائز الحيـــاة · ومن الناحية النشوئية يعتبر النوم بمثابة عودة وقتية الى رحم الأم ، الأمر الذى يتضح من الظروف التى نحصل عليها والأوضاع التى نتخذها أثناء النوم · فنحن نحرص على درجة من الدفء والظلام وانعدام المثيرات وتتخذ أبداننا من الأوضاع ما يقترب بها من وضع الجنين فى الرحم · كل شىء يبدوا وكأن

الأنا أشبه شيء بذلك الحيوان الذى يعيش فى القوقعة والذى يعود مع التعب أو الاجهاد أو الخوف داخلا الى قوقعته ·

فدلالة النوم هى العزوف عن الواقع مما يعنى ان النوم يمثل بالضرورة حالة تكون الأنا فيها ضعيفة نسبيا لأن الأنا هى المختصة بالواقع والتكيف مع الواقع · وبلغة أخرى فان النوم يمثل حالة تكون فيها الحاجة الى الراحة أقوى بالقياس الى الحاجات الأخرى جميعا · ولكن هذا الضعف النسبى للأنا أثناء النوم يعنى بالضرورة تقوية نسبية أثناء النوم للجهازين الآخرين وهما « الهى » . « الأنا العليا » والهى كما نعلم تشتمل بالاضـــافة الى الحفزات الجنسية والعدوانية ، على كل الحفزات الغريزية التى لم تقبلها الأنا ومن ثم عانت الكبت · وهذه المكبوتات تميل دائما الى العودة الى نطـــاق الشعور ولكن دفاعات الأنا تقف فى وجهها وتحول بينها وبين ذلك · ولكن هذه الدفاعات أو الرقابة تكون أثناء النوم (ضعف الأنا) أكثر تساهلا ، لأن الحفزات المكبوتة لو خرجت فلن تنتقل الى حيز الفعل ، طالما أن النائم يشبه سيارة ينعزل فيها المحرك عن العجلات . مما يعنى ان الأفكار التى تدور فى المحرك تكون معزولة عن التعبير الحركى والسلوك الخارجى فى صـــورة الفعـــل ·

ولكن ليس معنى هذا التساهل من جانب ميكانزمات الدفاع ان تخرج الحفزات المكبوتة عارية صريحة الى حيز الشعور دون ما تنكر فلابد من ان يأتى السلوك (الحلم) محصلة تتيح شيئا من الاشباع للحاجات المكبوتة وشيئا من الاشباع لحاجة دفاعات الأنا الى الأمن · ومن هنا يكون الحلم اشباعا هلوسيا (ادراكات بغير موضوع) للحفزات المكبوتة ولكن على نحو من التنكر ، بحيث لا تتنبه الأنا عند اليقظة الى ان اشباعا قد تحقق للحفزة المكبوتة · ومعنى هذا ان الحلم هو تعبيرا عن الحفزات المكبوتة فى براقعها التنكرية · اما اذا كانت الحفزات شعورية (مقموعة أو غير مقموعة) ولم يكتب لها الواقع الاشباع فانها لا تستثير مقاومة من الأنا وبالتالى يمكن أن تحصل فى الحلم على الاشباع بصورة صريحة مباشرة دون حاجة الى تنكر، مما يسمى بالأحلام الشفافة أو ، لأحلام من نمط أحلام الأطفال · ومثل هذه الأحلام الأخيرة لاتنطوى على قيمة بالنسبة الينا طالما أنها تعبر عن حفزات شعورية يعرفها صاحبها ويعيها فى يقظته ·

وعليه فتحقق النوم معناه التغلب النسبى للحـــاجة الى الراحة على ماعداها من حاجات أخرى . أما اضطراب النوم فمعناه على العكس تغلب الحاجات الأخرى على الحاجة الى الراحة · ومعنى هذا ان النـــوم الذى لايحقق الراحة وكذلك الأرق يرجعان الى تغلب الحاجات الأخرى وضغطها من حيث هى توترات مزعجة ·

(أ) فبعض حالات اضطراب النوم ترجع الى انفعالات حالية من قبيل الهموم الشعورية الشديدة · (من قبيل الغضب الشديد أو التهيج الجنسى أو الحزن البـــالغ أو الفرح المسرف أو حتى التـــوقع لأحداث ســـارة أو محزنة) ·

(ب) وبعض حالات اضطراب النوم ترجع الى انفعالات قديمة مكبوتة · ذلك أنه ما دام النوم يمثل حالة ضعف نسبى للأنا يصل بها الى حد الشلل والعجز فهناك فعلا ما يبرر خوف الفرد من أن تنتهز المكبوتات هذه الفرصة فتجتاح الأنا اثناء النوم · ومن هنا يكون التشبث باليقظة أى بالأرق كقط ساهر ليحول بين الفيران المنكبتة وبين ان تنطلق الى حيز الشعور ، وذلك (من قبيل الرغبة القديمة المنكبتة في القتل أو الخوف من التعرض للقتل انتقاما وثأرا من مثل هذه الرغبة العدوانية أو الرغبـــة فى الاستمناء أو الاحتلام على موضوع محارمى والخوف من تحقق ذلك أثناء النوم) · ولكن ينبغى أن نتنبه الى ان النوم يكون أحيانا عند أشخاص آخرين على العكس من ذلك تماما ، بمعنى أن يكون وسيلة يتخذها الشخص للدفاع ضد احباطات الحياة ، وهذا هو الهروب فى النوم ·

ولكن ما هو الحلم ؟

الحلم سلوك دافعه خفض التوترات التى تتهدد النائم بالايقـــاظ · فوظيفة الحلم حراسة النوم باتاحة اشباعات هلوسية (الأحلام) للدوافع الملحة التى يمكن أن توقظ الشخص من نومه · ومن الممكن كما رأينا ان تكون هذه الدوافع قديمة مكبوتة ، كما يمكن أن تكون شعورية وحديثة · فالحلم هو حارس النوم يحرسه ويبقى عليه ضد الدوافع التى تتهدده وذلك بتقـــديم اشباعات هلوسية لها يتضح ذلك بشكل بارز عندما يكون النائم متعبا فى حاجة الى الراحة ويستشعر فى الوقت نفسه العطش فيحلم بأنه قد شرب

الماء متيحا بذلك لنومه وراحته ان يستمرا · وكذلك الحال فى الأحلام الشفافة من نمط أحلام الأطفال والتى يعترف بها الفهم الشائع فى المثل الشهير « الجعان يحلم بسوق العيش » ولكن الذى يعنينا فى علم النفس هو الأحلام التى تكون اشباعا لحفزات قديمة مكبوتة لأنها هى وحدها التى تتيح لنا أن نتبين الدوافع اللاشعورية العميقة عند صاحبها ·

واذا كان الاشباع فى الأحلام من النمط الطفلى يمكن أن يتم بصورة صريحة مباشرة وبغير تنكر أو تمويه ، فان الأمر يختلف عن ذلك فى حالة الدوافع المكبوتة التى سبق للأنا ان رفضتها ومن ثم تستثير عودتهما كل مقاومة من جانب الأنا · فى هذه الحالة الأخيرة لايستطيع الحلم أن يقوم بوظيفته وهى المحافظة على النوم اذا لم يتم تنكر هذه الدوافع المكبوتة بحيث يصعب التعرف عليها · ومن هنا يتحتم فى حالة الدوافع اللاشعورية (المكبوتة) ان يأتى الحلم متنكرا فى معناه مستغلقا على الفهم العادى · فاذا فشلت عملية التنكر هذه بحيث تخرج الدوافع المكبوتة عارية صريحة فان القلق يجتاح مسرح الشعور ، اشارة انذار بهذا الخطر ونعنى خطر عودة ما سبق للأنا ان قامت بطرده · ذلك هو الكابوس واليقظة المفاجئة المرتعبة التى تتيح للأنا ان تستعيد سيطرتها ، هذه التى كان النوم قد ذهب بها ·

ومن هنا تبرز أهمية ميكانزمات صياغة الحلم التى تقوم بالتمويه والتنكر فتوفق بذلك مابين حاجة الحفزات المكبوتة الى الاشباع ، وحاجة الأنا الى الأمن بحيث يكون الناتج اشباعا للحفزات المكبوتة ولكن على نحو تجهله الأنا · بذلك يكون الحلم اشباعا جزئيا وغير مباشر للحفزات المكبوتة، مما لايختلف فى شىء عن الأعراض المرضية · فالحلم اختلال نعيشه فى النوم بينما الاختلال حلم نعيشه فى اليقظة ·

وميكانزمات صياغة الحلم هى ما يسمى بالنمط الأولى أو العمليات الأولية المميزة لجهاز الهى فى مقابل العمليات الثانوية (التعلم أو الاكتساب) المميزة لجهاز الأنا · وعلى الرغم مما يذهب اليه البعض من ان ميكانزمات صياغة الحلم ليست بميكانزمات دفاعية فان مخيمر يلح على طابعها الدفاعى· فوظيفة الحلم كحارس للنوم لا تقتصر على اشباع الحفزات التى حرمت الاشباع بسبب كبتها أو قمعها أو غير ذلك بل تتخطى ذلك كله بأن تستبق أحيانا المخاوف تحقيقا للطمانينة أو تكرر الصدمات تحقيقا لافراغها والألفة

بها وتمهيدا لمواجهتها فى الواقع العيانى . ففى الأحلام النمطية للامتحانات حيث يرى الحالم نفسه راسبا (١) فى امتحان سبق ان اجتازه . يكون هدف الحلم هو طمأنة الحالم بالنسبة الى قلق حالى يعكر صفو حياته « ليس لك اليوم ان تقلق فقد سبق أن عانيت القلق قبيل امتحانك بغير ما داع حقيقى لذلك » . وفى أحلام اخرى حيث يتكرر حادث صدمى عاشه الشخص (من قبيل ذلك إن يحلم الجندى عدة مرات بالموقف الذى حدثت له فيه الاصابة وفقد ساقه أو بصره) يكون هدف الحلم هو التمهيد لتحقق التوافق ، فالأنا فى مثل هذه الأحلام تقوم بتكرار ايجابى لما سبق أن عانته سلبيا . وفى هذا التكرار ما يسمح للأنا بتحقيق افراغات جزئية آجلة وما يتيح للنوم ان يستمر على الرغم من التوتر الداخلى . وفى هذا التكرار أيضا ما يحقق للأنا الألفة ويتيح لها تعبئة الطاقات الدفاعية لمواجهة الموقف فى الواقع العيانى . وهكذا ينتهى مخيمر الى أن الحلم وان كان دائما حارسا للنوم فانه لا يبلغ الى ذلك دائما بتحقيق للرغبات كما يرى فرويد بل أيضا باستباق للمخاوف وتحقيق للطمأنينة تجاهها .

وميكانزمات صياغة الحلم يمكن تلخيصها كما يلى :

(أ) **التكثيف** : بمعنى ان المحتوى الظاهرى فى الحلم هو اختزال للمحتوى الكامن وهنا يعنى التحتيم بأكثر من سبب . فكل عنصر من العناصر الظاهرة فى الحلم يرجع الى عدة أفكار كامنة . كأن يكون القىء فى الحلم تعبيرا عن التقزز من الجنسية وفى نفس الوقت تعبيرا عن الرغبة فى الحمل .

(ب) **الرمزية** : بمعنى استخدام الحلم للرمز كوسيلة للتعبير . هذه الرموز قد تكون عامة عند كل الناس . وقد تكون ثقافية خاصة بثقافة معينة ، وقد تكون فردية خاصة بخبرات الفرد ، ومن الرموز العامة الشهيرة الأسد والذئب كرمز للأب . والعربات والمياه والالتقاء على السلم كرمز

---

(١) عندما لا يكون الحالم قد اجتاز الامتحان من قبل وعندما لايكون على الحالم أن يجتاز امتحانا ما ، يمكن للرسوب كاستباق للفشل ان يحقق الطمأنينة طالما أن وقوع البلاء لا يثير قلقا بل انتظاره هو الذى يثير القلق . ومن هنا فليس من الضرورى ان يكون حلم الرسوب قبل الامتحان تعبيرا عن رغبة لدى الشخص فى الرسوب .

للجنسية ، فقدان الشعر او فقدان البصر أو الأطراف أو الأسنان كرمز للخصاء • ومن قبيل ذلك أيضا كل ما هو مدبب فى رمزه لعضـــو التذكير ، وكل ما هو مجوف فى رمزه لعضو التأنيث • فمنقار البط مثلا يرمز لعضو التذكير ، بينما الفم يرمز لعضو التأنيث •

ويرى مخيمر ضرورة الاستعانة بالمستدعيات دائما حتى بالنسبة الى الرموز العامة والرموز الثقافية • ففى خبرته الكلينيكية التقى اكثر من مرة بالثعبان والكلب كرمزين للمهبل مع أنهما من أكثر الرموز العامة دلالة على القضيب • (يفتح الثعبان فمه وعندئذ فقط يرتعب الحالم ويصحوا مذعورا أى يتحول الحلم الى كابوس ، مما يشير الى تصور المهبل ذى الأسنان) « أنظر سيكلوجية المرأة ـ مارى بونابرت ـ الترجمة العربية ـ الطبعة الثانية ـ الأنجلو » •

(ج) **الازاحة** : بمعنى أن تنفصل الخاصية الوجدانية عن موضوعها الحقيقى وتنصب على موضوع آخر فرعى • وذلك من قبيل الازاحة من اسفل الى اعلى بحيث ينصب الاهتمام فى الحلم على منقار البط والفم بدلا من القضيب والمهبل •

(د) **الاخراج المسرحى** : ويعنى ان الحلم يعبر عن الأفكار المجردة بصـــور مرئية تماما كاللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين • فالحلم يعبر عن افكاره الكامنة بمشاهد بصرية تمـــاما كما يحدث فى الأفلام الصامتة فتتابع الصور البصرية ونادرا ما تتدخل الأصوات والحوار • ومن قبيل ذلك أن احدى الفتيات رأت هذا التتابع فى حلمها : تصعد على سلالم كوبرى يمتد فوق مجرى ماء ثم تهبط من الناحية الأخرى بضع درجات لا تصل بها الى نفس مستوى الأرض من الضفة الأخرى• وعندئذ ترى ذكر بط وحشى رأسه رأس انسان ولكنه اصلع وله منقار طويل • يهجم عليها فترتبك ولا تدرى ماذا تفعل واذا بذكر البط يدخل منقاره فى فمها فتشعر بالتقزز وتقىء • ويتغير المنظر فترى نفســها تحمل طفلا رضيعا تشعر انه ابنها والى جانبها زميل لها فى الدراسة اعمى بمركز المكفوفين •

(هـ) **التصفية الثانوية** : بمعنى أن حالة الحالم بقدر ما تكون قريبة من اليقظة

تضفى على هذا النتاج منطقية معقولية فيبدو متماسكا كالقصـــــة المترابطة التى ذكرناها · ففى حلمها تعبر الفتاة عن نزعتها الذكرية وتقززها من الدور الأنثوى فى الجماع الجنسى . ومن هنا فانها لا تنزل الى الماء الذى يرمز الى الحياة الجنسية بل يكون عبورها عن طريق الكوبرى الذى لا تنزل منه الى نفس مستوى الضفة الأخرى ، ان لقاءها مع ذكر البط الوحشى يتحقق فى مستوى اعلى أشارة الى بظرها مما يساير ذكريتها وتخوفها من الدور الأنثوى فى الجماع الجنسى · ولكن ذكر البط الوحشى وان كان يرمز بصلعته الى الخصـــــاء فانه يرمز بمنقاره الكبير الى ذكورته القوية · فذكر البط الوحشى يجيب بصلعته كرمز للخصاء على ذكريتها بينما يجيب بمنقاره الكبير كرمز للفحولة على رغبتها الأنثوية الوجلة · انها تتجه بنزعتها الذكرية الى صلعة ذكر البط بينما تتجه بنزعتها الأنثوية الى المنقار الكبير لذكر البط وفى هذا ما يقطع بانتمائها الى النمط البظر مهبلى من النساء · وذكر البط الوحشى هذا تعبير دقيق عن زميلها الأصلى الذى تعبر فى الحلم عن رغبتها فى الاقتران به والانجاب منه · فزميلها الأعمى « مخصى » يشد بالعمى نزعاتها الذكرية ولكنه فى الوقت نفسه قوى الشخصية عنيف يشد بفحولته هذه نزعاتها الانثوية · فالحلم لا يعبر فحسب عن رغبتها فى الانجاب من زميلها الأعمى بل يتيح لنا فى الوقت نفسه جملة من الخصائص الهامة المميزة لها فى تتامها مع الخصائص المميزة لزميلها الأعمى ·

تفسير الحلم :

يحتاج الحلم الى جهد لتفسيره · وكان فرويد يوصى بتقطيع الحلم الى اجزاء وذلك لنطلب من الحالم مستدعيات أفكاره عن كل جزء من الأجزاء على حدة وبذلك نصل من العناصر الظاهرة فى الحلم الى المحتوى الكامن وراء كل عنصر من العناصر · وفى هذا التقطيع للحلم ما يخلصنا من المعنى الظاهر ومن المعقولية والمنطقية الظاهرة ·

اما تفسير الحلم اليوم فيقتصر على عمل مستدعيات الأفكار بالنسبة الى بعض عناصر الحلم او اجزائه وذلك لأن الرمزية العامة ، عادة ما تكفى

لفهم غالبية الأجزاء والعناصر الظاهرة · ويمثل تفسير الأحلام جانبا هاما فى العلاج النفسى وعادة ما يحاول المعالج أن يمسك بدلالة الحلم ضمن سياق العملية العلاجية · فقد يكون الحلم تعبيرا عن مقاومة للعلاج أو تعبيرا عن تغيير فى الدوافع العميقة أو عن اصرار عليها · والمعالج فى تفسيره للحلم يرجع الى الشخصية فى وحدتها الكلية · وفى بعض الحالات لا يكتمل تفسير الحلم الا بعد ظهور معلومات جديدة · من قبيل ذلك الحلم المريضة التى رأت المعالج واقفا فى مكانه عند استقبالها كالعادة ولكن يوجد ببنطلونه شق طولى فى المنطقة التى توجد فيها الأزرار · فقد اتضح معناه من حلم رأته بعد ذلك ، رأت فيه أخاها الأكبر ، الذى كان ينزل من نفسها منزلة الأب وكانت تعتمد عليه فى طفولتها وتلقى عليه بمسئولياتها ، رأته بعد وفاته يرقد حيا فى فراشه رأسه هى هى تماما ولكن بدنه عندما لمسته وجدت أنه جسم أمها · ومن هنا فهى فى طرحها لمشاعرها الطفلية تجاه هذا الأخ على المعالج قد قامت باحداث التغيرات اللازمة حتى يصبح المعالج نسخة من تصـــورها الطفلى لأخيها الأكبر : شخصية قوية تقتدر على الحماية ، وجسم انثوى من الناحية التشريحية ، وبالتالى كان الحلم الأول تعبيرا عن عملية الطرح على المعالج ·

الحلم المؤلم والكابوس :

سبق أن رأينا ان الحلم لاينجح فى وظيفته وهى المحافظة على النوم الا حين ينجح النشاط الدفاعى فى عمله التمويهى الذى يجعل الدوافع المكبوتة متنكرة عند اشباعها · أما اذا فشل النشاط الدفاعى فى عمله هذا فذلك معناه فشل الحلم · عندئذ تدخل الدوافع المكبوتة عارية صريحة فينبعث القلق فى الحلم اشارة انذار بهذا الخطر ، ويشتد القلق الى الحد الذى يقطع النوم بيقظة مفعمة بالقلق · ومن هنا يكون تعريف الكابوس بأنه تحقيق صريح لرغبة شنيعة ·· وهذا الأرق المفاجىء وسيلة للدفاع ضد هذا الخطر اذ تستعيد الأنا باليقظة قوتها على المواجهة ، هذه التى كانت قد ضـــاعت بالنـــوم ·

وهناك احلام اخرى تكون اليمة فى محتواها الظاهر بحيث يبدو من الغريب فهمها على أنها تحقيق لرغبة واشباع لدافع من قبيل ذلك المرأة التى تنزل كارثة بأمها فى الحلم وتغرق فى حزن شديد على امها يبلغ حد البكاء

أو تلك الأخرى التى ترى أباها فى الحلم ينهال عليها ضربا بعصـــا طويلة غليظة بينما تتألم وتبكى أو تلك الثالثة التى تفقد فى الحلم ابنها الوحيـــد وتصحو مفزعة • ففى كل هذه الحالات يتضح أن الحلم على الرغم من طابعه الأليم يحقق رغبة عند الشخص • ففى الحالة الأولى تشبع الحالمة عدوانيتها الأوديبية تجاه أمها وفى الحالة الثانية تشبع الحالمة رغبتها الجنســـية الأوديبية تجاه أبيها بينما الحالمة تعبر فى الحالة الأخيرة عن رغبتها فى التنازل عن ذكريتها مما يعنى قرب اكتمال أنوثتها • وفى حالات أخرى يكون الطابع الأليم للحلم راجعاً الى رغبة الحالم فى عقوبة الذات نتيجة لأحاسيس الأثم لديه وتطلعه الى التخفف عن طريق التكفير بالمعاناة • فى مثل هذه الحالات يكون الحلم اشباعا لرغبة الحالم فى العقوبة (مازوشية معنوية) •

ولكن ليس معنى هذا أن تكون كل الأحلام الأليمة مجرد تحقيق لرغبـة عند الحالم فى نهاية الأمر فقد سبق أن رأينا مع مخيمر أن الأحلام يمـكن أن تستبق المخاطر والمخاوف كما يمكن أن تكرر ايجابيا ما عانته سلبيا من أحداث صدمية فى الحياة وذلك تحقيقا للطمأنينة والألفة وتعبئــة للطاقات الدفاعية من أجل المواجهة مع الواقع العيانى • ومعنى هذا أن الأحـلام فى صورها المختلفة (شأنها شأن الاسقاط فى أشكاله المختلفة) مما تضطلع أساسا بوظيفة دفاعية لا تقتصر على اشباع الرغبات (١) بل تتخطى ذلك الى استباق المخاوف والأخطار والتمهيد لمواجهة الواقع العيانى بفعـــالية تتيح التوافق • ومن هنا فان مخيمر وان اتفق مع فرويد فى وظيفة الحلم الدفاعية

---

(١) سبق أن رأينا فى حديثنا عن التات ضمن عرضنا للاختبارات الاسقاطية أن قصص المفحوص يمكن ان تعبر عن رغباته وآماله كما يمكن أن تعبر عن تخـوفاته وضروب قلقه وصراعاته • وفى مقدمة الطبعة الثانية ـ الترجمـة العربيـــة لكتاب « سيكلوجية الاشاعة » أولبرت بوستمان . الناشر سعيد رأفت ـ أوضح مخيمر كيف أن ظاهرة الاشاعة شأنها شأن ظاهرة الاسقاط تضطلع دائما بوظيفة دفاعية ولا تخرج عن كونها انتظاما من الانتظامات التى يمكن أن يتخذها الادراك عندما تكون الغلبة للعوامل الذاتية بالقياس الى الشروط البيئية (أنظر ١٥٦ من علم نفس الجشطلت بول جيوم ـ الترجمة العربية ـ الناشر سعيد رأفت) بذلك نكون قد حققنا مبدأ المجانسة بالنسبة الى الأحلام والاختبارات الاسقاطية وذلك من حيث الوظيفة الدفاعية فى غير ما اقتصار على تحقيق الرغبات • وقد سبق أن حققنا مبدأ المجانسة ما بين الاشكال المختلفة للاسقاط والصور المختلفة للاشاعة والانتظامات المتبـــاينة التى تتخذها الادراكات • وليست المجانسة غير تعبير عن مبدأ الاقتصاد فى العلم •

كحارس للنوم الا أنه يختلف معه من حيث الوسيلة الى ذلك ٠ فالحلم دفاع ضد كل التواترات التى تهدد النائم بالايقاظ سيان كان ذلك اشباعا للرغبات أو استباقا للمخاطر يتيح الطمأنة أو تكرارا ايجابيا لأحداث صدمية يتيح مع الافراغ تعبئة آلياتللمواجهة بلوغا الى التوافق٠ فهدف الحلم ينحصر فى فى خفض التواترات التى تهدد النوم ، هذه التواترات التى يؤدى ارتفاعها بصورة مسرفة أو صدامها مع الأنا الى القلق الغامر والكابوس واليقظـــة الفجائية ٠

مثـــال :

« كان زوجى يتوق بشكل قوى الى أن تكون لنا طفلة وكان يبرر ذلك استنادا الى تخصصه بأن ابننا « محيى » هو ككل ذكر يولد يضيع لحســاب أمه ومن هنا كان يريد أن يكون المولود الجديد بنتا ليكون من حسابه ٠ وأخيرا وصلت ابنتنا ساهى ٠ كان «محيى» يطاردها طول اليوم باستطلاعيته وحركاته العنيفة التى ما تزال بعيدة عن المهارة طالما أنه ما يزال فى الشهر الأول بعد اكتمال عامين من عمره ٠ كان زوجى يشعر بخطورة مداعباته الثقيلة للضيفة الجديدة « ساهى » ومن هنا راح يحذرنى المرة بعد المرة حتى لا تتاح للذئب الصغير فرصة الانفراد بها وفى اليوم الثامن لميلادها ، رأى زوجى الحــلم التالى وكان بصريا خالصا ٠٠ كانت ساهى فى لفافاتها ترقد واقعــة على الأرض على مقربة من السرير الكبير وكانت لفافاتها المبعثرة تقطع بوقوعها من فوق الفراش الكبير الذى كثيرا ما أتركها فوقه بعيدا عن سريرها الصغير واستولى الذعر على زوجى وراح يصرخ ينادينى حتى اسارع بالحضـــور والتفتت رأسه الى الباب فاذا به يرى «محيى» وهو يسارع بالخروج من الغرفة هاربا على طريقته المعتادة عندما يرتكب شيئا يدرك اننا نمنعه عنه وسوف نأنبه عليه ٠ عندئذ ادرك زوجى أن ما كان يخشاه قد وقع واستولت عليــه لحظات من الرعب راح يتسأل فيها : « ايمكن أن تكون « ساهى » قد ماتت ؟ أيمكن لهذه الحادثة أن تؤثر على رأسها الصغير أو مخها ؟ « واستولى عليه الغيظ تجاهى لأنه حذرنى أكثر من مرة فقد كان يتوقع هذا كله وكان بوسعنا أن نتجنبه لو أننى أوليت تحذيراته الاهتمام الكافى ٠ ومن فرط ارتعابه انتقل زوجى الى تلك الحالة ما بين اليقظة والنوم وراح يتسأل « أيكون من الممكن أن تنطوى أعماقى على رغبة فى موت ابنتى « ساهى » وقد عشت حياتى كلهــا

أرجو من الله أن يرزقنى أبنه ؟ هذا مستحيل ٠٠ هذا مستحيل » وصحا من نومه وكنت قد استيقظت على بكاء «ساهى» وأقوم بارضاعها فحكى لى حلمه الذى رآه منذ لحظات وكان من الطبيعي بعد ما سمعته أن أجيبه بهذه الكلمات « اننى لست فى حاجة الى مثل هذا التحذير العنيف المروع وأننى أؤكد لك أننى متيقظة تماما لمثل هذا الاحتمال ولن ينفرد ذئبنا الصــــغير « محيى » بحملنا الوديع « ساهى » ٠٠ ولست فى حاجة أيضا يا عزيزى أن تحاول من جديد أن اقناعى بتعديلك الجديد الذى ادخلته على نظرية فرويد فى الأحــلام والذى يؤكد بأن الحلم لا يمكن أن يكون دائما مجرد تحقيـــق لرغبة فكثيرا ما يكون تعبيرا عن مخاوف يحذر منها ويهيىء لتجنبها أو يعين على مواجهتها فى حالة وقوعها ٠٠ ومع ذلك يمكن أن نحتال على الكلمات فنقول بأن حلمك هذا مجرد تعبير عن رغبتك فى تحذيرى بشكل عنيف ومن هنا استباقك لأسوأ ما يمكن أن يحدث لو أننى تكاسلت وأهملت ٠ فحلمك هـــذا انما رأيته أنت لحسابى أملا فى ترويعى لتبلغ بى الى أقصى ما تستطيعه من تنبيهى وتحذيرى الى الخطر المحتمل ٠ ومع ذلك فمن الممكن أن يكون حلمك أيضا وفى نفس الوقت تعبيرا عن مخاوفك وتعبئة للمزيد من اليقظة وتهيئة للمواجهة لو أن المرهوب « لا قدر الله قد وقع يوما ٠٠ كل ذلك ممكن طالما نؤمن بمفهوم التحتيم بأكثر من سبب وان الحلم فى خدمة الشخصية كلها بحيث لا يقتصر على رغباتها دون مخاوفها » ٠

الفصل الثالث

فى المناهج السيكودينامية

مفاهيم ـ مفاتيح

كاطار تفسيرى يتيح الفهم

سبق أن رأينا أن المنهج الكلينيكى يستهدف الفهم سيان كان ذلك فى صورة التشخيص الحالى (دياجنوزس) أو فى صورة تشخيص التطور المقبل للحالة · ومن هنا تبرز أهمية الاطار التفسيرى بما ينطوى عليه من (المفاهيم ـ المفاتيح) التى تتيح لنا ما ننشده من « فهم » · وليس هناك من شك فى أن التحليل النفسى كان وما يزال النظرية الوحيدة التى تتيح لنا أن نتبين المعقولية من وراء لا معقولية الأمراض المرضية ·

واذا كان لنا أن نبدأ ببعض كلمات تاريخية لكان علينا أن نذكر أن فرويد كان يعمل قبل اكتشافه للتحليل النفسى مساعدا « لبروير » فى علاجه النفسى للحالات عن طريق التنويم المغناطيسى · وكان فرويد قبل ذلك فى بعثة بفرنسا استمرت عاما كاملا استطاع خلالها أن يتتلمذ على « شاركو » فى باريس وعلى « برنهايم » فى نانسى · وكلنا نعلم تلك الحالة الشهيرة « أنا » التى كان يعالجها « بروير » يعاونه فرويد · كانت المريضة فى كلمات عاجزة عن أن تشرب الماء من كوب وكانت تجلس الى فراش أبيها المريض تسند ذراعها الى المقعد عندما خيل اليها أنها رأت ثعبان على الحائط الملاصق لفراش أبيها · عندئذ انشل ذراعها عن الحركة وان ظلت أصابعها تتحرك ·

وليس لنا أن ندخل فى تفصيلات هذه الحالة التى تركها فرويد بغير تحليل مكتمل وان كنا نتبين فيها تثبيتا شهويا من جانب المريضة على أبيها مع شىء من النزعات الذكرية لديها تتمثل فى الثعبان الذى خيل اليها أنها رأته على الحائط وفى ذراعها الذى كان من الممكن لرغباتها الشهوية المجرمة أن تتحرك به الى الفعل لولا أن سارعت الدفاعات فنالته بشىء من الشك دون أن تأتى مع ذلك على حرية الأصابع فى التعبير الرمزى عن الرغبة فى التحرك الى الفعل ·

وكان فى ذلك ولا شك محصلة للحفزة الشهوية المكبوتة ودفاعات الأنا جميعا ٠

ولكن فرويد لم يعرض لهذا كله بل اقتصر على عجز المريضة عن أن تشرب الماء من كوب دون أن تدرى لذلك سببا ٠٠ وقد استطاع « بروير » بتنويمها مغناطيسيا أن يتبين الحادثة التى كانت سببا فى ذلك ٠ فقد رأت مربيتها الانجليزية تسقى كلبها الماء من كوب عادى فشعرت بالتقزز والاشمئزاز وأصبحت بعد ذلك عاجزة عن أن تشرب الماء من كوب ٠ وكما كان متبعا فى العلاج بالتنويم المغناطيسى فى تلك الفترة من نهاية القرن التاسع عشر طلب اليها « بروير » وهى فى حالة التنويم أن تمسك الكوب الذى قدمه اليها وأن تشرب منه وبعد ذلك طلب اليها أن تستيقظ فاستيقظت وهى تشرب وكانت تلك هى نهاية العرض المرضى ٠

وليس من شك أن مثل هذه الحادثة ما كان يمكن أن تكفى لتوليد مثـل هذا العرض المرضى لولا ما تنطوى عليه من دلالة لا شعورية ٠ ذلك أن المريضة كانت مع تفجر مرضها قد توقفت عن التحدث بلغتها الأصلية لتتحدث بالانجليزية التى هى لغة مربيتها ٠ وفى ذلك ولا شك ما يكشف عن توحد بمربيتها بما يدفعنا بالضرورة الى التساؤل عن نوعية العلاقة التى كانت « تتـــوهم » المريضة قيامها بين مربيتها وأبيها ٠ كل شىء يحمل على الافتراض بأن هذه المربية كانت موضع حسد من جانب المريضة وكان بودها لو استطاعت هى الأخرى أن تقدم « كوبها » (١) الى « الكلب » الظمآن ليرتوى ولم يكن الكلب غير تعبير رمزى عن أبيها فى صلته بالمربية ٠ وليس مما يعتبر تناقضا أن تكشف المريضة فى مشهد الكلب عن نزعاتها الأنثوية بينما تكشف فى مشهد الفراش عن نزعاتها الذكرية ، طالما أن نمط البظرية ـ المهبلية من الأنماط الشائعة بين النساء ٠

وكل ما يعنينا مما سبق أن المريضة « أنا » شرعت تتعلق عشقيا بمعالجها « بروير » فآثر الأخير السلامة وتوقف تماما عن كل علاج نفسى ٠

كانت هذه هى الاشارة الأولى الى ظاهرة الطرح الموجب التى سوف

---

(١) احيانا ما يرمز الكوب للانوثة من النمط الذكرى ٠

يكشف عنها فرويد كفنية أساسية من فنيات التحليل النفسى بعد ذلك بسنوات٠ وكان على فرويد بعد ذلك أن يعمل بمفرده وأن يتبنى طريقة أخرى فى العلاج غير تلك التى تقوم على التنويم المغناطيسى ٠ فقد كان من شأن التنويم أن يزيدمن « تبعية » المريض للمعالج بينما يستحيل على الشفاء الا ان يكون تقدما نحو الاستقلالية ٠

وبالاضافة الى ذلك فان الأعراض التى كانت تختفى عن طريق التنويم كانت تظهر من جديد بعد حين أو يظهر غيرها فى مكانها مما يعنى ان المرض لم تقتلع جذوره بعد ٠ وبالاضافة الى هذين السببين لم يكن من الممكن فى الواقع اخضاع كل المرضى للتنويم المغناطيسى . ومن هنا كان لابد من التنقيب عن طريقة جديدة ٠ وراح « فرويد » يجرب الايحاء للمريض بأن يتذكر وقد جعله يستلقى فى استرخاء على اريكة ولكن ذهبت كل الايحاءات دون جدوى فميكانيزمات الدفاع كانت تقف فى صورة مقاومة فى وجه المكبوتات تمنعها من الظهور الى الشعور ٠

واهتدى فرويد بعد ذلك الى التداعى الطليق الذى يستند الى مفهوم الحتمية النفسية والذى يشكل الفنية الأولى للتحليل النفسى « (بينما يشكل الطرح فنيته الثانية والأخيرة) » ومن هنا كانت تسميتها بالقاعدة الأساسية التى تحتم على المريض وقد استلقى على الأريكة ان يتحدث بصوت مسموع بكل ما يخطر له دون ما انتقاء أو استبعاد من جانبه ٠ وكانت الاحـــــلام تلقى عناية خاصة فى جلسات التحليل بحيث يجـــــرى عليها تطبيق قاعدة الاستدعاء الطليق للكشف عما يكمن وراءها من حفزات واتجاهات ٠ فقـد كانت الأحلام بمثابة الطريق السلطانى الذى يمضى بالمحلل مباشرة الى أعماق المريض ٠ وعليه فان المريض يتحدث بكل ما يخطر برأسه وكانت مستدعياته تبدو عشوائية فى تتابعها لا تنطوى على أى علاقة أو رابطة بينما هى فىواقع الأمر « محتومة » فى تتابعها نتيجة لارتباطها الوثيق فى لا شعور المريض وأعماقه ٠ ولكن المريض لم يكن يتنبه الى ذلك ومن ثم كان بوسع المستدعيات أن تخرج الى حيز الشعور فى الجلسات التحليلية ٠ ولكن هذه الصـــورة المبسطة لا تمثل حقيقة الأمر فى واقعه فعندما تفلت بعض الحفزات المكبوتة خارجة الى السطح تسارع عادة بعض الدفاعات لتفرض نفسها على مجرى المستدعيات مما يجعل التحليل النفسى فى الجلسة العلاجية تحليلا للصراع ما بين الحفزات المكبوتة والميكانيزمات الدفاعية التى تتصدى لها ٠

وغنى عن البيان أن الأمر لا يقف عند القول لأن المريض كثيرا ما يتكلم ببدنه ومن هنا يكون التنبه لأرهف الحركات المصاحبة لأقوال المريض وربما تكون بعض هـذه الحركات مستحيلة على الملاحظة ويتحتم على المريض الادلاء بها (كان يشعر ببعض الانقباضات الهينة فى أسته عند الحديث عن أحد أصدقاءه) .

وكان ولابد أن تمضى فترة من الوقت قبل أن يتوصل فرويد الى اكتشاف الفنية الثانية والأخيرة ونعنى ظاهرة الطرح التى كشفت بدورها عن حيوية التزام المحلل بالحيادية مع مريضه . وكان فشل فرويد فى تحليله لحالة « دورا » بتوقفها عن العلاج هو الذى نبهه الى ظاهرة الطرح فالمريض فى الجلسات العلاجية يعيش خبراته الطفلية من جديد تجاه المحلل كبديل أبوى ومن ثم يتيح للمحلل ليس فقط أن يمسك بأبكر الخبرات الوجدانية الطفلية السابقة على اللغة بل وأيضا أن يقوم بتصحيح ما تنطوى عليه هذه الخبرات الطفلية من اتجاهات خاطئة وتثبيتات شهوية مستهجنة وما لحق بذلك من عدوانية للأب المنافس .. الخ . ولما كانت هذه الخبـرات الطفلية وعلى الخصوص ما يعرف منها بالعقدة الأوديبية هى الاساس الذى تقوم عليه كل الاضطرابات والاختلالات فى المستقبل (استنادا الى كبت العقدة الأوديبية نتيجة للعجز عن تصفيتها مما يقيم العصاب الطفلى الذى هو البذرة لكل الاختلالات (اللاحقة) ، فان تصحيحها على أرضية من الطرح ضمن الاطار العلاجى يقوض الدعامة المرضية ومن ثم يفتح الباب عريضا أمام السوية .

ولا يقتصر الأمر على ذلك فان الطاقات التى كانت مضيعة بين الدفاعات والمكبوتات لم يعد لها الآن من دور تلعبه ومن ثم تعود لتكون فى خدمة الأنا الشعورية مما يعنى اثراء للطاقة المتاحة (الاقتصاديات النفسية) وبالتالى مزيدا من الامكانات والايجابيات والقدرة على الاستمتاع بالحياة . وغنى عن البيان أن تفسير ظاهرة الطرح للمريض يظل مستحيلا بغير حيادية المحلل (١)

---

(١) يتحتم على المحلل أن يتنبه الى الطرح السالب (الكراهية) وأن يسارع الى تحليله بحيث يفسح المجال دائما لامكانيات الطرح الموجب (المحبة) هذه التى تعتبر بمثابة القناة الانفعالية التى تتيح لاستبصارات المحلل (تفسيراته) أن تنفذ الى أعماق المريض وأن تتمخض عن تعديلات جذرية .

فما دام المحلل باتجاهه لا ينطوى على أى شيء يبرر تلك الطاقات الفياضة العشقية من جانب المريض أو تلك العدوانية المستقرة فى أعماقه تجاه المحلل فان المريض يسهل عليه أن يقتنع بأن هذه المحبة العشقية أو أن هذه العدوانية الفتاكة انما تصدر عن أعماقه الطفلية فى مواقفها التى كانتعليه من الأبوين· وأن الأمر هنا لا يزيد عن أن يكون تكرارا وطرح لها على المحلل كبـــديل أبوى · ولكن لا ينبغى أن نتصور أن فرويد قد جاء بكل بذلك من عنده دون ارهاصات مهدت له وفتحت عينيه على كثرة من الحقائق كان له فضل التنبيه اليها واقامتها فى صرح تفسيرى مكتمل ـ وسنحاول تلخيص هذه الارهاصات والكشوفات السابقة على النحو التالى :

١ ـ فشكسبير بحدسه النفاذ يقرر فى رواية هاملت بأن العقـل قواد الرغبة ، ويأتى بعد ذلك « شوبنهور » فيلسوف التشاؤم ليقرر بأن العقـــل ليس غير اركان حرب يعمل فى خدمة القيادة الحقيقية التى يسميها بارادة الحيـــاة ·

٢ ـ وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت الهيستيريا هى عصاب العصر لما كانت تستهدفه الدفاعات من نظافة الجنسية فى المقام الأول· وشاع التنويم المغناطيسى كأسلوب فى علاج الهيستريا التى تتميز أقصر ما تتميز بقابلية المريض للايحاء · ومن ثم تكون امكانية تنويمه مغناطيسيا · كان الكل يستخدم التنويم المغناطيسى وان تباينت الطرائق والنظريات فظهرت تجارب عديدة كشفت عن أن الأوامر التى يعطيها المعالج للمريض أثناء تنويمه يشرع فى تنفيذها عند استيقاظه وكأنها تصدر عن ارادة حرة وعن رغبته الخالصة · لأنه لا يذكر عند يقظته تلك الأوامر التى تلقاها أثناء تنويمه · وكان فى مثل هذه التجارب ما يؤيد بشكل قاطع حدس « شكسبير » ورؤية « شوبنهور » فالأعماق تريد وعلى العقل أن يقوم بالتنفيذ بل وبالتبرير عندما يلزم الأمر ·

٣ ـ سبق أن أشرنا الى « شاركو » الذى نبه الى أن الخبرات الجنسية هامة فى نشأة الهستيريا ولكن « جانيه » مضى الى ما هو أبعد من ذلك · قال بان المرض النفسى ينشأ عن ذكرى منسية لحادث صدمى بل تحدث صراحة عن اللاشعور ولكنه تراجع عندما تعرض للنقد ·

وكان « جانيه » فى استخدامه للتنويم المغناطيسى يمضى من أحـــدث الرقاقات النفسية الى ما هو أقدم منها فأقدم حتى يصل الى الخبرات الطفلية. وكان من المعروف أن تذكر المريض للحادثة الصدمية لا يكفى لاختفاء العرض المرضى بل لابد أن يكون التذكر مصحوبا بافراغات انفعالية لم يكن بوسع المريض فى موقفه الصدمى ذلك ، أن ينفس بالافراغات عنها ·

٤ ـ ان حكمة الشعوب التى تتمثل فى أمثالها الشائعة وفى تعبيراتها المألوفة انما تعتبر ضربا من علم النفس الضمنى · ومن الشائع فى الأمثـال المصرية أن يقال عن الشاب غير المتزوج عند وفاته ما يفيد أن الحياة الجنسية كمرادف للدنيا وللفرحة ، « مات من غير ما يخش دنيا » ·· « مات من غير ما يفرح » وحكمة الشعوب هنا تقصد الانسالية أى العلاقة الجنسية ، بينما الجنسية فى التحليل النفسى تشمل العاطفية والانسالية جميعا ، مما يوقع بعض الغافلين فى اللبس ويحملهم على انتقادات تستند الى جهلهم ·

وسوف نلتقى فى عرضنا للعقدة الأوديبية بأمثلة شعبية أخرى تكشف عن ادراك الناس منذ أقدم العصور الى تلك الحقائق التى كان لفرويد من الشجاعة ما مكنه من تبينها واقامة نظرياته استنادا اليها ·

نظرية التحليل النفسى

يرمز مصطلح التحليل النفسى الى منهج ووسيلة العلاج التى ابتدعها « فرويد » هذا الى نظرياته فى الغرائز والشخصية · فالتحليل النفسى يشير أولا الى منهج للبحث فى العمليات النفسية ، هذه التى تكاد تستعصى على أي منهج آخر · والتحليل يشير أيضا الى طريقة لعلاج الاضطرابات العصبية استنادا الى منهج البحث السابق · والتحليل يشير ثالثا وأخيرا الى هذه المعارف النفسية التى تأتلف فى جهاز نظرى جديد عن الغرائز ونضجها وعن الجهاز النفسى (الشخصية) ·

وكما سبق أن أوضحنا فقد ظهر التحليل النفسى فى السنوات الأخيـرة من القرن التاسع عشر نتيجة أبحاث ووقائع كثيرة تتعلق بالتنويم المغناطيسى والتجوال النائم والهيستريا ، هذا الى نظريات فلسفية مهدت له :

ففى الحالة الشهيرة تحت اسم « آنا » « بروير وفرويد » كان العلاج بالكلام أثناء التنويم المغناطيسى وكانت تختفى الأعراض المرضية عند التذكر « الانفعالى » للمناسبة التى ظهرت فيها الأعراض لأول مرة · وكانت طريقة هذا العلاج التطهيرى تعتمد على التنويم للكشف عن المواقف الصادمة المولدة للأعراض ، وذلك فى حركة تبدأ من الحاضر متجهة أكثر فأكثر الى الماضى · وقد حظى التنويم فى فرنسا بدراسة سيكولوجية عند « شـــاركو » وأتباعة وبدراسة كلينيكية تنصب على الآثار العلاجية عند « برنهايم » وأتباعه ، وجاء « جانيه » فقرر تأثير الذكرى المنسية للاحداث المرتبطة بالانفعالات العنيفة فى تكوين المرض · فانفصال الذكرى فى رأيه انما يرجع الى عملية آلية تنتج عن « الضعف النفسى » فهو لم يصل الى مفهوم الدينامية أى الصراع وعمليـــة الكبت مما سيأتى به « فرويد » ·

انتهى « فرويد » فى العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الى التحليل النفسى وذلك بعد عدة محاولات . فقد بدأ بالعـــــلاج التطهيرى مع « بروير » وكان يستعين بالتنويم فى الكشف عن ذكرى الحادثة الصـــادمة كشفا يحقق الافراغ الانفعالى ·

ولكن كان التنويم المغناطيسى ممكنا فقط بالنسبة الى البعض ، وكان أثر التطهير الى حين · ومن هنا التجاء « فرويد » الى اليقظة والى الايحاء للمريض أثناءها حتى يتذكر · واصطدم « فرويد » بمقاومة المريض أى بهذا الكبت الناشىء من موقفه الدفاعى بازاء النزعات غير المباحة ومن هنا برزت ضرورة تدريب المريض على الاقلاع عن كل موقف نقدى والالتزام بالخواطر التلقائية الواردة (القاعدة الأساسية أى الاستدعاء الطليق) كان على المريض أن يفصح عن كل ما يخطر بباله مهما كانت طبيعته مما يتيح انطلاق الأفكار والانفعالات الوجدانية المكبوتة ، ومما يسمح للمعالج استنادا الى الحتمية النفسية بتفسير المواد التى تخطر فى تتابعها · فيما يبدو عشـــوائيا فى تتابعه يرجع فى الواقع الى حتمية نفسية · واكتشف « فرويد » أيضا ظاهرة الطرح (التحويل) حيث يسلك المريض ـ بدلا من التذكر ـ تجاه المعالج على نحو ما كان يسلك أبان الطفولة تجاه الأبوين · والمريض بذلك يعيش ماضيه من جديد فى الحاضر فيتيح للمعالج أن يمسك بماضية ويتيح لنفسه أن يتعلم السيطرة على هذه المواقف والانفعالات هذه التى عجز فى الماضى عن السيطرة

عليها مما الجاه الى كبتها · والمحلل لا يبلغ الى ذلك الا اذا التزم بالحيادية بعيدا عن المعاملة الودية أو الصارمة ·

وتتميز الفترة الأولى من تاريخ التحليل النفسى بالاهتمام المتزايد بالمقاومة والطرح وبتحديد الأمراض التى يصلح لها التحليل النفسى ، وازدياد أهمية العقدة الأوديبية ولكن هذه الفترة شاهدت أيضا بداية الاهتمام بسيكولوجية (الأنا) ، وشاهدت انشقاق « آدلر » و « يونج » عن أستاذهما « فرويد » ·

فقد اهتم « أدلر » بالعدوان والأنا أكثر من اهتمامه بالجنسية واللاشعور بينما اهتم « يونج » باللاشعوز الجمعى والتفسير الرمزى لعقدة أوديب ·

ومن الناحية العلاجية انتقل الاهتمام عند كل منهما الى الصراع الراهن بدلا من الصراع الماضى كمحور للتحليل ·

وجاءت المرحلة الثانية فى عام ١٩٢٠ عندما اضطلع « فرويد » بتعديل فى نظرية الغرائز والجهاز النفسى · وكانت التعديلات خطيرة فى آثارها · فلم يعد التفسير يتمثل فى صراع بين الغرائز وانما فى دفاع الأنا ضد الحفزات الغريزية والانفعالات · ولم تعد الحفزات جنسية فحسب فهنالك الحفـــزات العدوانية أيضا · هذا الى الأهمية المتزايدة التى يوليها التحليل النفسىلدفاعات الأنا والعدوان مما يختلف تماما عن الصورة الجامدة الشائعة بين العامة والتى تتوهم التحليلنظرية جنسية شاملة ترد كل شىء الى الجنس وتقتصر على اللاشعور ·

نظـــرية التحليل النفسى فى الغــرائز

فى نظريته الأولى :

يميز « فرويد » بين الغرائز الجنسية التى يطلق اسم « الليبدو » على مظاهرها الدينامية وتستهدف المحافظة على النوع وبين غرائز الأنا التى تقف فى وجه الاشباع الجنسى وتضطلع بالدفاع (الكبت) استنادا الى وجدان القلق أو الاثم أو الى المثل الخلقية والجمالية للأنا · وغرائز الأنا هذه تســـتهدف المحافظة على الفرد ·

وعادة ما تتعرض الغرائز الجنسية فى سنوات الطفولة للكبت · وتتميز النزعات المكبوتة بالدينامية بمعنى أنها تجاهد من أجل التسلل الى الشعور مما يتحقق فى الأحلام والأعراض العصابية ·

وفى عام ١٩١٤ اكتشف « فرويد » « النرجسية » بمعنى أنه اكتشف الطبيعة الجنسية لبعض النزعات التى كانت تنتمى الى غرائز الأنا ، ومن هنا قام بضم الغرائز الجنسية وغرائز الأنا فى وحدة واحدة هى غرائز الحياة ·

فى نظريته الثانية :

يميز « فرويد » غرائز الحياة هذه من ناحية وغرائز الموت والتدمير من ناحية أخرى · كان فى النظرية الأولى يعتبر العدوان والتدمير تابعا للغرائز الجنسية وينتج عدم احباطها ولكن الخبرة الكلينيكية نبهته الى الطابع الأساسى الأولى الحيوى للعدوانية (١) والتدمير وغرائز الحياة تستثمر طاقاتها فى الذات « النرجسية » وتسقطها على الموضوعات الخارجية (موضوعاتية) ، وكذلك غرائز الموت فهى تستثمر طاقاتها فى الذات وتسقطها على الموضوعات الخارجية · وكل سلوك عيــــانى يمثل ائتلافا من النـــوعين فهو نرجسى وموضوعاتى ، وهو لبيدى وتدميرى · واذا كانت غرائز الحياة تستهدف البناء واقامة الوحدات فغرائز الموت تستهدف التدمير وتفكيك الوحدات · ولكن غرائز الحياة ترتد هى وغرائز الموت الى مبدأ الثبات · فاذا كانت الأولى تستهدف خفض التواترات التى يعيشها الكائن فان الثانية تستهدف خفض الحياة ذاتها من حيث هى توتر ·

نظرية التحليـــل النفسى

فى مراحل النمو كمراحل نضج للغرائز

تنحصر الفكرة الرئيسية فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) فى البدن يتمخض تنبيهها عن اشباعات لبيدية · وتتغير المنطقة الشبقية المهيمنة

---

(١) يعتبر (مخيمر) العدوانية اكثر اساسية من الجنسية · انظر الفصل الاول من رسالة ناريمان للماجستير جامعة طنطا (دراسة مقارنة لمستوى العدوانية عند العمياوات وعند المبصرات) سنة ١٩٧٩ . انظر ايضا فى (التناقض الوجدانى) مخيمر — الانجلو ·

تبعا للسن ومحتوى النمو ، فتتغير بالتالى علاقات الكائن مع ذاته ومع العالم (مراحل تطور العلاقة مع الموضوع) ·

١ - (أ) المرحلة الفمية الاستقبالية (المصية) :

تحتل الاشهر الستة الأولى من الحياة وفيها يكون المحــــور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم ، وأسلوب التعامل هو الادماج بالمص · وفى هذه العملية الاستقبالية يتحقق اشباع ليبدى يوصف بالفمية · وعندما يعانى الطفل الاحباط فانه يمنح نفسه اشباع ليبيديا فميا ذاتيا بمصة لأصبعه ·

(ب) المرحلة الفمية السادية (العضية) :

تحتل النصف الثانى من السنة الأولى · ويكون فيها المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم ، وأسلوب التعامل هو الادماج التدميرى بالأسنان لموضوع الحب (تناقض عاطفى) · وفى هذه الفترة يمكن القول بأن جميع عمليات الطفل الحسية والحركية (تعض) على العالم وتنتزع منه لتحتفظ بما تنتزعه ، وهذه السادية تجد ما يدعمها فى التواترات الناشئة عن التسنين ، وفى الاحباطات الناشئة عن الفطام ، وفى الصراعات المتصلة بتحقيق الرضاعة دون عض · وتعمل مشاعر النقمـــة على الأم . وأحاسيس الغضب الكظيم العاجز على دخول المازوشية الى المسرح الى جانب السادية · تتميز هذه المرحلة اذنبتناقض العاطفة والسادية والمازوشية وكذلك بالنرجسية لاهتمامات الطفل المنصبة على جسمه ·

٢ - المرحلة الاستية السادية :

تحتل العامين الثانى والثالث ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعـــامل مع العالم هو الاست ، وأسلوب التعامل هو القذف «الليبيدى للعمود البرازى» أو « الامساك » به ويتحقق الاشباع اللبيدى بتهيج الأغشية المخاطية للاست وبتفريغ المادة البرازية · وحيث أن المادة تتعرض لاحتجازها أو قذفها فان الطفل يمارس بذلك تناقض العاطفة ، وحيث أن عمليات الاخراج تنطوى على دلالية تدميرية ، وحيث أن العضلات العاصرة تتيح للطفل اثناء تعلم النظافة

امكانية معارضة للكبار فان هذه المرحلة تتميز بالسادية ، وكذلك تتميز هذه المرحلة بالجنسية الثنائية حيث لم تتمايز بعد الذكورة والأنوثة (البراز أول عطاء من الطفل للعالم) ٠

مرحلة العضـو الذكرى

العقـــدة الأوديبية (وعقدة الخصاء)

كان الطفـل حتى الآن تنحصر علاقته بالعـــالم فى علاقته بأمه بشكل أساسى ٠ كان فى البداية يتجه اليها بفمه ثم بعد ذلك بأسته ولكن الليبدو انتقل الآن بتركيزه من الاست الى العضو الذكرى ونعنى القضيب عند الصبى والبظر عند الصبية ولكن ما من ادراك حتى الآن للفارق بين الجنسين ٠ ولما كان التطور يختلف عند الصبى الصغير عنه عند البنت الصغيرة فسوف نلخص ذلك فى الجدول الآتى : ـ

الصبية الصغيرة	الصبى الصـــغير
١ ـ تتجه الى أمها ولكن ببظرها التى تعتقد أنه قضـــيبها ، تريد أن تختـــرقها وتريد أن تكون لها دون غيرها ، ومن هنـــا يحدث تناقض وجدانى تجاه الأب فهى تحبه ولكن فى نفس الوقت تكرهه كمنافس لهـــا فى الأم (عقدة أوديبية ايجـــابية سالبة الاتجاه وهى ليست العقـــدة الحقة عند البنت) ٠	١ ـ يتجه الى أمه ولكن بقضيبه يريد أن يخترقها ويريد أن تكون له وحده دون شريك ومن هنا يحدث تنـــاقض وجدانى تجاه الأب فهو يحبه ولكن فى نفس الوقت يكرهه كمنافس له فى الأم (عقدة أوديبية ايجابية موجبـة الاتجاه وهى العقدة الحقة عنـــد الصبى) (١) ٠
٢ ـ تدرك الفارق بين الجنسية ، وحسبما تكون استجابتها لخصائصها يكون نمطها الأنثوى (٢) ٠ ولكننا سوف نتابع التطور هنـــا بالنسبة الى الأنثوية المهبلية وتعرف هذه المرحلة باكتشاف الخصاء ٠	٢ ـ يدرك الفارق بين الجنسين ، ويبدأ يشعر بالخـــوف على قضيبه ويخشى أن ينزل به نفس العقاب الذى نزل باخته أى الخصاء كعقوبة عـلى رغبته فى العدوان على أمه بقضيبه ٠ وعملية الختان تزيد منشعور الصبى بتهديد الخصاء فهو فى هذه المرحلة فقط يدرك ما يحدث فى الختان حتى لو كان ختانه يحـــدث بعد ميـــلاده مباشرة ٠ ذلك هو ما يعرف بمخاوف الخصاء عند الصبى ٠

(١) تكون العقدة ايجابية عندما يكون الطفل فعالا بمعنى أنه يريد أن يخترق بقضيبه ، بينما تكون العقدة سلبية عندما يكون الطفل متلقيا للفعل مما يقابل فى الانجليزية (Active-Passive) وتكون العقدة موجبة الاتجاه عندما يكون الطفل والشخص الاخر من جنسين مختلفين بينما تكون العقدة سالبة الاتجاه عندما يكون الطفل والشخص الاخر من نفس الجنس مما يقابل فى الانجليزية (Possitive-Negative)

(٢) عند بداية هذه المرحلة تكون الام هى موضع الحب ويكون الليبدو مركزا فى البظر ومن هنا تكون الاحتمالات كما يلى :

(أ) اما أن تتشبثعلىالرغم منادراكها لخصائها بحبها لامهـــا كما تتشبث ببظرها كقضيب بحيث يظل الليبدو مركزا عليه ٠ وفى هذه الحالة تصبح البنت (جنسية مثلية) لا تشتهى غير النساء ٠

(ب) واما أن تنقم البنت على امها لانها هى التى ولدتها مخصية وتتحول بالحب الى ابيها فتكون فى هذه الحالة (جنسية غيرية) لا تشتهى غير الرجال ٠

ولكن يوجد احتمالان فى هذه الحالة : ـ

- فهى اما وقد تحولت من أمها الى أبيها تظل تشتهى الأب ببظرها أى تتشبث بالبظر كقضيب ويظل اللبيدو مركزا عليه وفى هذه الحالة تكون جنسية غيرية من نمط المنافحة وتعنى هذه أن التى تشتهى الرجل على انها رجل وتكون حياتها الزوجية فى المستقبل عراكا بين ذكرين أو كما قال الرسول « بين وعليه » أو كما يقال بالعامية « بين ديكين » ٠ ومثل هذا النمط المنافح من النساء تبذل كل جهدها للانتصار على الرجل والتفوق عليه حتى فى المجال المهنى لتثبت أن بظرها الصغير اكثر فعالية من قضيبه ٠
- أما الاحتمال الثانى فهو أن البنت وقد تحولت بالحب عن أمها الى أبيها ، تتخلى عن البظر ويسقط الليبدو من البظر الى فتحة المهبل بحيث ترغب فى أن تحصل من أبيها عن طريق الحمل على ذكر فيكون فى خروج القضيب من احشائها ما يعوضها عن القضيب الذى لم يكتب لها وفى هذه الحالة تكون الجنسية الغيرية من نمط المهبلية وهى الانثوية المكتملة ٠

(جـ) وأما أن تشعر البنت بالظلم بعد اكتشافها لخصائصها فتتوقف عن حبها لأمها ولكن لاتتحول الى أبيها ، وتتخلى عن بظرها ولكن دون أن يسقط الليبدو الى مهبلها انها باختصار تتنازل عن مجال الجنسية وتصبح كعاملات النحل النشيطة ومفيدة من الناحية الاجتماعية ولكن بلا جنسية وفى هذه الحالة تكون « المتبلدات » اللائى عادة ما ندين لهن بالكثير من الخدمات فى الصليب الأحمر وما الى ذلك ٠

تلك هى الأنماط الممكنة للأنوثة عند « فرويد » ٠

ولكن « مخيمر » فى كتابه « فى التناقض الوجدانى » يرفض نمط المهبلية الخالصة ويقول بنمط جديد هو نمط المهبلية صاحبة القضيب السيكولوجى وهذا النمط يتقبل انوثته بشكل مكتمل ضمن حدود العملية الجنسية ولكنه فيما عدا ذلك لايختلف عن اكثر الرجال ايجابية ونجاحا متفوقا ٠

ويتبقى أن نذكر أن فرويد لايقتصر على هذه الأنماط فهو يذكر أن نمط البظرية ـ المهبلية هو اكثر ما يكون شيوعا وهو نمط يجمع بين الاحتمالين الممكنين من احتمالات الجنسية الغيرية التى شرحناها فى البند (ب) ٠

الصبي الصغير :	الصبية الصغيرة :
٣ ـ انقاذا لقضيبه من الخصاء ، يتنازل عن أمه متجها فى حب زائف وسلبية مفتعلة الى أبيه يتوحد معه فيأخذ عنه قيمه واتجاهاته . وينتج عن هذا « الاستدخال» نشأة الأنا العليا لديه (عقدة أوديبية سلبية سالبة الاتجاه وتسمى بعقدة صبى المعلم .	٣ ـ تعزف البنت عن أمها ناقمة عليها وتتجه بالحب الى أبيها ومن هنا تكون مظاهر مسرفة تعبر عن عشقها لأبيها وكراهيتها لأمها تماما كالمرحلة (١) عند الصبى (عقدة أوديبية سلبية موجبة الاتجاه وهى العقدة الحقة عند البنت .
٤ ـ لا يلبس الصبى الصغير وقد تشرب من أبيه « الصنعة » عن طريق التوحد ، حتى يعزف عن الأب ولكنه لا يستطيع العودة الى أمه لما ينطوى عليه ذلك من تهديد بالخصاء . ومن هنا يتجه الى ابنة الجيران وتتم بذلك تصفية العقدة الأوديبية (وفى حالة ماينتقل الصبى من أمه الى اخته يكون عليه أن يتابع التطور حتى يعزف تحت ضغط الأنا العليا التى تكونت عن اخته الى ابنة الجيران أو غيرها كموضوع غير محارمى.	٤ ـ تخاف البنت من فقدان حب أبويها نظرا لأن الأم والأب لا يرضيان عن مظاهر عشقها المسرف لأبيها ولا عن مظاهر كرهها المسرف لأمها ومن هنا تعزف البنت نسبيا عن أبيها متجهة بالحب الزائف وبالسلبية المفتعلة الى أمها تتوحد معها وتأخذ عنها قيمها واتجاهاتها وينتج عن هذا التوحد نشأة الأنا العليا لديها (عقدة أوديبية سلبية سالبة الاتجاه وتسمى بعقدة صبية المعلمة) .

الصبى الصغير	الصبية الصغيرة
٥ ـ	٥ ـ لا تلبث البنت الصغيرة وقد تشربت « الصنعة » عن طريق التوحد ، حتى تعزف عن الأم ولكنها لا تستطيع العودة الى الأب خوفا من فقدان الحب ، ومن هنا تتجهالى ابن الجيران وتتم بذلك تصفية العقدة الأوديبية (وفى حالة ما تنتقل البنت من أبيها الى أخيها يكون عليها ان تتابع التطور حتى تعزف تحت ضغط الأنا العليا التى تكونت عن أخيها الى ابن الجيران أو غيره كموضوع غير محارمى) ٠

ملاحظات عن الأوديبية

١ ـ العقدة الأوديبية ليست بمصيبة أو بمرض . فالعقدة لا تعنى التعقيد complication (أى الكلاكيع) . بل تعنى عدم البساطة والثراء . فالكلمة الانجليزية complix هى عكس simple ومن هنا توصف الأوديبية بأنها عقدة انما يعنى عدم بساطة العلاقات التى أصبحت الآن غير قاصرة على الأم بل تشمل الأب وغير قاصرة على الحب أو الكراهية بل تشمل التناقض الوجدانى الذى هو حب وكراهية معا لنفس الشخص .

وعليه فالعقدة الأوديبية ليست بكارثة تنزل على الطفل ، بل هى موقف حيوى يتحتم على كل طفل أن يعيشه ومتى تمكن الطفل من تصفيته يكون قد أرسى بذلك دعائم سويته الى آخر العمر . بينما اذا عجز الطفل عن هذه التصفية يكون قد أرسى بذلك دعائم مرضه المقبل . ذلك أن الصبى الصغير مثلا عندما يتنازل عن أمه يكون بذلك قد تعلم أن يتنازل عن مبدأ اللذة احتراما لمبدأ الواقع ، وذلك لأنه يكون قد تعلم التنازل عن أول موضوع حبيب وعن أعظم موضوع حبيب لديه ، وبالتالى يسهل عليه بقية عمره أن يتنازل عن أى شىء احتراما لمبدأ الواقع . انه يكون بذلك قد تعلم التسامح تجاه أعظم التوترات والاحباطات وليست السوية غير قدرة المرء على تحمل غدر الأيام والليالى وأكثر من ذلك أن التفكير يكون مستحيلا بغير قدرة الفرد على تأجيل الاستجابة مما يعنى القدرة على التسامح تجاه التوترات ، مما يمكنه بنوع من التجريب من توقع النتائج المقبلة . وعلى العكس من ذلك فى حالة الطفل الذى يعجز عن تصفية الموقف الأوديبى ، ففى هذه الحالة يكون من المستحيل عليه بعد نشأة الأنا العليا لديه أن يستمر فى الشعور بحفزاته ورغباته المستهجنة ومن هنا تقوم الدفاعات بكبتها أى باستبعادها من الشعور واعادتها من حيث أتت الى جهاز « الهى » بل وتسد عليها الدفاعات طريق العودة من جديد الى الشعور بذلك تكون العقدة الأوديبية قد انكبتت أى أصبحت لاشعورية ، فبذلك يتكون العصاب الطفلى الذى هو بمثابة « البذرة » التى لابد منها لتزهر فى المستقبل شجرة المرض النفسى أو العقلى .

ومن هنا يعتبر التحليل النفسى العقدة الأوديبية بمثابة المرحلة الحاسمة التى يتقرر فيها مصير الشخصية ، ليس فقط من حيث السوية أو اللاسوية

بل وأيضا من حيث نمط الذكورة أو الأنوثة · فهى موقف حيوى يتحتم على كل طفل أن يعيشه وحسبما تكون استجابته يكون مصيره ·

٢ — يتضح من جدول العقدة الأوديبية أن الصبى « ينخلع » من أمه بأكثر مما تستطيع البنت أن « تنخلع » من أبيها فالأب يظل فى رأى فرويد الحبيب الأول فى قلب كل فتاة بحيث يكون العشيق الزوج فى أحسن حالاته رقم (٢) ويرجع ذلك الى أن الصبى يعانى التهديد بالخصاء مما يرغمه على أن « ينخلع » من أمه بينما لا تتعرض البنت الا للخوف من فقدان الحب الذى لا يقاس فى تأثيره بالتعرض للخصاء وما ينطوى عليه ذلك من فقدان للقضيب الذى يمثل فى ذاته قيمة نرجسية للصبى الصغير · وربما يتفق مع هذا الأمر ما نجده من قدرة الرجل على حب المرأة بشكل مكتمل ، بينما يظل الرجل بالنسبة الى المرأة نوعا من المرآة « يعكس لها بتلهفه عليها مدى قيمتها النرجسية » وربما يعبر المثل الشعبى عن ذلك فى قوله « انه عنيف ولكنه معى مجرد خاتم فى اصبعى » ولا يخفى ما ينطوى عليه المثل من اشارة الى الجنبات السادية عند المرأة (أنظر الفصل الرابع من « رسالة فى سيكولوجية الحب » . أنظر أيضا « فى التناقض الوجدانى ») ·

٣ — ينبغى التنبيه الى أن جدول العقدة الأوديبية السابق لا يمثل الا صورة مثلى لما يمكن أن يكون عليه الأمر وذلك عندما يتوحد الابن مع أبيه وتتوحد البنت مع أمها مما يلخصه المثل الشائع فى قوله « اكفى القدرة على فمها تتطلع البنت لأمها » ، فهناك كثرة من الصور الأخرى التى يمكن أن يتخذها التوحد · ففى حالة ما يكون الصراع قويا بين الطفل ووالده من نفس جنسه ويعجز الطفل عن فض الصراع فانه غالبا ما يتوحد مع نقيض قيم والده الذى من نفس جنسه ومع نقيض اتجاهاته بحيث يكون فى مستقبله نقيضا له ومخيبا لأمله · ذلك ما يعبر عنه المثل الشعبى القائل « يخلق من ظهر العالم فاسد ومن الفسيخ شربات » ومن الممكن أيضا أن يكون التوحد متقاطعا بحيث يتم لا مع الوالد من نفس الجنس بل مع الوالد من الجنس الآخر فتتوحد البنت مع أبيها (وتصبح ذكرية) ، ويتوحد الابن مع أمه (ويصبح أنثويا على النحو الذى نشهده عند الخنافس والهيبز) ·

فحرمان الطفل من حب الوالد الذى غير جنسه يجعله يتوحد معه ،

وكذلك فان الطفل يميل الى التوحد مع الوالد الأقوى من والديه والذى يملك القرارات والتنفيذ · ولكن الأمر ليس بهذه البساطة · وفي حالات أخرى يكون التوحد غير مباشر فلا يتوحد الابن مثلا مع واقع أبيه بل يتوحد مع الصورة التى يريدها الاب له ويعمل على تحقيقها · وهكذا يتحتم فى كل حالة فردية أن نتبين الصورة الفريدة التى تتخذها العقدة الأوديبية فى هذه الحالة بالذات ، وبغير ذلك يكون مفهوم العقدة الأوديبيـــــة عقيما عديم الجدوى ·

٤ ـ ينبغى التنبه الى الجنسية الثنائية واثرها على الصور الممكنة للعقدة الأوديبية · فكل فرد ينطوى على عنصر الذكورة (السادية) وعلى عنصر الأنوثة (المازوشية) ومن هنا تغلبت السادية وكانت الذكورة بالتالى قوية يظل هناك قدر من المازوشية · فمعنى هذا أن كل فرد لديه عقدة أوديبيـــة ذكرية أو عقدة أوديبية انثوية · فالصبى الذى تغلب عنده السادية تكون لديه عقدة أوديبية « معدولة » أى ذكرية غلابة · ولكن تكون لديه فى نفس الوقت عقدة أوديبية « مقلوبة » أى انثوية باهتة ويترتب على ذلك أن يكون لدى الفرد الواحد ـ وان يكن بدرجات مختلفة ليس فقط حسد القضيب بل وأيضا حسد المهبل مما يتيح المصالحة بين فرويد وبين ميلانى كلاين ·

٥ ـ هذا التعدد فى الانتظامات والتجسدات التى يمكن أن تتخـــذها العقدة الأوديبية يزداد بما يفوق كل تصور عندما نضع فى اعتبـــارنا ذلك التعميم الذى أدخلته مرجريت ميد على التصور الفرويدى للعقدة الأوديبية · فقد قامت بحق بتطبيق المنهج الجاليلى فى تناول الوقائع وتمكنت من البلوغ الى نمط العلاقة المثالية هذا الذى ينحصر لديها فى أمرين :

(أ) فترة التباعدية الطويلة التى يعيشها الطفل البشرى تجاه أبويه بالقياس الى عالم الحيوان ·

(ب) النضج الجنسى الباكر الذى يتيح للأطفال أن يعيشوا خبرات جنســية مليئة قبل أن يكون لهم أى نضج فسيولوجى فى أجهزتهم التناسلية ، وهذه الظاهرة وحدها تكفى عند ميرلو بونتى لتقييم علم النفس كعلم مستقل عن الفسيولوجيا · هذان العنصران هما اللذان يشكلان نمط

العلاقة المثالية وهما اللذان يتجسدان فى تشكيله من التجسدات لانهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية • ومن هنا فان الصورة التى قدمها فرويد عن العقدة الأوديبية ليست غير التجسيد الذى يتخـــذه هذان العاملان فى الحضارة الغربية بل وفى نهاية القرن التاسع عشر ، ومن هنا فان مرحلة الكمون التى يتحدث عنها فرويد ليست غير نتاج للثقافة العربية بحيث لم يعدلها اليوم وجود حقيقى حتى فى الثقافات الغربية•

٦ ـ ان افتراض اللاشعور الجمعى الذى قال به « يونج » يبدو بالنسبة الينا عنصرا ضروريا لتصورنا عن العقدة الأوديبية ، وذلك فى الحالات التى ينشأ فيها الطفل بغير أبوين فى احدى المؤسسات فى مثل هذه الحالة تكون العلاقة مع المشرفة كبديل أموى أو مع المشرف كبديل أبوى من الضعف بحيث لا تكفى لتفسير قيـــام العقدة الأوديبية عند مثل هؤلاء الأطفال ولما كان اللاشعور الجمعى بما ينطوى عليه من (ارشيتيات) يختزن خبرة الســلالة يكون بوسعه أن يسد الثغرات فى الخبرة الفردية • وقد اثبت علم النفس التجريبى فى تجاربه على الحيوان انتقال التعلم عبر الأجيال ، مما يؤيد الى حد كبير اللاشعور الجمعى •

٧ ـ لا ينبغى أن ننظر الى العقدة الأوديبية على أنها شىء مستمر على الرغم من انتمائها الى الأساطير اليونانية • فكل ما تنطوى عليه هذه التسمية من مضمون ينحصر فى أن النمـــاذج الأصلية الأولى Prototypes لعلاقات الطفل بأبويه أى بالكبار من الجنسين « وباخوته » أى بأقرانه من الجنسين تكون حاسمة الأثر فى تشكيل الشخصية • فهذه النماذج الأولى لعلاقاته مع الكبار والأقران ينقلها الطفل بمعنى أنهـــا تلقى التعميم بلغة السلوكية أو تلقى الطرح بلغة التحليل النفسى فيعامل الطفل كل رجل كبير كما يعامل أباه وكل امرأة كبيرة كما يعامل أمه ويعامل أقرانه فى المدرسة أو الشارع كما يعامل أخوته تبعا للجنس فى كل حالة • وهذا ما تســـميه السلوكية بانتقال أثر التدريب •

ويفسر فرويد هذه الظاهرة بتشبيهها بما يحدث للنبتة الصغيرة عنـد وخزها بدبوس وما قد ينجم عن ذلك من ذبولها أو موتها ، بينما نفس هذه

الوخذة لا تترك أثرا يذكر لو أن النبتة كبرت وأصبحت شجرة فالسنوات الأولى من الحياة حاسمة فى تحديدها للشخصية واختلالها · ونفس هذا الامر تسلم به السلوكية بل يسلم به الفهم الشعبى عندما يقرر ان التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ولكن السلوكية تتحدث عن ذلك بلغة المنعكسات التشريطية والعادات سيان فى ذلك أن تكون التشريطات كلاسيكية على طريقة بافلوف أو تشريطات اجرائية وسيلية أدواتية على طريقة ثورنديك وسكينر وفى راينا أن مفهوم العقدة الأوديبية لا ينبغى أن يقتصر على السنوات التى حددها فرويد بين الثالثة والخامسة ، كما لا ينبغى ان يقتصر على السنتين الأوليين من العمر على النحو الذى تقول به ميلانى كلاين والمدرسة الانجليزية، فكلاهما يبدو على حق · ذلك أن الاوديبية فى رأينا تبدأ منذ بداية الحياة بل وتمضى بعد الخامسة والسادسة الى البلوغ والمراهقة وكل ما فى الأمر أن محور الأوديبية يكون فى البداية هو الفم ثم يصبح فى بعض الثقافات هو الأست ثم ينتهى الأمر الى ان يكون المحور هو العضو الذكرى بذلك تكون العقدة الأوديبية مجرد مفهوم ـ مفتاح ـ يعيننا على فهم الوقائع ولا ينطوى فى رأينا على أكثر من النماذج الأصلية الأولى للعلاقات مع الآخرين بل العلاقات مع الحياة باحيائها واشيائها · وغالبا ما تميل هذه النماذج الأصلية الأولى الى المثابرة والاستمرار مع الزمن ولكن احيانا ما تتعدل نتيجة لخبرات الفرد أو نتيجة للعلاج النفسى الذى يكاد يقتصر على تصحيح هذه النماذج الأصلية الأولى التى كانت دعامة للمرض، ومن ثم يفتح الباب فسيحا أمام الحياة السوية ·

ملحـــوظة :

السادية هى أن يشعر الفرد باللذة عند ايلامه للآخرين مما يسميه يونج (انيموس) ، أما المازوشية فهى أن يشعر الفرد باللذة عندما يعانى الألم مما يسميه يونج (أنيما) · وفى علم النفس لا تتحدد الذكورة أو الأنوثة بالرجوع الى الاساس التشريحى (وجود قضيب أو مهبل) بل تتحدد بتغلب السادية فتكون الذكورة أو تغلب المازوشية فتكون الأنوثة ولكن مهما كانت غلبة أحد العنصرين يظل العنصر الآخر قائم ·

٤ ـ مرحلة الكمون : تحتل الفترة ما بين السادسة والبلوغ · وفيها

تضعف الحفزات الغريزية بفضل الأوضاع الثقافية ويسـقط حجاب من النسيان (امنيزيا الطفولة) • ينسى الطفل الانحراف المتعدد الأشـكال ويستدخل المبادىء الأخلاقية جاعلا منها سدود حاجزة فى وجه الغرائز •

ومن هنا فعندما تعود الغرائز الجنسية الى الظهور مع البلوغ تفاجئها هذه السدود الأخلاقية التى لم تعرفها فى الماضى • وخـلال مرحلة الكمون لاتتلاشى الغرائز الجزئية (النزعات الفمية والأستية والسادية والمازوشـية والاسكوبتوفيليه والاستعراضية) بل تتكامل فى الحالات السوية تحت راية الجنسية التناسلية التى يعد الجماع ادارتها التنفيذية الى الافراغ •

ومراحل النمو هذه عند « فرويد » ترتبط ارتباطا وثيقا بنشأة الأمراض العصابية فعندما يعانى الطفل افراطا أو تفريطا فى اشباع فى مرحلة من المراحل فانه يعانى التثبيت عندها وهذا التثبيت الغريزى هو الذى يتيح عودة النزعات المكبوتة وهى النزعات المميزة لهذه المرحلة التى يتم عندها التثبيت• ويحدث ذلك عندما يواجه الفرد موقفا يناله بالاحباط الشديد ، فيكون بالتالى نكوصه الى نقطة التثبيت ليجيب عن الموقف الذى عجز عن مواجهتـه كراشد ، باستجابة طفلية يكرر فيهـا الماضى • ذلك هو صميم الأمراض العصابية والانحرافات الجنسية •

هذه النظرية التى قدمها « فرويد » عام ١٩٠٥ ولحقت بها التعديلات بعد ذلك انما تقدم خطوطا عريضة لبعض المحطات الرئيسية التى يمر بهـا النمو • وليست هذه المراحل نتاجا حتميا لعملية بيولوجية داخلية بل انها تتوقف الى حد كبير على نوعية التأثرات البيئية عامة والثقافية خاصة على نحو ما تتجسد هذه وتلك فى الاطار الأسرى من حيث هو مسطح ثقافى محلى يتحدد بدرجة كبيرة بالمرجوع الى الوالدين ممثلين للمجتمع كعميلين للثقافة لهما فهمهما الخاص وشخصياتهما المتميزتان •

« تربية الغرائز »

ان التطور الذاتى للغرائز بصورة داخلية ومن تلقاء نفسها مسـألة يستحيل التسليم بها فى حالة الانسان ، فلابد من تعديل التطور الغريزى على

نحو يسمح للأفراد بالتكيف مع الأهداف النوعية لمجتمعهم · ذلك هو ما يمكن التعبير عنه بالانتقال من مبدأ اللذة الى مبـــدأ الواقع أو بعملية التطبيع الاجتماعى ، وما يلحق بها من تطابقات أو ما يعرف بالعمليات الثانوية أو ما يسميه البعض بالتعلم والبعض بالتربية ·

صحيح أن مصدر الغرائز ثابت ولكن موضوعها وهدفها ينفتحان فى مرونة للتأثيرات البيئية · فالفطام ازاحة من الثدى الى « البزازة » فالى الطعام ، والعقوبة البدنية يمكن أن تقلب السادية الى المازوشية ·

والتصعيد اعلاء لموضوع الغريزة وهدفها الى ما يعد أكثر سموا من الناحية الاجتماعية فلا يكون الهدف غريزيا ·

وعليه فالغرائز وان قامت بدور تكيفى عند الحيوان فانها تعجز عن ذلك عند الانسان فلابد اذن من التطبيع الاجتماعى والتعلم · وفى هذا ما يجعل مسئولية التكيف وظيفة للأنا ، ومن هنا فان « فرويد » يرجع الحضـــارة وتطورها الى هذا التطبيع الاجتماعى الذى ينال الغرائز ، فينقلها من مبدأ اللذة الى مبدأ الواقع · فالعلم ترجمة نموذجية لمبدأ الواقع وليست التربيــة غير تراجع مضـــطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع · وأما الفن فنمط فريد يصالح ما بين المبدأين · فالفن بعد عن الموضوعية الى الذاتية التى تتحـول بمشاركة الناس الى موضوعية جديدة ·

نظرية التحليل النفسى فى الشخصية

فى نظريته الأولى :

يقتصر « فرويد » على تقديم الكيفيات الثلاث التى تتخذها العمليات النفسية فهناك العمليات الشعورية وقبل الشعورية واللاشعورية · واذا كانت العمليات قبل الشعورية كامنة الا أن صاحبها يستطيع بشىء من الجهد أن يستحضرها الى الشعور ولكن هذا يستحيل بالنســـبة الى العمليـــات اللاشعورية ·

كان « فرويد » يتصـــــور الصراع على انه صراع ما بين العمليات

الشعورية والعمليات اللاشعورية حتى تبين عن طريق الخبرة الكلينيكية ، أن ما هو لاشعورى ليس بالضرورى مكبوتا مما يتضح بشكل بارز فى حالة القوى الكابتة (ميكانيزمات الدفاع) التى تعمل على نحو لاشعورى ، وقد مهد ذلك لنظريته الثانية فى تركيب الجهاز النفسى وفى نظريته الثانية :

يقرر « فرويد » أن الجهاز النفسى يشتمل على ثلاث منظمات فرعية :
الهى ـ الأنا ـ الأنا العليا ٠
أولا ، جهاز الهى :

يمثل الصورة الأولى للجهاز النفسى فهو المادة الأولية التى يتمايز منها الجهازان الآخران ٠

ويشتمل جهاز الهى على القوى الغريزية وعلى المكبوتات من خبرات وحفزات ووجدانات وأفكار اعيدت ثانيا الى الهى دون أن تدخل الشعور (كبت أولى) أو بعد أن بلغت الشعور (كبت ثانوى) وكذلك يشتمل جهاز الهى على أخاييل مثل تراث السلالة البشرية وتقوم على سد الثغرات فى الخبرة الفردية ، وهذا هو اللاشعور الجمعى فى مقابل اللاشعور الفردى السابق ذكره وحفزات الهى دينامية تجاهد من أجل الاشباع أى البلوغ الى الشعور وذلك بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى ٠ فجهاز الهى هو مملكة مبدأ اللذة فلا تناقض ولا علاقات منطقية أو زمانية ٠ ومن هنا تكون امكانية تكثيف المتناقضات وامكانية الازاحة وما الى ذلك من عمليات أولية (النمط الأولى) تظهر فى عمل الحلم وتخصص منطق الهى فاللاشعور لايعرف النفى أو الشك أو التناقض والحفزات الغريزية حين تكون مقبولة من الأنا لاتلقى معارضة . وبالتالى لايكون الشعور بها فى صورة صراع أما حين تلقى معارضة من الأنا فيكون الدفاع ومن ثم يكون الصراع ٠ هذه الدفاعات هى التى تحول دون الدوافع اللاشعورية المكبوتة وتمنعها من البلوغ الى الشعور ٠ ومن هنا تكون :

١ ـ أهمية الأحلام اذ تضعف رقابة الشعور أثناء النوم ٠

٢ ـ أهمية الهفوات والافعال الأعراضية اذ تضعف رقابة الشعور بفعل التعب أو الشرود ٠

٣ - وأخيرا أهمية الاختبارات الاسقاطية اذ تتيح المثيرات بعدم تحددها من فرص التأويل ما يسمح للدوافع اللاشـــعورية بأن تفلت فتندس فى الاجابات فدلالة الموقف تستغلق على الشـــعور ومن ثم لا تتحرك الدفاعات ٠

ثانيا : جهاز الأنا :

ينشأ اشتقاقا من جهاز الهى نتيجة احتكاكه بالواقع ويشتمل جهـــاز الأنا فى جانبه الشعورى على كل ما نشـــــعر به من ادراكات وعواطف وانفعالات وتفكير منطقى ٠٠ الخ ٠ بينما يشتمل فى جانبه قبل الشعورى على الذكريات والمعارف الكامنة فقبل الشعور هو أشـــبه ما يكون بمخزن يزود الشعور بالذكريات التى تلزمه ٠ ولكن فى رقابة منــــه بحيث لا تفلت من الذكريات أو الحفزات ما يثير عند الفرد مشـــاعر الاستهجان أو أحاسيس الخطر ٠ ويخضع ما قبل الشعور لمبدأ الواقع ، أما الجانب اللاشعورى (١) من جهاز الأنا فيضم ميكانيزمات الدفاع التى هى القوى الكابتة وجهاز الأنا هو مملكة مبدأ الواقع فهو يضطلع بتحقيق التكيف بين الشخصية والعالم الخارجى ، وداخل الشخصية بين حاجاتها المتصارعة ٠

كذلك تضطلع الأنا بتنظيم الوصول الى الشـــعور والسماح بالتعبير الحركى فهى تتحكم فيما ينبغى ادراكه او فعله ٠ كما تضطلع الأنا بالتوجيه « وجدولة » الدوافع والأنشطة وتعديل مستوى التطلع وفى هذا كله تسعى ليس فقط الى خفض التوترات بل أيضا وما أمكن الى تحقيق الامكانيات ٠ ولكنها فى وظائفها هذه تتعرض لضغوط الهى والأنا العليا مما قد يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يكفها عن العمل ٠

ثالثا : جهاز الأنا العليا :

ينشأ اشتقاقا من الأنا ، بمعنى أنه تعديل للأنا يتم عن طريق استدخال

---

(١) فيما يتصل باللاشعور ، ينبغى التنبه الى انه افتراض لابد منه لفهم الظواهر الشعورية هذا الى كثرة من الوقائع تحتم القول بدوافع لاشعورية ، فالاوامر التى تعطى اثناء التنويم ينفذها الشخص بعد ان يصحو وكأنها نابعة من محض رغبته واختياره الحر ٠ وفهم الاحلام والهفوات والافعال الاعراضية يستحيل بغير افتراض الدوافع اللاشعورية وكذلك بالنسبة للاعراض المرضية ٠

دوافع الكبت واستدخال الصورة المثالية للوالد من نفس الجنس ابان التوحدات التى تحدث عند تصفية الصراع الأوديبى ، مما يتمخض عن نشأة الضمير الخلقى · واما المثل الأعلى للأنا فصورة معدلة للوهم الطفلى فى تملك القدرة المطلقة وقد تشكلت بفعل التوحدات اللاحقة · واذا كان الضمير الخلقى هو المرجع فى تقدير الذات من حيث البراءة او مشاعر الاثم والاشمئزاز والخزى فان المثل الأعلى للأنا هو المرجع فى تقدير الذات من حيث الشعور بالكفاية والرضى عن الذات · وتضطلع الأنا العليا بوظيفة هامة اذ أن تحالفها مع الأنا هو الذى يضمن الدفاع ضد الغرائز ، ولكن يتبدى نشاط الأنا العليا بشكل بارز فى حالة ما تكون فى صراع مع الأنا فتعمل على انماء مشاعر الاثم والاشمئزاز ·· الخ ، بحيث تجعل الحياة فى بعض الحالات جحيما لايطاق (كما فى السوداوية) · ذلك أن الأنا العليا حين لا تكتمل نشأتها على نحو صحيح يغلب عليها المنطق الفج وتتسم بالسادية فى تعاملها مع الأنا ·

المفاهيم - المفاتيح للتحليل النفسى (ميتاسيكولوجيا)

١ - الدينامية :

يعنى هذا المفهوم الكل العضوى أى الجشطلت فى مقابل الكل الذراتى أى الاضافى · فالظاهرة النفسية من حيث هى كل كانت تعتبر قديما بمثابة تجميع لعدد من الأجزاء · لم يكن الكل أكثر من حاصل جمع لهذه الأجزاء التى لم تكن فى واقع الأمر تزيد على « كسر » لاعلاقة فيما بينها · ولكن تطور علم النفس وخاصة مع نظرية الجشطلت قد انتهى به الى ان يتبين ان الظاهرة النفسية هى كل عضوى ، كل دينامى جشطلت ، فالكل النفسى ليس حاصل جمع الأجزاء « كسر » بل هو هذا الانتظام الذى ينتج كمحصلة للصراع بين جميع الأجزاء الحقيقية العضوية فالحلم من حيث هو سلوك ليس غير محصلة للصراع بين قوتين : مكبوتات تريد أن تخرج ودفاعات تعترض طريقها فى صورة رقابة وبذلك يكون الحلم اشباعا للمكبوتات ولكن على نحو من التنكر احتراما للدفاعات · تلك كانت البداية التى كشفت لفرويد الطريق الى فهم الأعراض المرضية ، فهى ليست غير محصلة للصراع بين المكبوتات والدفاعات وكذلك الحال فى السلوك السوى بل وبالنسبة الى الشخصية برمتها · ذلك هو المعنى الدقيق والكامل للدينامية ·

٢ ـ الوظيفية :

يعنى هذا المفهوم الكل الوظيفى فى مقابل الكل الميكانيكى فالظـاهرة النفسية كانت تعتبر قديما بمثابة كل ميكانيكى تتابع فيه الأجزاء (المنعكسات) فى آلية تجهل كل هدف أو قصد أو دلالة • تلك كانت السلوكية الواطسونية ولكن تطور علم النفس انتهى به مع كل المدارس الى ان يتبين أن الظـاهرة النفسية هى فى صميمها وظيفة وهدف •

فالظاهرة النفسية هى كل وظيفى ، هى وحدة وظيفية •

والسلوك هو فى صميمه تلك الوظيفة (١) التى يسعى الى تحقيقها • ذلك ما انتهت اليه السلوكية بعد واطسن •

ولكن التحليل النفسى لم يقف عند ذلك • فقد تبين أن السلوك المختل ينطوى هو أيضا على وظيفة بل وعلى أكثر من وظيفة لأن السلوك غالبـــا ما يرجع الى أكثر من سبب (التحتيم بأكثر من سبب) • وقد امعن التحليل النفسى فى ذلك الى حد الذى جعل منه النظرية الوظيفية لاختلالات السلوك •

الى هنا تجمع مدارس علم النفس كلها • فالدينامية والوظيفية مفهومان أساسيان فى جميع مدارس علم النفس وذلك الى الحد الذى نجد معـــه أن تعريف الشخصية لايزيد عن أن يكون ترجمة لهذين المفهومين • فالشخصية هى هذه الجشطلت أو هذا الانتظام الدينامى الذى تنحصر وظيفته فى تحديد توافقات الفرد مع البيئة والسلوك ليس غير هذه الجشطلت أو هذا الانتظام من التجارب الشعورية والعمليات الفسيولوجية والمسالك الخارجية والذى تنحصر وظيفته فى أنه وسيلة الكائن فى الموقف الى تحقيق امكانياته وخفض توتراته التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لاتزانه (تكامله) وثمة مفـــاهيم أساسية أخرى ينفرد بها التحليل النفسى ، عادة ما تسمى بالميتاسيكولوجية •

---

(١) فى كتابه « تفسير الاحلام » عام ١٩٠٠ لم يقتصر على الديناميــة (الحلم محصلة صراع بين حفزات مكبوتة ودفاعات) ، بل قال بالوظيفية ، فالحلم وظيفتــه حراسة النوم بأن يتيح اشباعا هلوسيا للرغبات التى تهدد بايقاظ النائم •

٣ - النشوئية : ويعنى هذا المفهوم أن نفهم السوية واللاسوية بلغة الارتقاء والنكوص · فالكائن البشرى يجتاز مراحل متتابعة من النمو حتى يبلغ الرشد · يبدأ من المرحلة الفمية ثم ينتقل الى الأستية السادية ثم تأتى مرحلة العضو الذكرى بعقدتها الأوديبية ثم مرحلة الكمون ثم البلوغ (١) فمرحلة من المحاولات والخطا يكون فى ختامها الرشد · والكائن الذى يجتاز كل هذه المراحل هو كان سوى ولكنه اذا تخلف عند مرحلة من المراحل السابقة او نكص من جديد الى واحدة من هذه المراحل تكون اللاسوية ·

فالنكوص الى مرحلة العضو الذكرى يكون فى حالة الفوبيات والهستيريا والنكوص الى الأستية السادية يكون فى العصاب القهرى ، أما النكوص الى المرحلة الفمية فيكون في حالة الأمراض العقلية ·

٤ - الطبوغرافية :

ويعنى هذا المفهوم أن كل صراع لابد وأن يتم بين منظمتين فلا صراع داخل الهى ولا صراع داخل الأنا بل يكون الصراع بين هاتين المنظمتين بين الهى بحفزاتها الغريزية والأنا بدفاعاتها المختلفة ·

أما منظمة الأنا العليا فعادة ما تساند الأنا فى وقفتها ضد الهى ومع ذلك فانها فى بعض الحالات كالعصاب القهرى (الوسواس) تقف فى وجه الأنا بحيث يتحتم على هذه الأنا أن تحارب فى جبهتين ضد الهى من ناحية وضد الأنا العليا من الناحية الأخرى ·

٥ - الاقتصاديات النفسية :

ويعنى هذا المفهوم كمية الطاقة النفسية التى تعتبر ثابتة عند الفرد والتى تختلف باختلاف الحيلة هذه الطاقة يضيع بعضها عند الفرد فى صورة مكبوتات ويضيع بعضها الآخر فى صورة دفاعات وتكون الطاقة المتبقية تحت تصرف الجانب الشعورى وقبل الشعورى من الأنا معيارا لقوة هذه الأنا ·

---

(١) أنظر تناول جديد فى المراهقة « مخيمر الانجلو » ·

فبقدر ماتكون الطاقة المتبقية كبيرة فى كميتها تكون الأنا قوية فى وجه المنظمتين الأخريين وبالتالى تكون الشخصية قوية ٠

وبديهى أن الصراع بين قوتين تتحدد نتيجته تبعـــا لكمية الطـــاقة المستثمرة فى كل قوة من هاتين القوتين المتصارعتين بحيث يمكن التنبؤ نسبيا بما ستكون عليه نهاية الصراع من تغلب الحفزات الغريزية أو تغلب دفاعات الأنا ٠ والتحليل النفسى اذ يخرج المكبوتات ويلغى الدفاعات المرضية يعيد الى الأنا ماكان مضيعا من الطاقة فتصبح الأنا قوية وبالتالى تصبح الشخصية قوية ٠

فى المبادىء التفسيرية

كان فرويد حتى عام ١٩٢٠ يفسر كل شىء عن طريق مبدأ اللذة والألم، ولكنه ادخل بعد ذلك مبدأ قهر التكرار الذى يعمل فيما وراء مبدأ اللذة والألم: وهذا التطور يناظر ادخاله لغريزة الموت (العدوانية أو التدمير) الى جانب الحياة التى أصبحت تضم ماكان يقول به من غرائز جنسية وغرائز الأنا ٠

١ ـ مبدأ الثبات :

ويعنى ميل الكائن الحى الى ازالة التوترات أو على الأقل خفضها الى أقل مستوى ممكن ٠ وهذا المبدأ نجده تحت أسماء كثيرة ٠ ففى الفسيولوجيا والسلوكية يسمى الهوميوستازس بينما فى العلوم الطبيعيـــــة يسمى مبدأ « لوشاتلييه » أما فى علم النفس العام فيسمى مبـدأ الانضـباط الذاتى أو الاتزان التلقائى ٠ وفى نظرية الجشطلت يسمى قانون الامتـــلاء أو أحسن جشطلت ممكن ٠

استعار فرويد مبدأ الثبات هذا من « فخنر » ليفسر به على السواء عمليات الافراغ الكامل فى الاشباع والاعلاء وعمليات الافراغ الجزئى فى حالات الدفاع الفاشل ٠

٢ ـ مبدأ اللذة الألم :

يعتبر اشتقاقا من مبدأ الثبات فمؤداه أن كل سلوك يرجع الى توتر أليم

ويستهدف التخلص من هذا الألم تحقيقا للذة ما أمكن . ويهيمن مبدأ اللذة على منظمة الهى حيث يتخذ صورة العمليات الأولية التى تعرف بالنمط الأولى (تكثيف ـ وازاحة ـ ورمزية ... الخ) .

معنى ذلك أن مبدأ اللذة يهيمن فى الطفولة أما فى الرشد فانه يتضح فى أحلام اليقظة وأحلام النوم وفى محاولات الراشد المختلفة لتجنب الألم (انكار وكبت ... الخ) .

٣ ـ مبدا الواقع :

يمثل الصورة المعدلة لمبدأ اللذة أو قل هو مبدأ اللذة وقد تلائم مع مقتضيات العالم الخارجى . فمبدأ الواقع يستهدف نفس الشىء كمبدأ اللذة العاجلة التى تتعارض مع الأمن من أجل لذة آجلة تتفق مع ما يتطلبه الفرد من أحاسيس الأمن والرضا عن الذات . وعملية النمو ليست غير انسحاب مضطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع . ويتبدى مبدأ الواقع فى ارتقاء الوظائف الشعورية توافقـــا مع العالم الخارجى (فالحكم العقلى يأخذ مكان الكبت والفعل الملائم يأخذ مكان مجرد الافراغ) .

معنى ذلك أن يصبح الفرد قادرا على التسامح تجـــاه التوترات أى قادرا على تحمل زيادة التوتر أثناء تأجيل الافراغ وقيامه بالحكم العقلى (أنظر فى ذلك أهمية العقدة الأوديبية) فالتفكير نوع من التجريب العقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج البعيدة للسلوك . وبديهى انه بقدر ما يستقر مبدأ الواقع تنفصل قطاعات بأسرها من النشاط عن مبدأ اللذة ولكن الغرائز الجنسية التى يتأخر نضجها تظل خلال فترة طويلة تحت هيمنة مبدأ اللذة . ومن هنا يكون ارتباط الغريزة الجنسية قويا بالخيال والأخاييل التى تنطوى على اشباع هلوسى وكذلك أيضــــا يكون الكبت هو الاستجابة الخيالية ان جاز القول تجاه كل ما يبدو أليما . وهذا الكبت هو بمثابة توقف فى التطور وحسبما تكون نقطة التوقف هذه (التثبيت) تكون فى المستقبل نوعية العصاب .

٤ ـ مبدأ قهر التكرار :

بمعنى آلية تكرار للخبرات القوية سيان كانت مفيدة أو ضـــارة أو اليمــــــة ٠

وهنا ينبغى التفرقة بين « تكرار الحاجة » الذى يســـتند الى دورية الغرائز وبين « الحاجة الى التكرار » ٠

تنبه فرويد الى التكرار فى عملية الطرح وفى الأعصبة الصــدمية وأعصبة القدر (حيث تتكرر نفس الأحداث الأليمة) ٠ بعض ظواهر التكرار هذه يمكن فى الواقع ارجاعها الى مبـــدأ اللذة ٠ فالتوتر الذى لم تتحقق السيطرة عليه فى حالة الصدمة يتطلب تكرار المحاولات للتخلص بعد الأوان وعلى مرات من فائض التوتر ٠ ولكن تبقى بعد ذلك ظواهر أخرى من تكرار المسالك غير المتكيفة والخبرات الأليمة ٠

ذلك هو ما دعى فرويد منذ عام ١٩٢٠ الى تنصيب قهر التكرار مبدأ يعمل فيما وراء مبدأ اللذة ويرتبط بغريزة الموت فليس الأمر هنـــا بتكرار الحاجة أو بفائض توتر تخلف عن صدمة بل هو حاجة مستقلة الى التكرار تتخطى مبدأ اللذة ٠ ومما يدعم هذا الافتراض ، ان كل حيـــاة تنتهى الى الحالة اللاعضوية التى كانت عليها قبل الحياة وان كل جنسية تســتهدف التناسل الذى لايعدو أن يكون نوعا من التكرار ٠

يعترض البعض على هذا المبدأ محاولين ارجاع هذا النوع من الظواهر التكرارية الى مبدأ اللذة ٠ فالمسالك غير المتكيفة والخبرات الأليمة هى نتاج دفاعات فاشلة تتحرك كلما تحركت الرغبة الغريزية بشـــكل دورى ودورية الغرائز مغروسة فى مصادرها البدنية ٠ ولكن يظل من الغريب مع ذلك أن يكون مبدأ الواقع عاجزا عن تصحيح هذه المسالك غير المتكيفة وهذه الخبرات الأليمة أو الضارة وربما يكون الحلفى اعتبار قهر التكرار تعبيرا عن القصور الذاتى للمادة ٠ فالخبرات القوية تنزع الى التكرار سيان كانت لاذة أو اليمة، مفيدة أو ضارة تلك الية غريزية تقع فيما وراء مبدأ اللذة ، فاذا كانت الأنا قوية أو اتيح لها ذلك عن طريق التحليل اســـتطاعت أن تقف فى وجه قهر التكرار ٠ أما فى غير ذلك من الحالات فانها تعانى فى سلبية هذا التكرار

القهرى فى الحالة الأولى توقف الأنا آلية التكرار · وفى الحالة الثانية تعانى الأنا آلية التكرار ، هذا الى الحالات الصدمية التى تكون آلية التكرار فى خدمة دفاعات الأنا والى الحالات العادية التى يكون فيها التكرار مجرد تكرار للحاجة يستند الى دورية الغريزة . هذا الصراع بين مبدأ اللذة وقهر التكرار شبيه بالصراع فى السلوكية بين قانون الأثر وقانون التـــــواتر أى الدربة (مرات التكرار) ·

واذا كان مبدأ الثبات شبيها بمبدأ الهيموستازس فان مبدأ الواقع من حيث هو عمليات ثانوية وتعلم شبيه بقانون الأثر ·

وهكذا تتضح الموازاة بين مدارس علم النفس فالمســـالك غير المتكيفة والخبرات الأليمة فى تشبثها بالبقاء والاستمرار تشكل مشكلة رئيسية ربما تكون أعوص مشكلات علم النفس على الاطلاق ·

من مبدأ « خفض التوتر » الى مبدأ اشتهاء التوتر « المثير »

كل المبادىء التفسيرية السابقة . والخاصة بالمسالك السوية تقوم على أساس واحد ، هو خفض التوتر · والواقع أن هذا المبدأ لايقتصر على التحليل النفسى ، بل يتخطاه الى المدارس الأخرى · فاذا كانت الحيـــــاة سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها . من ضياع الاتزان ومحاولة اقامته من جديد ، مما يعرف عادة تحت اسم التكامل ، تكون الفكرة الأساسية ، هى اتزان يتهدد الاحتياج أو الانحطام فى صورة التوترات والصراعات ، ومحاولات لاستعادة الاتزان نفسه ان أمكن . والا تحقيق أفضل توازن ممكن تسمح به الظروف القائمة ·

ومن هنا ، فاذا كان التحليل النفسى يستخدم لافتات مبدأ الثبات ، ومبدأ اللذة والألم ومبدأ الواقع . فان نظرية الجشطلت تتحدث عن نفس الشىء تحت اسم قانون الامتلاء أو أحسن جشطلت ممكنة ·

أما النظرية السلوكية فنفس الظاهرة هذه ، تحمل لافتة الهوميوستازس أى مبدأ اتزان الوظائف البدنية . وهو مبـــــــدأ يستخدم أيضـــــا فى « الفسيولوجيا » ·

وفى علم النفس العام يكون الحديث عادة عن الانضباط الذاتى ، أو الاتزان التلقائى ، اشارة الى نفس الشىء ، وأكثر من ذلك أن هذا المبدأ ينطبق على جانب كبير من ظواهر الطبيعة ويتحدث عنه علم الطبيعة تحت اسم مبدأ « لوشاتلييه » Le Chatlier وبيان ذلك من الزاوية التى تعنينا هنا أن الفرد طالما ينجح فى فض صراعاته على مستوى عمره ، أى على مستوى الرشد ان كان راشدا ، فهو ينتمى الى السوية وهو فى هذه الحالة يعيد الاتزان الى ماكان عليه ، اما عندما يفشل الفرد فى ذلك فانه يحاول فض صراعاته على مستوى نكوصى وعلى نحو تفكيكى ، فيحقق بذلك أفضل اتزان تسمح به الظروف القائمة ٠

وعندما يكون النكوص معتدلا غير ممعن تكون الأمراض النفسية، أما عندما يمعن النكوص الى المرحلة الأولى من النمو ، أى الى النرجسية فعندئذ تكون الأمراض العقلية ٠

وفى هذا ما يرينا أن الأعصبة والأذهنة ، هى حلول الصراعات ، ولكنها حلول نكوصية ومن ثم غير تكيفية وان كانت توافقية أى تنطوى على خفض التوتر بشكل جزئى ٠ وفى هذا كله ما يرينا استحالة عزل السوية عن اللاسوية ، بحسبانهما عالمين مستقلين ، فان الاختلاف بينهما هو اختلاف فى الدرجة والشدة ، لا فى الطبيعة والنوع ٠

ولكننا رأينا مع التحليل النفسى حرجة أمام المسالك عديمة التكيف والتى يستحيل تفسيرها بشكل مكتمل استنادا الى مبدأ خفض التوتر تحت أى اسم من أسماءه ٠ ومن هنا التجأ فرويد الى ابتداع مبدأ قهر التكرار ليفسر به المسالك غير التكيفية ٠ ولكنه عندما يفعل ذلك ، يغيب عنه أنه عاد من جديد الى فصل السوية عن اللاسوية ، بحيث يكون لكل عالم مبدأ تفسيرى خاص هذا الى ما ينفتح له مبدأ قهر التكرار من انتقادات كثيرة ٠

ويرى مخيمر أن مبدأ قهر التكرار لا يفسر شيئا، بل يذكرنا «بسيكولوجية الملكات» التى كانت تستقرىء الوقائع وتطلق عليها اسما ، ثم تتخذ من هذا الاسم مبدأ التفسير ٠

فكل ما يقوله مبدأ قهر التكرار ، هو أن الظواهر المرضية لا تنزع الى

خفض التوتر بشكل مكتمل ومساير لقيمة الذات بل تتابع تكرار التوتر بشكل قهرى · وواضح أن القول بهذا المبدأ للمسالك غير التكيفية ومبدأ خفض التوتر للمسالك التكيفية (١) ، هو أمر يتعارض تماما مع مبدأ الاقتصاد فى العلم ، والذى يقضى على التأويل ان يستعين بأقل عدد ممكن من المبادىء ·

ومن هنا كانت محاولة مخيمر لرد الأمرين جميعا الى مبدأ واحد تفسيرى هو « مبدأ اشتهاء المثير » Adient Motivation مما لا يختلف كثيرا عن لذة التوتر او لذة الاستثارة فى التحليل النفسى ·

ولقد حاول مخيمر ذلك فى كتابة « مفهوم جديد للتوافق » عندما قدم تعريفا للعملية التوافقية لا يقوم على غرائز المحافظة على الحياة وخفض التوتر ، والمواقف المألوفة بل يقوم أساسا على نقيض ذلك تماما ، بمعنى أنه يقوم على المخاطرة بالحياة . (واشتهاء المثير والمواقف الجديدة لاثراء الحياة) ، حيث يقرر أن التوافق هو « الرضى بالواقع الذى يبدو هنا والآن مستحيلا على التغير . ولكن فى سعى دائب لا يتوقف لتخطى الواقع الذى ينفتح للتغير مضيا به قدما على طريق التقدم والصيرورة ، فالتوافق « ديالكتيكية » تزاوج النقيضين . وائتلاف بين المألوف والجديد ·

كل شىء يبدو وكأن الفرد لا تكاد ترتفع به استثارة حتى يعمل على خفضها ولا تكاد تنخفض به استثارة حتى يعمل على توليدها من جديد وعلى رفعها ، مما يذكرنا بتلك العبارة التى كانت مأثورة عن احدى الغانيات التى لم تكن تطق أن ترى الكأس فارغة ولا أن تراها ملآنة · فان كل مبدأ الثبات حتى فى صوره المتطورة (مبدأ اللذة ومبدأ الواقع) يجيب على المحافظة على الحياة خفضا للتوتر وازالة للاستثارة تلبية لغرائز الموت فان مبدأ اشتهاء

---

(١) يتعارض هذا فى الواقع مع ما قال به فرويد من أن المسالك التكيفية (وغير التكيفية) تحقق كلها خفض التوتر وان كانت الاولى تحقق ذلك بشكل مكتمل وعلى مستوى عمر الفرد وبشكل يساير قيمة الذات ، بينما المسالك عديمة التكيف تحقق بشكل جزئى خفض التوتر ولكن على مستوى نكوصى وعلى حساب قيمة الذات وتفكيكها · ومن هنا يقول عن الاعصبة والاذهنة أنها حلول توافقية تخفض التوتر بشكل جزئى ولكنها غير تكيفية (لانها تتم على حساب قيمة الذات وتفكيكها وعلى مستوى نكوصى)

المثير . مخاطرة بالحياة فى خدمة غرائز الحياة (١) ولابد أن يحتل أيضا المكان المقابل والذى يحتله اليوم بدون معقولية حقيقية ، مبدأ قهر التكرار ٠

وفى هامش ص ٤ يقرر مخيمر أن تعريف السلوك كان يقتصر على خفض التوتر ، فأضاف اليه جولدشتين تحقيق الذات والامكانيات ، بحيث أصبح السلوك هو جملة العمليات المادية والرمزية التى يحاول بهـا الكائن العضوى فى موقف ، تحقيق امكانياته وخفض تواتراته هذه التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لتكامله (اتزانه) ٠ فليس من المعقول تصور الانسان وكأنه مجرد شىء يتعبأ بالتواترات فيعمل على خفضها ٠ لابد من الايجابية تحقيقا للذات والامكانيات فذلك صميم الانسان بما هو انسان ٠ ومن هنا تظهر أهمية المخاطرة بالحياة واشتهاء الاستثارة والمواقف الجديدة كوسائل خدمة غرائز الحياة ، ان ديالكتيكية الحياة تبدو هنا بكل قوتها بحيث يخاطر الانسان بالحياة رغبة فى اثراء الحياة ٠ بينما لا تبدو الديالكتيكية فى خدمة الحياة فى مبدأ خفض التوتر (مبدأ الثبات واللذة والواقع) كل شىء يبدو وكأن الحياة اشتهاء للاستثارة بأكثر منها « خفض التوتر » : فالسلوك الجنسى سيان كان عشقيا أو انساليا ليس غير سلسلة من تصاعد لذة التوتر أو التوتر اللاذ ، بينما تقتصر اللذة الخالصة على اللحظة الختامية ، والتى يلبث أن يظهر فى أثرها سلوك جديد يمضى صاعدا بتوتره اللاذ حتى يبلغ لحظته الختامية التى تشكل قمته وعدمه معا ٠ وهذا كله يميل بنا الى الاعتماد فى أساسية مبدأ اشتهاء المثير وتبعية مبدأ « خفض التوتر » مما يقلب المنظور الفرويدى والشائع رأسا على عقب ٠ فالأساس هو اشتهاء المثير الذى يتيح للحياة أن تتحرك الى مواقف جديدة تنطوى على مخاضات مريرة ولا شك ولكنها تظل دائما الرحم الأبدى لميلاد كل جديد ولكل ابتكار ممكن ، ومن ثم لكل تقدم وصيروورة ٠ هذا الى أن مبدأ اشتهاء المثير يمكننا من تفسير الحالات السوية والمرضية جميعا بينما يقتصر قهر التكرار على الحالات المرضية ولا يقدم الينا معقولية تبعث على الاقتناع

---

(١) فى الحالة الاولى تسخر غرائز الموت لصالحها غرائز الحياة ، وفى الحالة الثانية تسخر غرائز الحياة لصالحها غرائز الموت ٠ ولا ينبغى الخلط بين الوسائل والهدف ٠

سيان استند الى القصور الذاتي للخبرات القوية أو الى دورية الغرائز أو غير ذلك ٠

يقول مخيمر فى « مفهوم جديد للتوافق » ، وفى نهاية مقدمته لكتـــابه « عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس » ما يمكن عرضه على النحـــو التـــالى : ـ

« من كل ما سبق يمكن القول بأن فنيات العلاج السلوكى عامة وتعديل السلوك خاصة انما هى فنيات تستهدف الشفاء من حيث هو تواؤم ليس غير بينما يختلف الأمر بالنسبة الى فنيات العلاج فى التحليل النفسى وفى المدارس المختلفة لتيار العلاج الفينومينولوجى ٠ فليست السوية ـ التى يحققها الشفاء ـ هى وصول بالفرد الى نقطة استاتية تكون بمثابة ذروة يقف عندها ويستقر فيها ، بل السوية بالحرى تتيح لصاحبها (بالشفاء فى نهاية العملية العلاجية) أن يمضى واتى الخطى فى بداية تلك الطريق اللامتناهية من التقدم والصيرورة ٠ فصميم السوية تلقائية ومرونة تتيح للايجابية ان تمض وتمض ابدا بالواقع الذى ينفتح للتغير ، قدما فقدماً على طريق التقدم وبغير هذا المضى المضطرد ، وبغير هذه الايجابية التى تدفع الحياة الى الصيرورة لاتكون هنـــاك سوية ولا توافق لأن الأمر كله يخرج عندئذ من نطاق الانسان بما هو انسان وموجود من اجل ذاته الى استاتية الأشياء والموجودات فى ذاتها ٠ واذا كان تعريفنا للتوافق يشتمل على الجانبين بحيث يكون الرضى (١) بالواقع الذى ينغلق

---

(١) بالرجو ع الى تعريف مخيمر للتوافق ، يتحتم التمييز بين الانواع المختلفة من الرضى ان كان لنا أن نفهم الطبيعة الديالكتيكية للحياة البشرية ٠ فالرضى عن جنبات الواقع تستحيل على التغيير هو رضى قناعة contentment لا ينطـــوى على خفض للتوانرات فضلا عن تحقيق الذات والامكانيات بل ينحصر فى سلبية الاستسلام تقبـلا للواقع الذى ينغلق على التغير ٠ مثل هذا الرضى ليس من الرضى فى شىء ٠ فالرضى الحقيقى انما يكون عبر السعى الدائب الذى لا يتوقف لتخطى جنبات الواقع التى تنفتح للتغير ٠ وهنا ينبغى أن نبادر الى تقرير حقيقة أساسية تنحصر فى أن لحظات الرضى تكون دائما حبلى بأجنة « اللارضى » فالانسان عندما يبلغ الى الهدف الـــذى ينشده يستشعر الرضى (سيان كان رضى الاشباع satisfaction عندما يكون الهدف جزئيا أو كان رضى المسرة gratification الذى يتحقق بالبلوغ الى الهدف الكلى تحقيقا لقيمة الذات والامكانيات) ولكن حالة الرضى التى يستشعره الفـــرد

على التغير جنبا الى جنب مع السعى الدائب لتخطى الواقع الذى ينفتح للتغير، فما ذلك الا لما تقتضيه ديالكتيكية الحياة من خروج « للجديد » من بين أحضان « المألوف » ومن انطلاق للتغير من ثنايا رحم « السكون » الناعس ومن انبثاق « للحياة » من بين براثن « العدم » ٠

وهكذا استطاع مخيمر فى « مفهوم جديد للتوافق » أن يصحح الكثير بالنسبة الى دياليكتيكية الحياة والموت وذلك فى مسايرة منه لمبدأ الاقتصاد فى العلم وللتغير الذى يشكل اللب الصميمى للحياة ٠ « ولكن مخيمر لم يكمل تصحيحه هذا الا فى نهاية مقدمته لكتابه عن « الذاتية والموضوعية فى علم النفس » سنة ١٩٨٠ الناشر ـ سعيد رأفت ـ فلنستمع الى ما جاء به تكملة لمفهومه الجديد عن التوافق ٠

فايقاع التغير المتزايد أبدا (١) شرع يفرض على الحياة الواحدة للفرد الواحد كثرة من التغيرات المتلاحقة ترغمنا على الانتقال من المفهوم الاستاتى للتوافق Adjustment الى المفهوم الدينامى حقا (والذى يتناسب

بالبلوغ الى هدفه لا يمكن أن تدوم ، فهى لا تلبث حتى تلد نقيضها حالة من « اللارضى » تشبك الفرد فى سلوك جديد سعيا الى هدف جديد وهكذا تمضى الحياة السوية تتابعا من اللا رضى بتوتراته الى لحظات الرضى بخفضها الوقتى للتواترات قبل أن تتمخض عن نقيضها حالة من «اللارضى» تدفع الفرد بتوترها الى سلوك جديد يتصاعد فيه التوتر اللاذ ويتصاعد حتى يبلغ الهدف فتكون الذروة حالة عابرة من الرضى ، من اللذة الخالصة التى تتوهج فى لحظات ليس غير ، ثم تنطفىء فتفسح المسرح لحالة من اللارضى ، لحالة من التوتر تحمل الحياة فى سلوك جديد والى هدف جديد ، وهكذا دون توقف على طريق التقدم والصيرورة فى محاولات متصلة لاثراء الماهية وتحديد المصير ، فالرضى هو الحالة من الدافعية التى يعيشها الكائن توترا لاذ فى طريقه الى الهدف الذى يكون بتحققه لحظات من الرضى من اللذة الخالصة من الضياع العابر للتوتر والتى لا تلبث حتى تلد نقيضها استهلالا لحالة جديدة من اللارضى ، من التوتر ، من الدافعية الجديدة لتمضى بالكائن فى سلوك جديد وتوتر لاذ جديد الى هدف جديد ٠ فالرضى توتر لاذ يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظة الختامية ، لحظة الرضى العابر بلذته الخالصة وخفضه العابر للتوتر ٠ ذلك هو الرضى الذى ينتمى الى غرائز الحياة ، الى اشتهاء الاستثارة بينما ينتمى رضى اللحظة الختامية بلذته الخالصة عديمة التوتر الى غرائز الموت ٠

(١) « صدمة المستقبل » ترجمة محمد على ناصف ـ النهضة بالفجالة ـ انظر أيضا الطبعة الثانية فى « سيكولوجية الحب » ـ الانجلو ٠

وحده مع ما بلغ اليه ايقاع التغير اليوم) ونعنى القابلية للتوافق Adaptability

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان علماء النفس كانوا وما يزالون يجمعون على النظر الى خفض التوتر بحسبانه المبدأ التفسيرى للسلوك . وقد صححنا ذلك الوضع عندما أوضحنا انتماء خفض التوتر الى غرائز الموت طالما ان الحالة القصوية لخفض التوتر هى خفض توتر الحياة ذاتهـا اى الموت . فصميم الحياة توتر وصراع ومن ثم فاذا كنا قد نسـبنا خفض التوتر الى غرائز الموت يكون علينا فى مسايرة للمعقولية ان ننسب اشتهاء المثير Adient motivation الى غرائز الحياة . صحيح ان ديالكتيكية الوجود البشرى تفترض وجود النقيضين معا ومن ثم تستتبع ان تكون غرائز الحياة وغرائز الموت فعالين معا وفى نفس الوقت . ولكن بمقدار ما يتوهج التوتر تكون غرائز الحياه من حيث المبدأ هى الفعالة . وبقدر ما ينطفىء التوتر تكون غرائز الموت من حيث المبدأ هى الفعالة . ومن هنا كانت منافحتنا عن اشتهاء المثير (١) على انه المبدأ الاساسى لغرائز الحياة .

بذلك نكون قد قلبنا المنظور الفرويدى وغير الفرويدى رأسا على عقب فلم تعد غرائز الحياة تستهدف خفض التوتر والمحافظة على الحياة والمواقف المألوفة بل على النقيض من ذلك تماما فان المحافظة على الحياة بالمعنى الحرفى الدقيق للكلمة انما هى وقوف بالحياة . ومتى توقفت الحياة عن المضى فلن تكون حياة بل يكون الموت . صميم الحياة اذن هو التوتر هو الصراع هـو التحرك ابدا الى الجديد ، **هو المخاطرة بالحياة للمحافظة حقا على الحيـاة باثراءها سعيا الى الجديد** لا الاحتماء فى المألوف .

« خلاصة ما سبق أن مفهوم التوافق ينطوى بالضرورة على مخاطرة بالحياة (٢) وذلك الى الحد الذى يتحتم على الشخص المتوفق أن يكون دائما

---

(١) فى رسالة « سيكولوجية الحب » الفصل الثانى كشفنا عن الطبيعة الصميمة لظاهرة الحب ليست غير هذا التوتر اللاذ وهذا التطلع الى ، وربما يكون الحب هـو اقصى مظاهر الكائن البشرى اقبالا على وامعانا فى وارتباطا بالحياة .

(٢) تبدو الاهمية القصوى للمخاطرة منذ الطفولة الباكرة . وقد اشرنا من قبل الى ولع الاطفال جميعا فى سن باكرة بتلك اللعبة الخطرة حيث يقذفهم الاباء الى أعلى فى الهواء ليتلقفونهم قبل الوقوع على الارض. ونضيف هنا قيام قصص الاطفال الناجمة عن عنصر المخاطرة (الغولة فى حواديت الشاطر حسن وقصص الجنيات ومغامرات

على استعداد من حيث المبدأ وعندما ترغمه الظروف ، على أن يضحى بحياته (حتى وان يكن ذلك ممارسة « للجريمة » أو تخلصا من الحياة بالانتحار(٢)) فعندما تصل الظروف البيئية فى قسوتها الى الحد الذى يهدد قيمة الذات بشكل خطير ينبغى على المتوافق أن يكون على استعداد للمخاطرة بالحياة ذاتها دون تردد على النحو الذى يظهر فى سير العظماء من القادة والمفكرين. ذلك أيضا ما يحدث طواعية من أفراد الشعب عندما يكون الوطن مهددا بعدوان واحتلال يطيح بقيمة ذواتهم وبأرضهم وعرضهم ومن هنا فان الشعوب التى يغلب عليها التوافق لا تستسلم فى سلبية الى كل ألوان الظلم أو الاجحاف من حكامهم بل تتحرك ثائرة فى مخاطرة بالحياة لتعيد للحياة قيمتها ومعناها ومن يصدق القول الشائع « اطلب الموت توهب لك الحياة » فلا حياة بمعنى الكلمة ولا توافق دون ما استهانة بالموت · وهكذا فان المحافظة على الحياة لايمكن أن تكون الا عبر المخاطرة بالحياة اشتهاء للمتير وسعيا وراء التواترات التى لا يكاد يبلغ بها الكائن البشرى الى الانطفاء حتى يبتعث غيرها فغيرها سعيا وراء الجديد على طريق التقدم والصيرورة وهكذا تنطفىء الحياة ذاتها فيبلغ خفض التوتر ذروته عدما ، تنقص معه كل محافظة على الحياة وكل مخاطره بالحياة جميعا ·

ولكن اذا كانت الحياة فى صميمها مخاطرة بالحياة وسعيا وراء التواترات نبتعثها لنصارعها صراع الموت بالحياة ، أو قل نقوم بتوليدها حتى يمتلىء الكأس ثم نناضل لنجهز عليها مما يتيح لنا المزيد والمزيد من الازدهار. أفلا يكون فى ذلك ما ينطوى على نتائج جد خطرة بالنسبة الى المجتمعات الرأسمالية فى مواجهة المجتمعات الاشتراكية ، بلى فالانسان وان كان يحتاج

السندباد ومخاطر الكشوف الجديدة والبحث عن الكنز) وكذلك قصص ارسين لوبين، هولز والافلام التى تقوم على الاثارة والانفاس اللاهثة المقطوعة ، هذا الى قيام الصحافة على الاثارة ومباريات الاهلى والزمالك ·· الخ · واذا كان كل « ممنوع مرغوب » كان على المخاطرة أن تكون المعبر بين الرغبة وتحقيقها · فهدف السلوك لا يمكن أن يكون بحال مجرد خفض للتوتر بل هو أساس هذا التوتر الذى يدفع بالحياة قدما الى الامام عبر المخاطرة · فهدف الحياة هو تحقيق الذات والامكانيات ويترتب على ذلك بصفة ثانوية اشباع الحاجات والخفض العابر الوقتى للتواترات ·

(٢) أنظر الاخبار العدد ٨٥٤٣ الموافق ١٩٧٩/١٠/٣١ ص ٩ - حديث عن انتحار الادبــاء ·

الى أحاسيس الأمن الا أنه عندما تزيد هذه الأحاسيس على حد أمثل optimal بعينه فانها تذهب بغرض المخاطرة التى تلد كل جديد وكل تقدم وعندئذ يستحيل أن يكون الانسان من حيث هو انسان ذلك الخالق الصغير deminrge الذى خلقه الله على شاكلته · ومن هنا تبدو أهمية الحل الثالث الذى نادى به « ديجول » والذى يتيح توازنا ما بين الطمأنينة والمخاطرة · ولكننا هاهنا نخطو اخرى الى الأمام · كأن « فرويد » فى تفسيره للمسالك السوية يستعين بمبدأ الثبات ، بمبدأ اللذة - الالم واخيرا بمبدأ الواقع اما بالنسبة الى المسالك غير التكيفية ونعنى الباثولوجية فقد خرج علينا (١) بمبدأ آخر هو « قهر التكرار » ، معنى هذا أن المبدأ التفسيرى للمسالك السوية غير المبدأ التفسيرى للمسالك غير السوية ، مما يتناقض مع مبدأ المجانسة للنهج الجاليلى فى تناول الوقائع · صحيح أن « فرويد » قد اخذ جزئيا بمفهوم « السلسلية » ، عندما رفض اعتبار السوية واللاسوية عالمين منفصلين ومتغايرين تماما منافحا عن ان الاختلاف بينهما ليس غير اختلاف فى الدرجة والشدة . ولكنه لم يستطيع ان يمضى الى نهاية الشوط . ومن هنا اقام للمسالك السوية مبدأ تفسيريا غير المسالك اللاسوية · بذلك يكون فرويد قد نكص على عقبيه الى مفاهيم الفئات والاصناف الارسططالية ·

وما نتقدم به نحن ها هنا يحقق مبدا الاقتصاد فى العلم ومن ثم يضع فى اعتباره مبدأ المجانسة فى المنهج الجاليلى · اشتهاء المثير هو المبدأ التفسيرى لكل مسالك الحياة السوية منها واللاسوية وكل ما هنالك من اختلاف هو تباين الانتظام الذى يتخذه المبدا فى الحالتين · ففى الحالة السوية يمضى

---

(١) كان « فرويد » فى البداية يفسر المسالك غير التكيفية بنفس المبدأ التفسيرى للمسالك السوية ونعنى خفض التوتر · ففى حالة المسالك السوية يتحقق خفض التوتر بشكل يبقى على قيمة الذات ووحداتها · بينما لا يتحقق خفض التوتر فى حالة المسالك غير التكيفية الا بشكل جزئى وعلى حساب قيمة الذات ووحدتها · ولكن هذه المسالك عديمة التكيف لا تنزع مع الوقت الى خفض التوتر بشكل مكتمل بل نتابع تكرارا لهذا التوتر ومن هنا خرج « فرويد » علينا بمبدأ قهر التكرار الذى هو مجرد وصف لما يحدث تماما كما كان عليه الحال فى سيكولوجية الملكات فى القرن التاسع عشر · ويرى منيمر أن « فرويد » بذلك نكص على عاقبيه متراجعا عن مبدأ المجانسة ومبدأ الاقتصاد فى العلم ، مما كان متحققا وان يكن بشكل خاطىء عندما كان يرد المسالك السوية وغير السوية جميعا الى مبدأ تفسيرى واحد هو خفض التوتر ·

اشتهاء المثير فى المسار الصحيح لدياليكتيكية الوجود البشرى بحيث يرتفع التوتر ويرتفع حتى يبلغ ذروته فى اشباع يحقق عدمه عبر « خفض وقتى للتوتر » ثم لا تلبث الحياة حتى تتوهج من جديد بالتوتر الذى يصاعد ويصاعد حتى يبلغ ذروته وعندها يفسح المسرح لتوهج توتر جدد وهكذا فى غير توقف على طريق التقدم والصيرورة · أما فى حالة اللاسوية فان دياليكتيكية الوجود البشرى تتعطل ان جاز القول بحيث تصاعد التوتر ويصاعد دون أن يكون بلوغه الى الذروة ، الى عدمه فيتواصل التوتر احتراقا ان جاز القول الى غير نهاية · كل شىء يبدو هنا وكأن غرائز الموت قد استبدت بالمسرح وسخرت لحسابها توترات الحياة ومن ثم تكون الصبغة الأليمة لهذه التوترات التى لا تمضى فى دورات تنغلق بين الحين والحين فى وقفات وقتية من الخفض العارض للتوتر بل تدور فى حلقة مفرغة تحبس الكائن البشرى داخل نفسه فتشده يوما بعد يوم الى سكون العدم ، وبلغة أخرى يمكن القول بأنه فى فى الحالة الأولى يرتفع توتر الرغبة ويرتفع حتى يبلغ الذروة فى اللحظة الختامية بالاشباع الذى يخفضه فيفسح المسرح لتوتر رغبة « جديدة » · كل ذلك دون أن يكون هناك ما يعترض مضى التوتر الى ذروته وعدمه ، أما فى الحالة الثانية فان توتر الرغبة لا يكاد يرتفع حتى تعترضه معوقات من أحاسيس القلق أو الذنب وما يلحق بذلك من عقوبة الذات وما الى ذلك مما يسد على التوتر مساره ويرغم الكائن على أن يدور فى حلقة مفرغة بين رغباته ومعوقاته على النحو الذى أوضحناه فى الفصل السادس من المدخل الى الصحة النفسية » (الطبعة الثالثة ـ ص ١٥٧ ـ ١٦١) ·

من الشخصية الى صياغة السلوك

سبق أن رأينا أن تعريف الشخصية شأنه شأن تعريف السلوك ليس غير ترجمة للمفهومين الأساسيين فى علم النفس ونعنى الدينامية والوظيفية ـ فالشخصية هى هذه الجشطلت ، هى هذا الانتظام الدينامى الكلى داخل الفرد لانتظاماته الفرعية (النفسية الفسيولوجية معا) بينما السلوك هو هذه الجشطلت ، هذا الانتظام الدينامى الكلى لكل عمليات الفرد الرمزية منها والمادية على السواء · واذا كانت الشخصية من حيث هى انتظام دينامى كلى لكل أجهزة الفرد النفسية والفسيولوجية تقوم بتحديد توافقاته الأصلية مع بيئته ، فان السلوك من حيث هو انتظام دينامى كلى لعمليات الفرد الرمزية

والمادية هو الذى يتيح للفرد فى الموقف تحقيق امكانياته وخفض توتراته ، هذه التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لتكامله الى اتزانه • فوظيفة الشخصية هى تحقيق توافقات الفرد الأصيلة مع بيئته واذا كانت الأصالة تعنى الطابع الفريد المتميز لتوافق كل فرد فانها لا تنطوى بالضرورة على الايجابية والخبرة واللذين يخصصان وحدهما الانسان بما هو انسان ، ولكن هاتان الخاصيتين تظهران بصراحة فى تعريف السلوك البشرى وذلك بفضل ما كان من اضافة « جولد شتين » لوظيفة تحقيق الامكانيات سابقة على وظيفة خفض التواترات ففى تحقيق الامكانيات ما ينطوى بالضرورة على الايجابية ، هذه التى تستطيع وحدها ان تتمخض عن الجديد •

واذا كان علم النفس الاجتماعى فى حديثه عن معنويات الجماعة يعلمنا ضرورة الأهداف الايجابية للمعنوية العالية ، فان هذه الحقيقة تصدق وبدرجة أعظم على الفرد . هذا الذى يعتبره « لاجاش » نوعا من الجماعة بالفعل • ففى « المدخل الى علم النفس الاجتماعى » الطبعة الثانية نقرأ ص ٨١ وتحت عنوان « العوامل المحددة للروح المعنوية » ما يلى :

١ ـ ضرورة الدافع الايجابى للروح المعنوية العالية :

ونعنى بذلك الهدف الايجابى الانشائى فى معارضة للهدف السلبى الذى يقتصر على دفع الهجمات الخارجة وازالة التواترات الداخلية • فلان كان للدافع السلبى أهميته فهو لا يكفى مع ذلك لدعم الروح المعنوية ، اذ لابد لذلك من دافع ايجابى • وفى هذا ما يرينا الشبه القائم بين الجماعة كوحدة والشخصية الفردية كوحدة • فالفرد لا يقف فى سلوكه عند خفض التوتر اللهم الا ان يكون غير مكتمل النضج او مريضا او متعبا أو خاضعا لظروف مقيدة • أما فيما عدا ذلك فقد أبان « جولدشتين » أن أهم ما يخصص السلوك الانسانى ينحصر فى قدرته على الخلق والابداع لتحقيق الذات والامكانيات •

٢ ـ ضرورة ارضاء الحاجات الثانوية عند الأفراد للروح المعنوية العالية :

ونعنى بذلك حاجة الفرد الى التعبير عن تلقائياته واعتراف الغير به

وتقديرهم له · فان عدم ارضاء هذه الحاجات يكون بمثابة عامل سلبى لمعنوية الجماعة · أما ارضاء الحاجات الأساسية فأمر بديهى ·

٣ _ ضرورة الشعور باضطراد التقدم ·

٤ _ ضرورة تناسب مستوى التطلع مع الامكانيات ومستوى النجـــاح الســـابق ·

٥ _ ضرورة اتضاح المنظور الزمنى ·

ويتضح من هذا كله أن الايجابية بما يمكن أن تتمخض عنه من جديد هى التى تشكل صميم كيان الانسان الفرد على مستوى الحياة الفردية أو فى الصور المختلفة للجماعات البشرية فبغير هذه الايجابية يستحيل على الحيـاة أن تواصل تقدمها وصيرورتها ومن ثم يستحيل عليها أن تكون ·

وهذه الايجابية (١) فى كل صورها تدخل ضمن الوظائف الأســـاسية لجهاز الأنا · ونحن نعلم أن جهاز الأنا هو مملكة مبدأ الواقع ·

---

(١) يذهب مخيمر الى أن العدوانية مرادفة لطاقات الحياة عند الفرد ومن ثـم تخدم غرائز الموت والحياة جميعا · وليست الايجابية فى كل صورها شأنها شـأن الجنسية غير تعبير عن المظاهر السوية التى تتخذها العدوانية عندما تكون فى خدمة غرائز الحياة ، ومن هنا يعرف مخيمر العدوانية كما يلى :

(عندما ننظر الى الوجود البشرى على أنه ذلكالنسيج الفريد من ديالكتيكية غرائز الحياة والموت سيان كانت طاقتها (*) موضوعاتية أو نرجسية ، سادية أو مازوشية، تكون العدوانية هى هذه الطاقة التى تخدم فى الحالات السوية غرائز الموت بشكل غير مباشر بمعنى أن تكون فى خدمة غرائز الحياة ايجابية أو توكيدا للذات « تدميرا مشروعا للمعوقات من الآخرين والاشياء أو /عدوانية شبقية وانجابا أو /وبناء يبلغ حد الابتكار على المستوى الفردى ويتخذ صورة القيادة فى المواقف الاجتماعية » ، لتتادى بها تدريجيا الى التدمير والعدم ، بينما تخدم فى الحالات غير السوية غرائز الموت بشكل اكثر مباشرة تدميرا عاجلا ومباشرا للذات أو عبر التدمير غير المشروع للآخرين والاشياء) ·

(*) ينبغى فهم ذلك ضمن اطار النهج الحاليلى فى تناول الوقائع هذا الذى يقوم على مفاهيم « السلسلية » والمتصل الواحد والذى يعتبر السلوك محصلة للصراع بين المتجه الصادر عن فطرية الفرد والمتجهات البيئة القائمة فى الحقل ·

فالأنا هى التى تضطلع بتحقيق التوافق بين الفرد والعالم الخارجى ، وداخل الفرد بين حاجاته المتصارعة ·وكيما تبلغ الى ذلك تضطلع الأنا بتنظيم الوصول الى الشعور والسماح بالتعبير الحركى فهى تتحكم فيما ينبغى ادراكه او فعله · وكذلك تضطلع الأنا بتـــوجيه الأنشطة وجـــدولتها للدوافع تبعا لأهميتها · وتعديل مستوى التطلع بما يتفق مع الامكانيات الفعلية ·

والأنا فى هذا كله تسعى أساسا الى تحقيق الذات والامكانيات ، فليس خفض التواترات فى رأى مخيمر بهدف أساسى بل هو مجـــرد نتيجة ثانوية تترتب على اشباع الحاجات تحقيقا للذات والامكانيات · ولعل أعظم ما تملكه الأنا من وسائل هو القدرة على التفكير مما يفتـــرض القدرة على تأجيل الاستجابات (اى التسامح تجاه التواترات بعيدا عن الاندفاعية) وتوقع النتائج المقبلة للسلوك ·

فالتفكير نوع من التجريب العقلى يبلغ اليه الكائن البشرى للنضج الذى يتيح تربية الغرائز بانتقالها من مبدا اللذة الى مبدأ الواقع · وبعدما كـان « الكبت » هو الأسلوب الوحيد الممكن للانا الضعيفة الطفلية تكون مع النضج امكانية الأنا على المواجهة واتخاذ القرار الملائم والقيام بالفعل الموجه ·

ولكن الأنا فى اضطلاعها بوظائفها المختلفة تتعرض لضغوط الهى والأنا العليا مما قد يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يكفها عن العمـــل هنا تظهر الضرورةالحيوية للتمييز بين ما تكونعليه الأنا منحيث الاقتصاديات النفسية فى حالة السوية ، وما تكون عليه فى حالة اللاسوية ·

فالأنا السوية ثرية من حيث الاقتصاديات النفسية تملك تحت تصرفهـا كميات كبيرة من الطاقة (نظرا لضآلة الكميات المضيعة من الطاقة فى التثبيتات على أهداف وموضوعات طفلية) ·

ومن هنا تستمتع الأنا السوية بهامش فسيح من الحرية فى مواجهة الهى والأنا العليا على ارضية من امكانيات الواقع ومحدداته ، ويكون بوسعها أن تتخذ من القرارات أو الأفعال ما تراه مناسبا تلزم به فى سير الجهـازين الآخرين · أما فى حالة اللاسوية فان الأنا تكون نتيجة للكميات الهـــائلة من

الطاقة المضيعة فى التثبيتات ، على الأهداف والموضوعات الطفلية ، مسرفة فى فقرها ومن ثم فى ضعفها فلا تنعم بهامش من الحرية فى مواجهة الأنا العليا والهى ، فالنضج لم يكتب لها أن تتحرر من الضغوط البيولوجية للهى والضغوط الأخلاقية الاجتماعية للانا العليا ومن ثم تظل كما كانت فى طفولتها عاجزة عن المواجهة والتفكير عن روية ٠

وتلخيصا لكل ما سبق نقرر بأن الهدف الأساسى للشخصية انما ينحصر فى تحقيق الذات والامكانيات بكل ما ينطوى عليه ذلك من ايجابية يمكن أن تتمخض عن الجديد بينما يكون خفض التوتر مجرد نتيجة ثانوية تترتب على ذلك ووقفة راحة وقتية تتيح للشخصية أن تتابع مسالكها مسارا يمضى بها قدما فقدما على طريق التقدم والصيرورة ٠ والأنا السوية وحدها هى التى تقتدر على ذلك بينما تظل الأنا غير السوية طفلية بضعفها وعجزها عن المواجهة ، تدور حول نفسها ان جاز القول توصل بحاضرها بماضيها ، انها تدرك الحاضر من خلال الماضى ومن ثم تبدو لها حاجتها الحالية ضمن منطق ماضيها شيئا خطرا . فتنطلق دفاعات الأنا تسد عليها بالقلق أو أحاسيس الذنب كل سبيل الى الاشباع وبذلك ينحبس الفرد بين حاجاته ومعوقاته لا يستطيع مضيا الى الأمام لاتحقيقا لذاته وامكانياته ولا للراحة الوقتية العابرة عبر الخفض العابر لتواتراته مع كل اشباع وسوف نقوم بتفصيل الأمر كله على النحو التالى :

١ ـ بداية السلوك :

المصدر الأخير للحفز فى نظرية التحليل النفسى هو الغرائز التى يعيشها الانسان فى صورة حوافز أو حفزات غريزية وقد شكلتها عملية التطبيع الاجتماعى وفقا لثقافة المجتمع وشكلتها الخبرة الفردية الخاصة بكل فرد ٠ فالغرائز وان كانت هى هى عند كل الناس وهى هى عند بعض الناس تبعا للثقافات المختلفة فهى عند كل فرد تختلف عنها عن كل الناس وعليه فدوافع الشخصية ـ أى حفزاتها ـ حوافزها أو حاجاتها أو رغباتها هى البداية الحقيقية للسلوك ، والدافع هو حالة من التفكك قوامها توتر يحفز الكائن الى هدف بعينه يكون بالبلوغ اليهما خفض عارض لهذا التوتر يفسح المسرح لتوتر جديد وهكذا ٠

وتبتدى الغرائز فى صورتين هما الحاجات والانفعالات :

والحاجات تتباين تباينا كبيرا فى طبيعتها وشدتها بل وفى أهميتها النسبية عند كل فرد وهناك كما نعلم حاجات فسيولوجية أولية وهناك حاجات نفسية اجتماعية من قبيل الحاجة الى الأمن ، والحاجة الى الحب ، الحاجة الى التعبير ، الحاجة الى المعرفة ، والحاجة الى الحرية ٠ وكل هذه الحاجات الثانوية يصدق عليها ما سبق أن رأينا بالنسبة الى المعنوية العالية للجماعة فأهميتها حاسمة بالنسبة الى الانسان بما هو انسان ٠ وكلما كانت الحاجة اقل ضرورة لبقاء الكائن الحى ، بعدت عن الجمود والضغط والالحاح ، فالحاجة الجنسية أكثر مرونة من الحاجة الى التنفس أو الطعام ٠

وظهور الحاجات تصحبه لون من الانفعال يتفاوت بين اللذة والألم تبعا لما تتوقعه الأنا من اشباع أو احباط ٠ فالحاجة الى الأمن يصحبها انفعال القلق والحاجة الى الشعور بالبراءة وقيمة الذات يصحبها انفعال القلق الخلقى من اثم أو اشمئزاز أو خزى ٠ وهاتان الحاجتان بانفعالاتهما المصاحبة يشكلان بواعث الدفاع ومن ثم السبيل الى اللاسوية ٠ فهما أساس دفاعات الأنا ٠

٢ ـ صياغة السلوك :

تنحصر صياغة السلوك فى شعور الفرد بالحاجة واكتشاف الوسائل والموضوعات الى الهدف الذى ينشده ويدخل هذا كله ضمن اختصاصات الأنا كما رأينا ـ واكتشاف الأنا للوسائل والموضوعات التى تحقق البلوغ الى الهدف مسألة يتناولها علم النفس العام تحت عنوانين العادة للمواقف المألوفة والمرونة العقلية والذكاء للمواقف الجديدة ، بينما يتناولها التحليل النفسى تحت عناوين السوية واللاسوية من حيث أن الأولى هى مرونة الشخصية وحريتها بينما الثانية جمودها نتيجة للتثبيتات الطفلية ، وليس التفكير عن روية من حيث هو تجريب عقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج المقبلة غير الصورة التى تتخذها مرونة الشخصية وحريتها ازاء الهى والأنا العليا ٠ ففى حالة اللاسوية تكون الأنا عاجزة عن ممارسة التفكير عن روية لأنها عاجزة عن التحرر النسبى من متطلبات البيئة على نحو ما تبدو متطلباتا وضغوطا للهى والأنا العليا ولما كان اختيار الأهداف والوسائل والموضوعات مسألة تبعد عن الجمود الغريزى فان الاختيار يظل مفتوحا من حيث المبدأ لا تستطيعه الا الأنا السوية ٠

(أ) ففى حالة السـوية : تتحدد الأهداف بالرجوع الى الواقع الداخلى والواقع الخارجى ثم تقوم الأنا باختيار الموضوع المناسب الذى يحقق البلوغ للهدف أو الموضوعات البديلة ثم تحدد الوسائل للبلوغ الى ذلك ومن ثم نشرع فى السلوك أو فى سلسلة من المسالك يتصاعد خلالهـا التوتر لاذا حتى يبلغ اللحظة الختامية بلوغا الى هدف من الأهداف الجزئية (رضا الاشباع satisfaction) أو بلوغا الى هدف كلى يتيح تحقيق الذات والامكانيات (رضـا المسرة gratification) وفى الحالتين يكون الخفض الوقتى للتوتر من حيث هو لذة خالصة بمثابة وقفة راحة تتعبأ بعدها الطاقة من جديد مضيا على الطريق الى الهدف الكلى ، ومن ثم مضيا متصلا على طريق التقـدم والصيرورة اثراء للماهية فى محاولات لتحديد المصير • ففى حالة السـوية يتطور السلوك فى اتجاه الاشباع تحقيقا للذات والامكانيات ويتتابع توترا لاذا يتصاعد فى « كريشندو » فى ايقاع مضطرد الزيادة يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظة الختامية •

(ب) أما فى حالة اللاسوية : فتكون حرية الأنا معوقة عن الاختيـار بتثبيت على هدف طفلى (وموضوع طفلى) ، هذا الى أن موضوع التثبيت يكون قد عانى الاستدخال مما يتمخض عنتشويه فى ادراك الموضوعات الواقعية • ومن ثم تكون الأنا عاجزة عن أن تتجه الى هدف راشد سوى وموضوع راشد حقيقى (مثل عقوبة الذات فى حالة المازوشية المعنوية) ففى حالة اللاسوية لا يتطور السلوك فى اتجاه الاشباع بل فى اتجاه الدفاع ومن ثم يتتابع توترا اليما يدور فى حلقة مفرغة ما بين الحاجات والمعوقات فظهور الحاجة هنا يكون بسبب التثبيت مصحوبا بانفعالات أليمة (قلق - اثم ••• الخ) ، وهذه الانفعالات الأليمة تعوق تطور الحاجة وتسد عليها كل سبيل • وضد هذه الانفعالات الأليمة والحاجات الغريزية المثيرة لهذه الانفعالات تستعين الأنا بصورية آلية لاشعورية بميكانيزماتها الدفاعية ، هنا لا يكون السلوك تزايدا مضطردا من التوتر اللاذ بل يقتصر على التوتر بعيدا عن كل لذة يمكن أن تنتج من توقع البلوغ للهدف والاقتراب منه بالتدريج ، فتوتر الحاجة يصطدم بالتوتر الأليم للقلق أو الاثم وتسارع الدفاعات لتسد على الحفزة طريقها مما يتمخض فى العادة عن محصلة تتخذ صورة الاعراض المرضية •

وبلغة أخرى يمكن القول بأن الأنا تتعجل فى هذه الحالة خفض التوتر

لطردها للانفعالات الأليمة والحفزات الخطرة خارج الأنا وفصلها عن الأنا ، وذلك هو الأثر التفكيكي للدفاعات ، وعملية التوافق هذه فادحة الثمن ، فلابد من اســـــتمرارها أو تكرارها وعنــــــدئذ فان الحفـــــــزات المكبوتة أو الانفعـــــــالات المكبوتة تتســـــــل فى صــــــورة اشتقاقية الى التفكير والسلوك ومن ثم فى صـــــورة محـــرفة لا تتعرف عليها الأنا كما فى الأحلام والأعراض المرضـــية ولكن ينبغى التمييز بين ميكنيزمات الدفاع الناجحة وميكانيزمات الدفاع الفاشلة فالأولى تنهى الدفاع مثل الانفصال عن الكائن المحبـــوب في حالة الحداد ومثل الاعلاء حيث الافراغ مستمر بلا تعويق وان اتجه الى هدف اجتماعى غير غريزى ومقبول كما فى تصعيد الجنسية المثلية الى صداقة وتصعيد الحفزات الســـادية عند الجراح وتصعيد الحفزات الفمية عند المغني وكذلك عندما يألف الانسان أنماط من المواقف كانت تبعث فى البداية على الدفاع ، أما ميكانيزمات الدفاع الفاشلة فتتطلب انفاقا متصلا فى الطاقة اذ تقوم على تواصل الدفاع ومن ثم تنتهى الى اقفار الشخصية ، الأمر الذى يقترب بها من لوحة العصـــاب العقلى سيان كان فى صورة ما يسمى بالعصاب القلق أو فى صـــــورة النيوراستينا •

٣ - النتائج الثانوية للسلوك :

رأينا أن الهدف الأساسى للسلوك هو اشباع الحاجات تحقيقا للذات وللامكانيات ، فاذا ما تعذر ذلك يغدو الهدف هو الدفاع بلوغا الى توافق نكوصى يخفض التوتر بصورة جزئية وان يكن على حســاب قيمة الشخصية ووحدتها • ويمكن **اعتبار التوتر فى حالة السوية بمثابة نتيجة ثانوية تترتب على تحقيق الذات والامكانيات بينما يكون خفض التوتر الهدف الأساسى فى حالة اللاسوية** ، وتوجد نتائج أخرى ثانوية تترتب على السلوك من صياغة الشخصية وتكوين جهاز العـــــادات ممـــا ينتمى الى التشكيل الذاتى Auto-plastic وهناك نتائج أخرى للسلوك تتخطى بتأثيراتها حدود الذات الى البيئة والعـــــالم مما يعرف بالتشكيل البيئى allo-plastic فالسلوك يستثير عند الآخرين استجابات مكملة تتخذها صورة الانطباعات أو الأفعال فتكرار أنماط بعينها من السلوك يمكن أحيانا أن يؤدى الى تكرار أحداث متشابهة بشكل لا يصدق • وهكذا التكرار للأحداث التى تكاد تكون متطابقة والتى تكون تعسة يعرف « بعصاب القدر » من ذلك الفنان الذى وجد

نفسه مرتين ينتزع الزوجة من بين أحضان زوجها ليقترن بها • كل ذلك يمكن تلخيصه فى أن الأحداث تشبه الأفراد ، وهناك بالطبع نتاجات السلوك بمعنى ما يتمخض عن السلوك من أعمال خارجية فليس من شيء يؤدى الى النجاح مثلا أكثر من النجاح ، البطولة أو الجريمة تضع صاحبها فى موقف اجتماعى محدد الى حد بعيد ، هذا الى أن الأعمال العلمية والأدبية والفنية تنعكس كلها على الشخص فى احالة متبادلة •

فالشخصية وان قامت بتحديد السلوك ، فان السلوك بنتاجاته يسهم فى تعديل الشخصية • فكلما اقتدرت الشخصية على مواجهـــــة المواقف الخارجية بنجاح زادت وحدتها ، وكلما زادت وحدتها ازدادت قدرتهـــا على مواجهة المواقف الخارجية وهكذا فى احالة متبـــــادلة ما بين الشخصية ومسالكها •

النظرية الســــلوكية

ظهرت المدرسة السلوكية عام ١٩١٢ على يدى واطسن فى أمريكا ، وكان ظهورها بمثابة رد فعل لعلم نفس القرن التاسع عشر الذى كان يدرس الظواهر الشعورية وفى نفس الوقت كامتداد طبيعى لعلم نفس المنعكسات التشريطية الذى ظهر فى روسيا فى نهاية القرن التـــــاسع عشر على يدى بافلوف ، وبختريف •

ومعنى هذا أن سلوكية واطسن تستند الى نزعة مادية واضحة فى علمانيتها ، وعلميتها الظاهرية، مما جعله يرفض الاعتراف بصلاحية الظواهر الشعورية للدراسة العلمية وذلك بحجة استحالتها على المنهج العلمى الوحيد فى رأيه (القياس والتجريب) وكأن واطسن كان يخشى من أن التســــليم بعلمية هذه الظواهر الشعورية يمكن أن يفتح الباب عريضـــا أمام الفلسفة المثالية بحيث تدعى « جان دارك » أو غيرها ما يشاء الله لها أن تدعيه • لقد استعار واطسن من العلوم الطبيعية منهجها وراح يبحث له عن موضـــوع يناسبه فى علم النفس ، ومن هنا اقتصر على المسالك الخارجيـــة الصريحة والعمليات الفسيولوجية ، بينما كان يتحتم عليه أن ينطلق من الانسان الذى هو موضوع علم النفس ويبحث له عن المنهج الذى يناسبه •

ولم يقتصر واطسن فى ماديته « العلمية » على استبعاد الظـــواهر الشـعورية وعلى اقحام المنهج التجريبى منهجـا لدراسة الانسان بل اعتبر الفرد والسلوك مجرد نتاج للتعلم (الاكتساب) دون أن يكون للفطرة أو الوراثة من أثر فى ذلك ومن هنا فان عبارته الشهيرة « اعطنى عشرة من الأطفال اصنع لك منهم ما تريد » ٠ كأن الأمر فى نظره يقتصر على اقامة بعض التشريطات تبعا للمهنة المطلوبة ٠ فلم يكن الفرد عند واطسن أكثر من حاصل جمع لمجموعة من العادات ، ولم تكن العــــادة غير سلسلة من المنعكسات التشريطية حيث تعمل نهاية كل منعكس كمثير يطلق المنعكس الذى يليه ، وهكذا يتتابع السلوك مجرد تتابع آلى لعدد من المنعكسات التشريطية، ولم يكن الفرد فى هذا كله يختلف عن لعبة البهلوان التى تأتى لكل حركتها طالما قمنا بتشغيل الزمبرك ٠ بذلك كانت سلوكية واطسن ميكانيكية ذراتية اضافية تنكر « الدينامية » انكارها « للوظيفية » ٠

وقد كان على الســـلوكية أن تنتظر « كانتور » و « طلمان » لتعترف بالدينامية والوظيفية كما كان عليها أن تتبين استحالة السلوك بغير دافع (وان الدافع ليس غير توتر يعيشه الفرد كخبرة شعورية) وذلك قبل أن تعترف بالظواهر الشعورية جنبا الى جنب مع ماكان يقول به واطسن من مسالك خارجية وعمليات فسيولوجية ٠ بذلك كانت سلوكية واطسن ذراتيه (ضد دينامية) وميكانيكية (ضد وظيفية) وكانت بذلك ابتعاثا فى القرن العشرين لتلك الذراتية الميكانيكية التى كانت تتسم بها النظرية الترابطية ، بل وأن سلوكية واطسن قد اضفت مزيدا من الجمود على الذراتية والميكانيكية بنزعتها الشيئية chosisme التى تعامل الانسان معاملة (أشياء الطبيعة)، بل ولا تدرس منه غير مثل هذه الأشياء (مسالك خارجية صريحة وعمليات فسيولوجية) ، بينما كانت الذراتية والميكانيكية فى النظرية الترابطية فى القرن التاسع عشر أقل جمودا لأنها تنصب على ظواهر شعورية ٠

(كان الفرد فى القرن التاسع عشر حاصـــل جمع ملكات ٠ ونعنى الذاكرة والذكاء والخيـــال ٠٠٠ الى آخره ، وكانت الملكة حاصل جمع ادراكات ، وكان الادراك حاصل جمع احساسات) كان الانتظام فى النظرية الترابطية فى القرن التاسع عشر ، شيئا ينضاف الى المواد النفسية بنتيجة للترابطات التى تنشأ بتأثير الترتيبات الخارجية بين هذه المواد النفسية ٠

ومن هنا كانت نظرية الجشطلت بحق ثورة كوبرنيكيه على ترابطية القـرن التاسع عشر عندما قدمت الأدلة القاطعة على أن الظاهرة النفسية هى فى صميمها انتظام أى جشطلت ، فالانتظام لاينضاف الى المواد النفسية من خارجها بل هو صميمها ولبها · فما من ظاهرة نفسية بغير انتظام (انظـر الفصل الأول من « علم نفس الجشطلت » - بول جيوم - الترجمة العربيـة - مخيمر - الناشر سعيد رأفت) وهكذا فان سلوكية واطسن قد اضفت على الذراتية والميكانيكية مزيدا من الجمود بنزعتها « الشيئية » · كان الفرد كما قلنا مجرد حاصل جمع العادات ، وكانت العادة مجرد تتابع آلى لعدد من المنعكسات التشريطية التى « ترابطت » نتيجة للتكرار ، وكان هذا كله مجرد نتاج للتعلم (الاكتساب) بعيدا عن كل تأثير للعوامل الفطرية أو الوراثية · وكان هذا كله مجرد امتداد طبيعى لما توصل اليه بافلوف وبختريف فى روسيا فى تجـــاربهم الشهيرة على الكلاب والتى تمخضت عن علم نفس المنعكسات التشريطية · فتعلم الفئران للطريق الصحيح فى « المتاهات » فى تجارب واطسن ، شأنه شأن تعليم الأفراد للمقاطع الصوتية عديمة المعنى فى تجارب « ابنجهاوز » ، ليس غير « ترابط » ينتج عن التكرار ، وبلغـــة أخرى ليس غير تتابع آلى لمنعكسات تشريطية تلك هى النظرية الميكانيكية فى التعلم والتى يتزعمها واطسن والتى تنفتح لانتقادات قاتلة عديدة · فالمنعكس التشريطى قد تكشف فى نهاية الأمر استجابة تشريطية وذلك لأنه فى حالة « سيلان اللعاب » عند الكلاب مثلا تختلف كمية اللعـــاب ويختلف تركيبه الكيمائى من تجربة لأخرى عندما نقدم المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر مثلا) دون « تعزيز » أى دون أن يظهر بعده المثير الطبيعى (بودرة اللحم مثلا) وأكثر من ذلك أن الاستجابة التشريطية (ولا نقول المنعكس التشريطى بعد أن ثبت بعده عن البساطة والثبات) تنتهى فى هذه الحالة الى « الانطفاء » فلا يظهر « سيلان اللعاب » عند ظهور المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) ولكن بعد فترة من توقف هذه التجارب يمكن عند تقديم المثير التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) أن تظهر الاستجابة التشريطية (سيلان اللعاب) مما يعرف باسم « استرجاع التلقائى » · وطبيعى أن تكون النظرة الميكانيكية عاجزة تماما عن تفسير مثل هذه الظـــاهرة وربما يكون أعظم الانتقادات تقويضا للنظرية الميكانيكية هذه هو أن التشريط لايتم الا اذا كان « المثير التشريطى » (جرس أو ضوء أخضر) سابقا لعدة ثوان على ظهور المثير الطبيعى (بودرة اللحم) · فلماذا لايتم التشريط عندما يظهر المثير

التشريطى (جرس أو ضوء أخضر) لاحقـــا بعدة ثوان على ظهور المثير الطبيعى (بودرة اللحم) ، لو أن الأمر مجرد ترابط ينشأ عن التجاور الذى يتكرر مما نسميه « بعامل التكرار » · أنظر المزيد من انتقـــادات النظرية الميكانيكية فى التعلم فى « المدخل الى علم النفس التعليمى ـ مخيمر ـ الأنجلو) كل هذه الصعوبات تختفىعلى الفور عندما نضع فى اعتبـــارنا « الدلالة » أى « الوظيفية » فجرس الطعام فى المدارس الداخلية أو نوبة الطعام فى الجيش (لحن موسيقى خاص) تنطوى علىدلالة بعينهـــا هى (الانذار) بأن الطعام الآن أصبح معدا وجاهزا لتناوله ، ومن هنا يكون « سيلان اللعاب » عند الأفراد استعدادا لتناول الطعام ، أما عندما يشرع الأفراد فى تناول الطعام فبوسعك أن تضرب ما شئت من الأجراس أو النوبات العسكرية فانها لن تكون « علامة » على أن الطعام جاهز أى أنها لاتنطوى على هذه الدلالة ·

مثال آخر يوضح ذلك : يحضر صديقك « ع » ولاتكاد تستقبله حتى يدق جرس الباب ، واذا بزيارة من الطعام الفاخر قد وصلتك من قريتك ويتكرر هذا الأمر مرات كثيرة حتى يصبح صديقك « ع » ينطوى على دلالة ويغدو « علامة » على الوصول الوشيك حتى يأتيك الخير · هذه هى «الدلالة» التى ينطوى عليها ، ولكن تصور الأمور تمضى على العكس بحيث لاتكاد تصلك زيارة الطعام الفاخر من قريتك حتى يدق صـــــديقك « ع » الباب حاضرا لزيارتك · فى هذه الحالة سيكون ضيفا ثقيلا يفرض نفسه ويشارك فى زيارة الطعام الفاخر بينما تفضل أن تنفرد به ·

كل شيء يبدو واضحا عندما نتخلى عن النظرية الميكانيكية بترابطهـــا المزعوم والناتج عن تكرار التجاور فى الزمان أو المكان لنتبنا « الوظيفية » ·

وكذلك الحال بالنسبة الى ظاهرة « الانطفاء » وظاهرة (الاسترجاع التلقائى) تصور معى طالبا تلتقى به طالبة عدة مرات وفجأة شرعت لاتحضر الى الميعاد الذى يتفقان عليه يذهبالطالب مرة ولا يجدها ثم مرة ثانية فتخلف أيضا موعدها ثم كذلك الحال فى المرة الثالثة · بعد ذلك يكون من الطبيعى حتى لو اتفقا على موعد جديد الا يذهب للميعاد · هذا هو ما تسميه السلوكية بظاهرة « الانطفاء » وطالماأن الطالبة اتفقت معه أكثر من مرة على ميعـــاد

للمقابلة ولم تذهب للميعاد ، فمن الواضح أنها لم تعد ترغب فى مقابلته ، ربما يكون قد ظهر فارس آخر فى الحقل أكثر امتيازا من صاحبنا ·

وتمضى أشهر بلا مواعيد وبلا مقابلات وبعد هذه الأشهر يحدث أنهما يتفقان من جديد على موعد للمقابلة فى هذه الحـــالة يكون من الطبيعى لصاحبنا الطالب ان يذهب الى الميعاد · كانت قد انقطعت عنه فاذا بها قد عادت اليه تتفق على لقاء جديد ، أغلب الظن أن الفارس الذى كان قد ظهر وشدها اليه قد اختفى الآن ومن هنا يحتمل جدا أن تكون قد عادت اليـــه · هذا هو ما نسميه السلوكية « الاسترجاع التلقائى » وتفسره بأن الحيوان يكون قد « تعب » من تكرار التجارب وعنــــدما يشعر بالراحة تعود اليه الاستجابة ومثل هذا التفسير لايقبله العقل ، بل يغدو كل شىء معقولا ومفهوما عندما ننظر الى الأمر من زاوية الدلالة والوظيفية ·

ويغدو الأمر أكثر وضوحا فى حالة « التشريطات الاجرائيـــة » التى تسمى أيضا بالتشريطات الوسيلية أو الأدواتية بينما تسمى التشريطـــات السابقة فى تجارب بافلوف وواطسن « بالتشريطات الكلاسيكية » · فما هو الاختلاف بين هذين النوعين ؟ ·

تتلخص القصة فى أن ثورنديك كان فى البداية وفى تجاربه على القطط « المحارات » يفسر التعلم عن طريق الترابط الذى ينتج عن التكرار · ولكن ثورنديك عدل بعد ذلك عن التفسير الميكانيكى وقال بنظرية الدافعية فى التعلم والتى تعرف أحيانا باسم المحاولة والخطأ والتى انتهى منها ثورنديك الى قانون « الأثر » · فمتى تساوت جميع الظروف ، فان الاستجابة التى يصحبها أو يعقبها مباشرة ، أثرسار (اشباع أو خفض توتر) تلقى التعزيز ، أى تميل الى أن تتكرر وبالتالى تثبت فى صورة تعلم ، بينما الاستجابة التى يصحبها أو يعقبها مباشرة أثر كدر (عقوبة أو توتر) تميل الى أن تختفى أى الى الانطفاء ومن الواضح أن قانون الأثر هذا بتشريطه الاجرائى لايختلف فى شىء عن مفهوم الوظيفية فى التحليل النفسى ، بل عادة ما يعتبر قانون الأثر فى السلوكية مناظرا لمبدأ اللذة والألم فى التحليل النفسى · فالسلوك الذى يكون أثره سارا أو مريحا يميل الى أن يتكرر لأن السلوك فى هذه الحـالة ينطوى على دلالة تنحصر فى استجلاب السرور أو الراحة · يتضح ذلك من مثال بسيط طالب كلما يرتدى بدلته الزرقاء يكون موفقا مع الجنس الآخر

بينما كلما ارتدى بدلته الرمادية يلقى الرفض والاهانة من الجنس الآخر · طبيعى أن تستقر لديه ظاهرة التطير أى التشاؤم من بدلته الرمادية والتفاؤل ببدلته الزرقاء · وفى كل هذه الحالات يظل الأمر مجرد دلالة أو وظيفة لاترابط ينشأ عن طريق التكرار · لكن نعود ونتساءل عن الاختلاف بين التشريط الكلاسيكى عند بافلوف وواطسن وبين التشريط الاجرائى عند ثورنديك ثم عند سكينر الذى ينسب اليه البعض دون حق هذا النوع من التشريط من كثرة ما دافع عنه وأوضح تطبيقاته ·

فى التشريط الكلاسيكى ينصب التعزيز على المثير ، بينما فى التشريط الاجرائى ينصب التعزيز على الاستجابة · فى حالة التشريط الكلاسيكى ينصب التعزيز كما قلنا على المثير فان كان المثير طبيعيا (بودرة لحم) سميت الاستجابة (سيلان اللحم) بالاستجابة الطبيعية ، أما اذا كان المثير غير طبيعى (جرس أو ضوء أخضر) تكون تسميته بالمثير الشرطى وتسمى الاستجابة فى هذه الحالة (سيلان اللعاب) بالاستجابة التشريطية ، ولكن الاستجابة فى الحالتين طبيعية بمعنى انها تمثل جانبا من العتاد الفسيولوجى للفرد والأمر كله ينحصر فى أننا نضفى دلالة مثير طبيعى (بودرة اللحم) على مثير آخر غير طبيعى (جرس مثلا) · ولو وضعنا مثيرا غير طبيعى آخر (ضوء اخضر) قبل الجرس يكون ذلك تشريط من درجة أعلى « هى الدرجة الثانية » وعادة ما يستحيل المضى بالتشريط الى أكثر من الدرجة الرابعة ·

التعميم والتميز :

عندما يتم تشريط الكلب مثلا بحيث يستجيب « بسيلان اللعاب » للضوء الأخضر ، فان الكلب عادة ما يكشف عن ظاهرة « التعميم » بحيث يستجيب بسيلان اللعاب لكل ضوء أخضر مهما اختلف عن الضوء الأخضر الأصلى ، ولكنه مع الوقت يتعلم « التمييز » فلا يستجيب الا للضوء الأخضر بشدته الخاصة ونوعيته الخاصة على النحو الذى كان عليه فى التجارب التشريطية، ويتضح ذلك عند الطفل الذى يميل فى البداية الى « التعميم » فينادى كل رجل بكلمة « بابا » ونتيجة للحرج الذى تشعر به الأم تحمله على أن يتعلم « التمييز » بحيث يقتصر استخدامه لكلمة « بابا » على أبيه دون الرجال الآخرين ·

التعزيز والانطفاء :

عندما يظهر الضوء الأخضر ويظهر بعده مباشرة المثير الطبيعى (بودرة اللحم) يكون التعزيز مما يعنى فى رأينا تعزيز دلالة الضوء الأخضر كانذار يبشر بالظهور الوشيك للطعام • أما عندما يظهر الضوء الأخضر ولا يعقبه المثير الطبيعى (بودرة اللحم) فذلك يعمل على النقيض على انطفاء تلك الدلالة التى كانت للضوء الأخضر • وكذلك فى حالة التشريط الاجرائى فان الاستجابة التى يعقبها أثر سار فى صورة اشباع أو راحة ناتجة عن خفض التوتر ، تلقى التعزيز مما يعنى فى راينا أن تتدعم دلالتها كوسيلة وأداة واجراء يبلغ بالكائن • الى السرور • وعلى العكس عندما تظهر الاستجابة ولا يعقبها الأثر السار فانها فى هذه الحالة تعانى الانطفاء أى تميل الى عدم الظهور والاختفاء •

والخلاصة انه سيان كان التشريط كلاسيكيا على طريقة بافلوف وواطسن أو اجرائيا على طريقة ثورنديك وسكينر ، يتحتم أن يكون الكائن العضوى فى حالة دافعية عالية ، ثم يكون علينا بعد ذلك اما أن نضفى دلالة مثير طبيعى على مثير آخر غير طبيعى فنقدمه سابقا عليه ببضع ثوان ويكون التشريط فى هذه الحالة كلاسيكيا ، واما أن نضفى على استجابة ما دلالة سارة أو كدره بحيث نجعلها تتمخض عن السرور أو الكدر فيكون التشريط فى هذه الحالة اجرائيا • فالتشريط الكلاسيكى ينحصر فى اضفاء دلالة جديدة على مثير ما ، بينما ينحصر التشريط الاجرائى اضفاء دلالة جديدة على استجابة ما • وتكون الاستجابة فى التشريط الكلاسيكى استجابة طبيعية يطلقها مثير طبيعى تقوم فى التشريط باضفاء دلالته على مثير آخر ليس من طبيعته أن يطلق الاستجابة ولكنه يصبح نتيجة التشريط قادرا على اطلاق الاستجابة • أما فى حالة التشريط الاجرائى فان الاستجابة لاتكون طبيعية (أى تنتمى الى العتاد الفسيولوجى للكائن العضوى) بل تكون مجرد حركة أو اجراء يصدر عن الكائن العضوى فتعقبه بأثر سار أو بأثر كدر ومن ثم نعمل على تعزيزه وتثبيته أو اطفاءه (١) •

---

(١) وكما أن مبدأ اللذة فى التحليل النفسى يلقى التسليم فكذلك النصف الأول من قانون الاثر عند ثورنديك ، بينما مبدأ الألم وما يلحق به من قهر التكرار ينفتح للجدل فى التحليل تماما كما ينتج النصف الثانى من قانون الأثر عند ثورنديك للجدل فى السلوكية •

بذلك نكون قد عرضنا للتشريط الكلاسيكي والتشريط الاجرائي وتبينا كيف أنهما في الواقع يستندان الى مفهوم الوظيفية (الدلالة) ٠ وكذلك قد رأينا ما يعنيه التعزيز والانطفاء في التشريط الكلاسيكي والاجرائي بل وما قد يكون هناك من استرجاع تلقائي وبالنسبة الى التشريط الكلاسيكي رأينا التعميم والتمييز ورأينا التشريط من درجة أعلى وبذلك نكون قد عرضنا لأهم المفاهيم ــ المفاتيح التي تقوم عليها السلوكية ٠

وفي رسالته (١) عن العلاج السلوكي ــ عرض ونقد ــ أوضح حسام عزب أن العلاج السلوكي (حتى في أحدث صورة التي تسمى بتعديل السلوك والتي تحاول انكار السيكودينامية والصراع) انما تقوم على السيكودينامية شأنه شأن التحليل النفسي ٠ فما يسميه العلاج السلوكي الحديث (تعديل السلوك) بالعوامل غير النوعية (الاستبصار وعلاقة المريض بالمعالج بما تنطوي عليه من رغبة واعتقاد في الشفاء وقابلية للايحاء ،والتنفيس ٠٠الخ) ليس غير ظاهرة الطرح في التحليل النفسي ، بينما الفنيات التي يعتبرها تعديل السلوك عوامل نوعية توجد في التحليل النفسي على انها عوامل مساعدة ٠ فمن المعلوم أن فرويد في علاج الفوبيات قد أوصى (عندما يصل التحليل الى تفكيك بنيان العصاب بدرجة كافية) بضرورة تشجيع المريض على مواجهة المواقف المرهوبة بمعنى « تعريضه » للمثيرات المرهوبة وهذا « التعريض » عندما يتم بالتدريج فيمضي من الأقل ارهابا الى الأكثر ارهابا يكون « التحصين التدريجي » بينما يكون « التعريض » في فنيات أخرى غامرا وبدون تمهيد من الاستبصار سابقا على الغمر ٠ وعندما يكون التعديل بمحاكاة المعالج كأنموذج مما يسمى Modeling فتلك نتيجة مباشرة للطرح الموجب بينما عندما يتم التعديل بغير محاكاة المعالج مما يسمى "Shaping" فذلك أثر أيضا من آثار الطرح الموجب حيث يتم التعديل على النحو الذي يريده المعالج ٠

وهكذا نجدنا مرة أخرى أمام كثرة من المصطلحات المختلفة لمدارس مختلفة الأسماء ، بينما يكون المضمون هو هو وبعينه ٠

---

(١) رسالة الدكتوراة تحت اشراف مخيمر ــ جامعة عين شمس ــ ١٩٧٨ ٠

الصراع محور الصحة النفسية

أولا : فى وجهات النظر التفسيرية :

١ - هناك وجهة النظر العصبية الفسيولوجية :

فعلم الأعصاب وعلم الفسيولوجيا ينظران الى الفرد على أنه جهاز فيزيائى معقد ومن ثم ترجع الاختلالات الى خلل فى الجهاز أو عطل نزل ببعض أجزائه • هذا العطل يمكن أن يكون نتيجة تلف لجزء أو بعض من الأجزاء بفعل الاصابة أو المرض مما يدخل فى اختصاص طبيب أمراض الجهاز العصبى • كما يمكن للعطل أن يكون نتيجة تلف بفعل سم دخيل كالكحول أو بفعل مادة سامة تفرز فى الداخل ، مما يدخل فى اختصاص الفسيولوجيا •

وعلم الصحة النفسية لا يقوم على التفسير العصبى الفسيولوجى باختلالته النوعية من قبيل الأفازيا والاتاكسيا •• الخ ولكنه يسلم بأن هذا تخصص آخر ينتمى الى الطب النفسى ويتناول اختلالاته الطبيب النفسى الذى هو طبيب عادى تخصص بعد تخرجه فى الاضطرابات العقلية ويقوم علاجه على العقاقير والصدمات الكهربية • ويقضى العرف الشائع على المحلل النفسى أو المعالج النفسى الا يشرع فى العلاج النفسى لحالة من الحالات قبل أن يتأكد بأن الاختلالات فى هذه الحالة لاترجع الى أسباب عضوية الأمر الذى يتم فى العادة عن طريق فحص طبى •

٢ - وهناك وجهة النظر السيكولوجية :

فعلم الصحة النفسية ينظر الى الفرد على أنه كائن كادح فى بيئته من أجل اشباع حاجاته • ومن هنا فالمفاهيم الأساسية هى الحاجات والاحباطات والصراعات والتكيفات • فالسلوك غير السوى هو توافق غير تكيفى ينتج فى رأى السلوكية عن صراع بين حاجات الفرد وحاجات البيئة(١) مما نعتبره نتاجا لعملية تعلم فاشلة لنأخذ مثلا حالة طفل لديه بالطبع حاجات

---

(١) بينما ينتج فى رأى التحليل النفسى عن صراع داخلى بين الهى وحاجاتها الغريزية والأنا بدفاعاتها تساندها الانا العليا •

للنشاط والتعبير الخارجي ولديه أيضا حاجات قوية لحب الوالدين وعطفهما وتقديرهما . فاذا وجد من الوالدين صدا لمحاولاته للتعبير عن رأيه ونشاطه فانه يتعلم من قبيل التوافق الانسحاب والصمت . فالأمر الذى يفهمه التحليل النفسى من الناحية الدينامية والوظيفية على أنه صراعات داخلية بين الحفزات الغريزية ودفاعات الأنا تمخضه عن حلول توافقية تكيفية أو توافقية غير تكيفية ، تفهمه السلوكية من زاوية التشريط والعادات .

ثانيا : في وجهة النظر السيكولوجية :

ان التفسير السيكولوجي للسلوك غير السوى هو هو نفسه بالنسبة للسلوك السوى ففى الحالين يستند الى مفاهيم الحاجات والاحباطات والصراعات والتوافقات أو التكيفات . ففى تجارب الحـــارة والمتاهة فى السلوكية يكون الدافع عند الحيوان حاجة فسيولوجية وتكون ظروف البيئة معوقة لاشباع هذه الحاجات (دافع - احباط) . وعجز الكائن عن الاشباع يدفعـــه الى سلسلة من المحاولات العشوائية تتابع فيها الحلول الفـــاشلة حتى يكتشف فجأة وربما عن طريق الصدفة الحل الذى يتأدى به الى الاشباع الذى يقوم بتعزيز « الاستجابة - الحل » ومن ثم تثبت فى صـــورة تعلم (استجابات منوعة - حل بنائى (١)) . أما فى حالة الانسان فتظهر امكانية جديدة هى امكانية الحلول البديلة التى لا تفى تماما بالغرض وهذه الحلول البديلة عظيمة الأهمية من زاوية علم الصحة النفسية (علم النفس المرضى) وذلك لأن هذه الحلول البديلة تكون فى السلوكية اما فى صورة ميكانيزمات دفاعية أو فى صورة أعراض مرضية .

كل ذلك بالنسبة للسلوكية ، أما فى التحليل النفسى فان الصراع لايمكن مهما كانت قوته أن يتمخض عن المرض والاختـــلالات طالما ظل شعوريا . فالصراع اللاشعورى هو وحده الذى يمكن أن يتمخض عن الاختلالات وعلى وجه الدقة ينحصر هذا الصراع اللاشعورى فى العقدة الأوديبية عندما يعجز الطفل عن تصفيتها فيلجأ الى استبعادها من الشعور بمعنى أن يكتبها ومن

---

(١) تلك هى وجهة النظر السلوكية عند دولارد وميللر وشافروشوبن التى تختلف عن السلوكية الجديدة أى تعديل السلوك التى ترفض مفهوم الصراع وتقتصر فى حديثها على التشريطات الكلاسيكية أو الاجرائية .

ثم تصبح العصـــــاب الطفلى الذى هو بذرة كل مرض لنفسى او عقلى فى المستقبل • والصراع فى التحليل النفسى حفزة غريزية خطرة (سيان كانت جنسية أو عدوانية) ، ومن ثم يتولد القلق اشارة انذار بهذا الخطر ، وتعبىء الأنا ميكانيزمات الدفاع لمواجهة هذا القلق فاذا نجحت انحل الصراع واذا فشلت ظهرت الأعراض المرضية محصلة فى العـــــادة للحفزات الغريزية وللميكانيزمات الدفاعية ، وان كانت احيانا مجرد تعبير عن دفاعات الأنا أو مجرد نتاج لافتقار الأنا من حيث الطاقة النفسية مما كان يدخل عند فرويد تحت العصاب العقلى •

ثالثا : في الدوافع وصراعاتها (١) :

وراء كل سلوك دافع • ولكن الدينامية تقضى بأن يكون السلوك محصلة صراع بين دافعين أو أكثر ومن هنا تظهر أهمية فهمنا للدوافع وصراعاتها • والدافع هو هذا التفكك الذى يطرأ على الاتزان القائم فى صورة توتر يدفع بالكائن الى ازالة هذا التوتر واعادة الاتزان •

فالدافع طاقة تحرك (الحـــــافز فى السلوكية يحرك ولا يوجه بل التشريطات هى التى توجه) حتى يتم القضاء على التوتر ويتحقق الاتزان من جديد (انظر مبدأ الهيموستازس ومبدأ الثبات •• الخ) ويظهر الدافع فى صورة حاجة يعيشها الشخص فى صورة توتر • فى الموقف المألوف يظهر السلوك المألوف ويكون الاشـــــباع أى اعادة الاتزان • أما فى الموقف غير المألوف فتكون المحاولات التى تبلغ اما الى الاشباع واعادة الاتزان واما الى الدفاع واعادة نوع من الاتزان أيضا فالنهاية اما اشباع واما دفاع •

وتتباين المدارس فى نظرتها الى طبيعة الدوافع • فنظرية الغرائز تجعل من الدوافع الأساسية قائمة الغرائز فى الانسان بينما تكون الدوافع الثانوية بمثابة مشتقات من الأولى • قال ماكدوجال بأربعة عشرة غريزة ولكنه انتهى الى الحديث عن العواطف التى هى الغرائز فى اشتباكها بالبيئة •

---

(١) فيما يتصل بالدوافع انظر الفصل العاشر « فى التنشـــــئة ودور الأسرة والمدرسة فى كتاب المدخل الى الصحة النفسية ـ الطبعة الثالثة ـ مخيمر ـ الانجلو •

أما نظـــرية التحليل النفسى فالدوافع كلها ترتد الى مجموعتين من الغرائز الجنسية والعدوانية التى تمثل المعبر بين البيولوجى والنفسى وتظهر هذه الغرائز فى صورة طاقة هى الليبدو والذى يغلب عليه عند فرويد أن يكون طاقة نفس جنسية بينما يعتبره يونج الطاقة الحياتية ٠

واذا كانت الدوافع عند مكدوجال فى نظريته التفاعلية تعمل جنبا الى جنب وفى تفاهم فان هذه الدوافع فى النظرية التفـــاعلية عند فرويد تدخل أساسا فى صراعات وتتمخض عن محصلات ، مما يجعل فرويد بحق أستاذ الدينامية فى علم النفس ٠ كما كان سان سيمون أستاذ الدينامية فى علم الاجتماع ٠

وهناك نظرية المنعكسات التى تعتبر الدوافع الأساسية فى أصلها مجرد ردود فعل تظهر فى الكائن العضوى نتيجة التنبيهات التى تناله ويكون قوامها تغيرات كيمائية ولكن هذا التفسير لا يصدق على الدوافع الثانوية بل ويظل قاصرا فى حالة الدوافع الأساسية ٠

وهناك أيضا نظرية الحاجاتالتى تعتبر الدوافع الأساسية مجرد حاجات تظهر عندما يعانى الكائن العضوى ضياع اتزانه من زاوية ما (يظهر الجوع عند اختلال الاتزان من زاوية العناصر الغذائية) ذلك هو موقف « ماسلو » مثلا الذى يعتبر الدوافع نسقا ثابتا من الانتظام الهرمى للحـــاجات بحيث لا تظهر رقاقة الا اذا حظيت الرقاقات التى تحتها بالاشباع ٠ وهذه النظرية تتخطى التفرقة العقيمة بين دوافع فطرية وأخرى مكتسبة ٠

هناك محاولات لتصنيف الدوافع وحصرها فى قائمة واحدة وبعينها :

(أ) محاولة لتصنيفها الى دوافع فطرية أولية (غرائز) والى دوافع مكتسبة ولكن يصعب الفصل بين ماهو فطرى وما هو مكتسب ومن هنا يكون الاختلاف (فى النظر الى التملك والسيطرة ٠٠٠ الخ) ٠

(ب) محاولة لتضيفها الى دوافع أولية (عضوية) والى دوافع ثانوية تضم بقية الدوافع ولكن كثرة من الدوافع الأخيرة تستند فى الواقع الى أساس عضوى ٠

(جـ) محاولة لتضيفها الى دوافع فطرية ودوافع اجتمـــــاعية ودوافع متراكبة تقوم على التمييز بين ماهو فطرى وما هو مكتسب وتلك ثنـــائية تخطاها علم النفس (١) . فبعض الدوافع تغلب عليها فى الواقع الصـــفة الفطرية وبعضها الآخر تغلب عليه الصفة الاكتسابية بينما بعض ثالث تغلب عليه أساسا الصفة الشخصية ومن هنا يكون تفوق نظرية « ماسلو » فى الانتظام الهرمى للحاجات (الحاجات الفسيولوجية) فى قاعدة السلم تحجب ظهور هياكل مافوقها · ثم تأتى بعد ذلك حاجات الأمن والسلامة ، ثم تأتى بعد ذلك حاجات تقدير الذات فى نظر الفرد وفى نظر الآخرين · ثم تأتى أخيرا حاجات توكيد الذات وتحقيق امكانياتهـــا (أنظر جولدشتين) تلك هى الدوافع الأساسية عند « ماسلو » وهناك دوافع أخرى تلحق بها ·وينبغى التنبه الى أن هذا الترتيب الدرجي ثابت لا يتغير عند « ماسلو » فهو لايتنبه الى أنه يمكن أن يأخذ انتثارات متبـــاينة بحيث يمكن القول بأن الدوافع عامة ونوعية وفردية معا · وينبغى التنبه أيضا الى أن الدوافع وان تعاونت أحيانا فى صياغة سلوك ما الا أن الأساس هو تصارعها كما يعلمنا التحليل النفسى · وقد يكون الصراع بين حاجات من هذه الدرجة وحاجات من درجة أخرى فى السلم ولكنه يكتشف دائما صراعا بين الحاجات الغريزية وحاجات الأنا الى الأمن بمجاراتها للقيم الأخلاقية ·

بوسع التعلم عن طريق الشريط ، أن يعدل من المواقف التى تثير الدوافع كما يعدل من اللون الذى تتخذه ، فهناك تحديد ثقافى للمجرى الذى ينبغى أن تسير فيه الى الاشباع بل والموضوعات التى يمكن أن تتجه اليها الدوافع· فالدوافع وان كانت عامة فانها تتشكل ثقافيا وتتخذ عند كل فرد انتشـــارا فريدا · ومن هنا تظهر أهمية التنشئة للأطفال (أنظر سيكولوجية الشخصية نوتكات ترجمة مخيمر حيث تتباين النظريات البيئية من الســـلوكية الى الماركسية الى الانتروبولوجيا الثقافية انظر أيضا النظريات التفـــاعلية فى التحليل النفسى وماكدوجال ونظرية المجال عند كيرت ليفن) ·

---

(١) ما من تعلم (بيئة) ممكن الا فى الحدود التى تسمح بها الفطرة ، وما من وجود ممكن للفطرة الأعلى مسرح البيئة (التعلم) فكل محاولة لعزل الفطرة (النضج) عن التعلم (البيئة) ليست غير عبث وجهد دون طائل ·

خلاصة هذا كله أن الدوافع تتشكل بفعل التعلم وبقدر ما تلقى الدوافع الأساسية الفسيولوجية الاشباع تبرز الى السطح الدوافع الثانوية النفسية الإجتماعية وتحتل مكان الصدارة ٠

فبالنظر الى تبعية الطفل لوالديه وخاصة ابان الطفولة فانه يتعلم الحاجات الاجتماعية أى الثانوية بغية تقبل الآخرين له وحبهم وتقديرهم ٠ فكيما يبلغ الى الأمن والمحبة يلجأ الى المجاراة ٠ والتوحد مع الآخرين مما يسمى القطيعية ٠ وبالنظر الى حضارتنا تتطلب النجاح عن طريق التنافس والمباراة فانها تولد أيضا عند الأفراد الدافع الى التفوق والبروز والسيطرة بما ينطوى عليه ذلك من طموح وعدوانية ٠ وحضارتنا لاتسمح فى الواقع باشباع هذه الحاجات الا عند قلة قليلة ٠ ومن هنا يكون احباط هذه الحاجات الاجتماعية عند الغالبية طريقا فسيحا الى الحلول البديلة والاختلالات ٠ هذا الى عديد من الدوافع المتناقضة الأخرى التى تعكس « تناقضات المجتمع الرأسمالى » ٠ فهناك الدافع الى التعبير عن التلقائية ودافع مضاد للابقاء على محبة الآخرين وتقديرهم ٠ مما يعنى الدافع الى التفوق وتخطى الآخرين والدافع المضاد بضرورة معاونة الآخرين لكسب حبهم وتقديرهم ٠ وهناك الدافع الى الحرية ودافع مضاد من معوقاتها الواقعية ٠ دافع الى الطموح ودافع مضاد من معوقاته الواقعية دافع الى الاشباع تولده الاعلانات المغرية ودافع مضاد من معوقات واقع الأجور وتوزيع الثروات ٠ دافع جنسى تولده التحررية المتزايدة للموضة ودافع مضاد من معوقات القيم الأخلاقية ، هذا الى ان الدافع الجنسى قد يتعارض مع دافع الطموح ٠ وهذا وذاك قد يتعارضان مع دافع الأمن بالاضافة الى دافع تقدير الآخرين ومحبتهم **وهكذا فان الدوافع كما يتعلمها الطفل تفرض على حياته الصراعات ٠**

من زاوية التحليل النفسى فان دوافعنا الغريزية فى الغالبية منها تعتبرها القيم الثقافية دوافع خطرة ٠ ومن هنا تتعلم الأنا الوقوف فى وجهها والدفاع ضدها بذلك تنشأ الصراعات ولكن حتى فى غيبة هذه التحريمات الاجتماعية فان الصراع يظل بعدا من أبعاد الحياة ، ذلك أن بعض الدوافع الغريزية تمثل بالنظر الى شدتها الخاصة وعلى أرضية من ضعف الأنا الطفلية خطرا يتهدد انتظام الأنا بالانغمار ومن ثم تلجأ الى الدفاع ضد هذه الدوافع الغريزية ٠

فالصراع بعد من أبعاد الحياة البشرية ٠

رابعا : فى ديناميات الصراع من زاوية السلوكية (ميللر) :

يذهب (دولارد) و (ميلارد) الى أن الصراع الانفعالى الشديد هو الأساس الضرورى للسلوك العصابى (١) ودراسة الصراع فى علم النفس التجريبى قد ارتبطت بشكل وثيق باسم ميللر وبالنظر الى أن تحليله لديناميات الصراع هو شيء أساس لفهم السلوك العصابى فسوف نتناول هذا الأمر فى شيء من التفصيل ٠

الأنواع العامة للصراع فى نظر ميللر :

١ ـ صراع الاقتراب ـ الاقتراب :

وهو يشير الى الموقف الذى تكون فيه لدى الكائن نزعة الى الاقتراب من هدفين مستقلين مع كون الاقتراب من أحد الهدفين يتمخض عن فقدان الآخر ٠ مثال نمطى بهذا النوع من الصراع هو الفتاة بين خطيبين جذابين بنفس الدرجة ، وتود الزواج من كليهما واختيار أحدهما يتمخض بالضرورة عن فقدان الآخر ٠

هذا النوع من الصراع عادة ما يكون يسيرا فى فضه ، حيث يحدث فى العادة ما يرجع احدى الكفتين جاعلا أحد البديلين مرغوبا فيه بأكثر من الآخر ٠

٢ ـ صراع الاجتناب ـ الاجتناب :

وهو يشير الى الموقف الذى يقوم فيه شيئان أو هدفان باستخراج استجابات الخوف ولكن تجنب الواحد يكره الحركة الى ان تتجه الى الآخر ٠

وهذا النوع من الصراع مثاله الطالب الذى يكره أو يخاف من الدراسة وفى نفس الوقت يخاف الرسوب فى الامتحان (٢) ، فاذا كان صراع الطالب

---

(١) أمكن توليد العصاب التجريبى عند الكلاب (ربط الدائرة بالطعام والبيضاوى بصدمة كهربية ثم اظهار شكل وسيط لايتضح ان كان دائريا أو شكلا بيضاويا) ٠

(٢) لكى يتجنب الرسوب لابد أن يقع فى الدراسة ولو تجنب الدراسة لابد أن يقع فى الرسوب ٠

قويا لدرجة كافية فان حله يمكن أن يكون بترك المدرسة والعثور على عمل ·

٣ _ صراع الاقتراب الاجتناب :

هذا النوع أكثر تخريبا من النوعين الأولين ، لأنه يحدث عندما يكون هدفا بعينه موضع رغبة ورهبة ، فى نفس الوقت وقد حظى صراع الاقتراب الاجتناب بدراسات تفصيلية كما أمكن البرهنة على أن له تأثيرات مضنية على السلوك سيان فى المعمل أو الحياة بصفة عامة ·

ومثال لصراع الاقتراب الاجتناب ، هو الطفل الصغير الذى تكون أمه مولعة بالعقوبة ولكنه مع ذلك فى تبعية تامة لها من أجل الحب والرعاية ، انه لايستطيع أن يتجنب أمه بسبب اعتماده عليها ، ومع ذلك لا يستطيع أن يقترب بسبب خوفه منها · مثال آخر هو الفتاة التى ترغب فى الزواج وفى نفس الوقت تخاف من الزواج · وفى الحياة تكون معظم صراعاتنا متشابكة، بحيث تغدو صراعات اقتراب _ اجتناب مزدوجة أو متعددة ، ومثـــال ذلك فتاتنا تلك التى فى نفس الوقت « ترغب فى » و « تخاف من » الزواج والتى يتحتم عليها الآن أن تختار بين خطيبين جذابين فى نفس الدرجة والتـأثير التخريبى لصراعات الاقتراب الاجتناب ، يرجع الى كونها مستحيلة على التجنب بحكم طبيعتها ، فما لم يكن الكائن تحت شروط غير عادية من التقييد فانه يستطيع أن يفض صراع الاجتناب الاجتناب أى الاقتراب الاقتراب ولكنه فى حالة صراعات الاقتراب · الاجتناب لاتكون هناك امكانية للافلات ·

وعندما يكون الكائن العضـــوى فى حالة صراع فانه يكون فى حالة استثارة قوية وكدره (١) فالصراع هو شكل من أشكال الاحباط ، وميللر يقوم بتحليل صراع الاقتراب _ الاجتناب بالمبادىء أو الافتراضات الأربعة التالية :

١ _ أن النزعة الى الاقتراب من الهدف تكون أكثر قوة كلما كان الفرد أكثر قربا من هذا الهدف ويسمى ذلك ممال الاقتراب ·

---

(١) صميم الصراع فى السلوكية هو هذا التوتر الذى يدفع الكائن الى سلسلة من المحاولات والأخطاء حتى يقع على سلوك خافض للتوتر ، وبالتالى يلغى هذا السلوك التعزيز ويثبت فى صورة تعلم · وقد يكون هذا ميكانيزما دفاعيا أو عرضا مرضيا ·

٢) أن النزعة لتجنب مثير مرهوب تكون أكثر قوة كلما كان الفرد أكثر قربا من هذا الهدف · ويسمى ذلك ممال التجنب ·

٣ - أن قوة التجنب تزداد على نحو أكثر سرعة (على القرب) بأكثر مما تفعل قوة الاقتراب · وبعبارة أخرى فان ممال التجنب أشد انحدارا من ممال الاقتراب ·

٤ - أن قوة النزعة الى الاقتراب أو التجنب تختلف باختلاف قوة الحافز الذى تستند اليه النزعتان · وبعبارة أخرى فان الزيادة فى الحافز تزيد من ارتفاع الممال كله ·

ومثال ذلك صراع رجل شاب يرغب بشكل يائس فى لقاء فتيات · ولكنه فى نفس الوقت يرهب بشكل يائس الاتصال مع الفتيات · فعندما يكون بعيدا عن موعد اللقاء ، ربما فى يوم السبت ، فمن الممكن أن يشرع فى سلوك اقترابفيطلبمن فتاة موعدا فى نهاية الأسبوعولكن كلما اقترب الهدفالمرهوب فان استجابات الخوف لديه سوف تزداد قوة حتى تبلغ النقطة التى تكون فيها مساوية لاستجابات الاقتراب لديه ثم تلك التى تصبح عندها أقوى من استجابات الاقتراب لديه وربما فى يوم الأربعاء كون نزعاتالتجنب لديه أقوى من نزعات الاقتراب ومن ثم فسوف يلغى الموعد ·

خامسا : الصراع بين السلوكية والتحليل النفسى :

فى السلوكية : الحرمان حالة لا يتحقق فيها اشباع الدوافع بينما الاحباط حالة لا يتحقق فيها أيضا اشباع الدوافع ولكن على نحو ينال من قيمة الذات (العانس تعانى من الاحباط أكثر مما تعانى من الحرمان) - وعلى الرغم من صعوبة التمييز بين ما هو داخلى وما هو خارجى فان الاحباط الذى يرجع الى عقبات داخلية نفسية يسمى « بالصراع » · والحالات الهينة من الصد نادرا ما تؤدى الى صعوبات تكيفية خطيرة اللهم الا أن تكون لدى الشخص حساسية انتقائية ازاء نوعية الموقف · (فالشخص الذى شعر فى طفولته الباكرة بأن الأم لاتقبله يمكن أن يجد نفسه حين يكبر فى موقف صدمى اذ « صدته » امرأة يحبها وهذا ينتمى فى الواقع الى الصراع ·) أما فى الحالات العادية فان الفرد يستجيب للصد بالمثابرة أو العزوف فيبلغ الى الهدف أو ينصرف عنه · وأحيانا ما يستجيب للصد بالعدوان خاصة حين تفشل مثابرته فى البلوغ الى الهدف ·

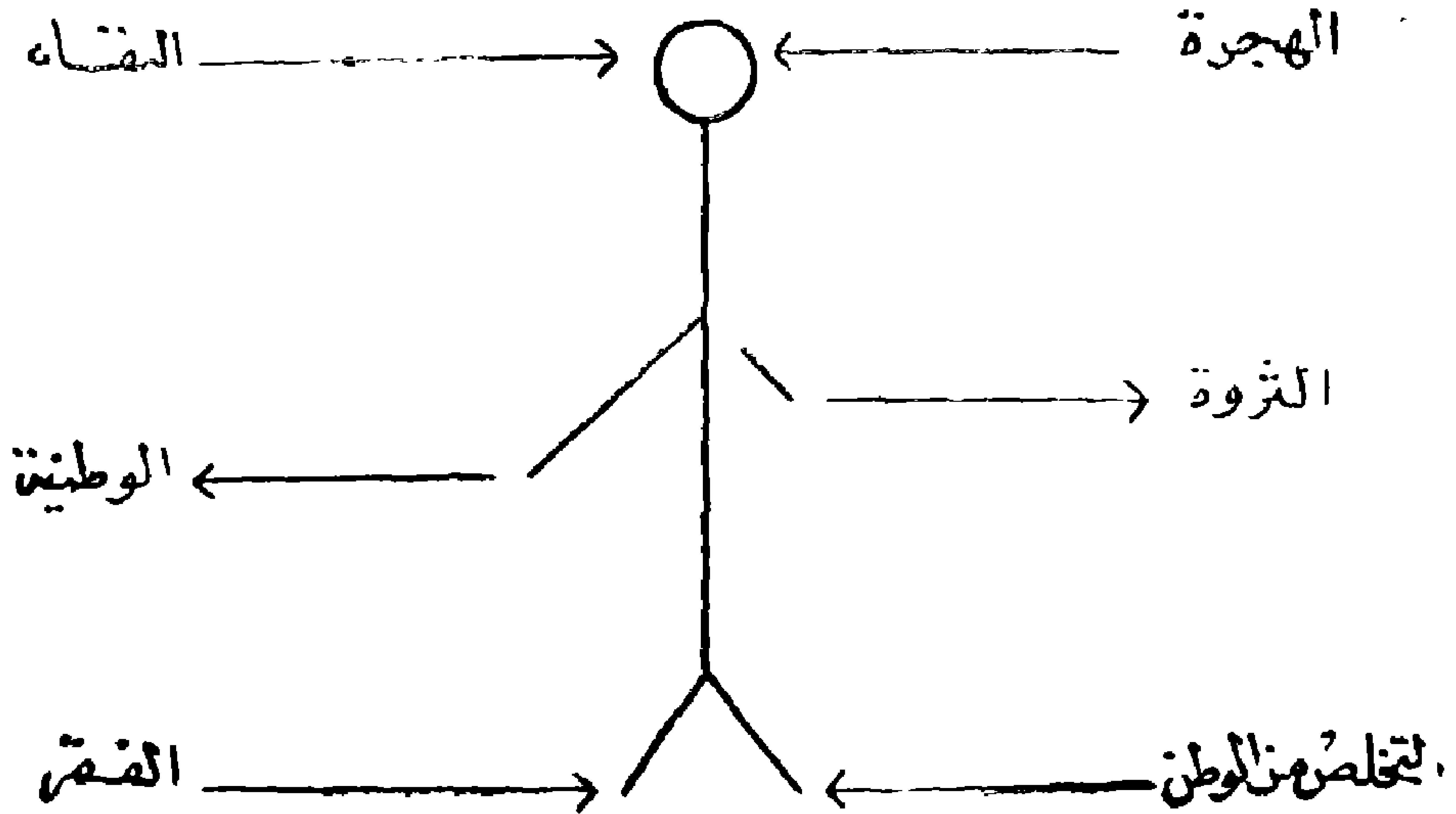
الصراع هو كما قلنا احباط داخلى بمعنى أنه ينتج عن دافع يعترضه دافع آخر هو مضاد الرغبة · ومن هنا فالصراع هو دافعان يقف كل منهما فى وجه الآخر ·

مثال الراغب فى الهجرة :

فى المستوى الأول : قوتان جاذبتان والشخص مشدود بينهما (الثروة فى حالة الهجرة والوطنية فى حالة البقاء) ·

فى المستوى الثانى : قوتان طاردتان والشخص مضغوط بينهما (التخلى عن الوطن فى حالة الهجرة والفقر فى حالة البقاء) ·

وفى المستوى الثالث : حين نأخذ الهجرة نجد (سهما يشد الشخص اليها وسهما آخر يدفعه عنها) (الثروة والتخلى عن الوطن) وكذلك حين



نأخذ البقاء نجد (سهما يشد الشخص اليه وسهما يدفعه عنه « الوطنية والفقر ») · وأمام هذا الصراع الشعورى يتحتم على الفرد أما أن يختار بينهما أو يصالح بينهما فى حل ائتلافى ·

فى التحليل النفسى :

أما حين تكون الصراعات لاشعورية فلا يستطيع الفرد أن يوجهها الا بالتجاء الى حلول بديلة لاشعورية (ميكانيزمات دفاعية) وهذه الصراعات هى لاشعورية اما لأنها تنتمى الى الطفولة السابقة على تعلم اللغة أو لأنها أصبحت من قبيل الدفاع لاشعورية بفعل الكبت · كانت هذه الدوافع الغريزية

فى الطفولة شعورية وأصبحت فى وقت ما خطرة ويرز القلق اشارة انذار بهذا الخطر فتحركت دفاعات الأنا وقامت بكبت هذه الدوافع الغريزية · بذلك يتحقق الاستعداد العصابى اذ يتحقق التثبيت وعندما يكبر الفرد ويلتقى فى الحياة بموقف يرتبط بالموقف الأصلى الذى تمخض عن الكبت أو ينطوى على تلميح اليه يبرز القلق أشارة انذار هو شحنة تجريبية من الخطر القديم · ومن ثم تنشط دفاعات الانا فتقوم بالكبت الثانوى أو التكوينات المضادة أو الاستثمارات المضادة التى تأتلف مع الشحنة التجريبية للحفزة فى صـورة الاعراض المرضية ·

وخلاصة هذا كله أن الصراعات الطفلية اللاشـعورية هى التى تقيم الاستعداد العصابى ومن ثم فانها تؤثر بشكل مباشر وبشكل غير مباشر فى امكانية الكائن على التكيف ·

تضيف الاختلالات فى التحليل النفسى : الأعصبة (عدم تناسب بين الاثارة والافراغ) ·

١ ـ بسبب اثارة خارجية = أعصبة صدمية ·

٢ ـ بسبب تعطيل بدنى كالجماع المقطوع = أعصبة فعلية ·

(أ) عصاب قلق (قلق هائم) ·

(ب) نيوراستينيا ·

٣ ـ بسبب تعطيل الدفاعات للافراغ = أعصبة نفسية ·

(أ) **أمراض نفسية** : أعصبة طرح ·

١ ـ فوبيات (مخاوف مرضية) (هستريا قلق) ·

٢ ـ هستريا تبدين (تحولية) ويتبعها التجوال النائم وازدواج الشخصية ·

٣ ـ عصاب قهرى (حواز أى وساوس) ·

(ب) **أمراض عقلية** : أذهنة أى أعصبة نرجسية ·

١ ـ ذهان الهوس الاكتئابى ·

٢ ـ البارانويا ·

٣ ـ الفصام (شيزوفرينيا) ·

هذا الى جانب الأفعـــال الاندفاعية من ادمانات كحولية أو اجرامية ··· الخ من انحرافات جنسية ·

سادسا : خلاصة في كلمات :

حاجة غريزية :

١ ـ اشباع (افراغ كامل ومباشر) : سوية ٠

٢ ـ عدم اشباع بسبب خارجي (احباط خارجي المصدر) : صد ٠

(أ) عزوف ٠

(ب) مثابرة حتى النجاح أو فشل فعدوانية : سوية ٠

٣ ـ عدم اشباع بسبب داخلى (احباط داخلى المصدر) : صراع ٠

صراع شعورى (بين اقدامين ـ احجامين ـ اقدام واحجام) ٠

ولكن الصراع العصابى هو صراع لاشعورى هو دائما حفزة غريزية خطرة تولد القلق الذى يستنهض الدفاعات أى هو دائما صراع بتيانى بين منظمتين (الهى والأنا) ٠

١ ـ فض الصراع ٠

اشباع كامل ومباشر ٠

٢ ـ كبت بالمعنى العام ثم اعلاء بضرب الحفرة قبل الانسالية بشكل مائل بعد انتظام غالبية الطاقة تحت الهيمنة الانسالية (١) ٠

٣ ـ كبت بالمعنى الدقيق فيصبح الصراع لاشعورى (عصاب طفلى) أى البذرة والاساس للأعصبية ٠

عصاب طفلى :

(أ) يواجه الفرد فى الرشد موقفا من الاحباط يشابه الموقف الطفلى أصل الكبت أو يرتبط به ٠

(فتاة ترفضه بعد حب كما فعلت الأم فى طفولته) ٠

(ب) أمام الاحباط ينكص جزء من طاقة الأنا الى نقطـــة التثبيت أى العصاب الطفلى ٠ بذلك تنضاف طاقة الى المكبوتات فتصــبح

---

(١) الحفزات قبل الانسالية هى وحدها التى تسمح بالاعلاء وعددها ست : الفمية الاستية والسادية والمازوشية والاستعراضية والنظارية ٠

قوية وتبدأ عودة المكبوتات فى صورة قلق أى اشارة تنذر بالخطر القديم تحريكا لمبدأ اللذة والألم ومن ثم الدفاعت ·

(جـ) جزء الأنا الذى لم ينكص يتحرك فى صـــــورة دفاعات ويضرب المكبوتات العائدة ومحصلة ذلك هى الأعراض المرضـــية (كبت ثانوى أو تعديل الأنا فى صورة تكوينات مضادة تتحد مع الشحنة العائدة فتكون الأعراض المرضية (افراغ جزئى غير مباشر) ·

ملاحظـــــة :

القلق هنا هو عودة المكبوتات فى صورة جزئية فهو قلق لاحق على الكبت ·

أما فى البداية عند نشأة الصراع فالقلق كما هو واضح ســـابق على الدفاع بل هو سبب الدفاع أو قل سبب الكبت · وكذلك فى النقطة الأخيرة فان القلق اشارة الانذار والذى هو شحنة تجريبية لتحريك الدفاع يمكن أن يؤدى فيما بعد الى الكبت الثانوى فيكون القلق بذلك سابقا على الكبت ·

الصراع العصابي في التحليل النفسي

الصراع يكون دائما بين الهي والأنا

الصراع بين الغرائز المتضادة :

يمكن أن يوجد مطلبان غريزيان متضادان فى الهدف جنبا الى جنب فى الهى فلا يشعر الشخص بصراع ولكن حين يشعر بتناقضهما وصراعهما فذلك لأن أحد المطلبين يعمل فى خدمة دفاعات الأنا وبالتالى فالصراع بنيانى أى بين جهازين مختلفين ، بين الهى والأنا (مثلا الجنسية المثلية تضطلع بكبت الغيرية ، وتضطلع السادية بكبت المازوشية) ٠

فى هذه الحالة يكون الصراع فى الظاهر هو صراع بين غريزتين ولكنه يترجم فى الواقع عن صراع بين حفزة غريزية كريهة وبين مشاعر (قلق أو اثم) مضادة لتلك الحفزة وعليه فهو صراع بين الهى والأنا ٠ وهذه المشاعر المضادة تسخر فى خدمتها حفزة أخرى تضاد فى هدفها الحفزة الكريهة وذلك بأن تزيد من شدة الحفزة المضادة ٠

والتكوينات المضادة هى فى العادة وعلى وجه الخصوص تسند الى الغرائز ذات الأهداف المضادة ، والغرائز ذات الأهداف المتضادة لا تدخل فى صراع الا اذا اضطلعت الأنا بدفاعاتها بتدعيم أحدهما وبالتالى صراع بنيانى بين الهى والأنا فالصراع العصابى هو صراع بين حفزات الهى ودفاعات الأنا ٠

العالم الخارجي فى الصراعات :

ان المثيرات الخارجية تلعب دورا هاما كباعث للدفاع ولكن العالم الخارجى لايمكنه أن يضطلع بالدفاع والكبت فذلك يتم بفضل الأنا ٠ فالعالم الخارجى يرغم الأنا على خلق قوى كابتة ٠ وباختصار لا دفاع بغير الأنا وبالتالى لاعصاب بغير الأنا فالصراع بين الهى والعالم الخارجى لابد أن يتحول الى صراع بين الهى والأنا ان كان له أن يكون صراعا عصابيا ٠

والعالم الخارجى يتعرض للاستبعاد :
(أ) كمصدر غواية لميول لاشعورية ٠
(ب) كمصدر عقوبة لميول لاشعورية ٠

وبالتالى فالصراع بين الأنا والعالم الخارجى يترجم فى الواقع عن الصراع بين الأنا والهى أى الحفزات الغريزية ٠

وعليه فالأنا هى التى تستطيع استبعاد الحفزات الغريزية أو استبعاد العالم الخارجى ٠

فى العصاب تتجه الأنا أساسا الى استبعاد الحفزات وبصفة ثانوية بعض ادراكات العالم الخارجى ، أما فى الذهان فتتجه الأنا أســـــاسا الى استبعاد العالم الخارجى ٠ فالعصابى يخضع للواقع على حساب الغريزة أما الذهانى فالعكس ولكن هذا لايصدق بصفة عامة ٠

الأنا العليا فى الصراعات :

انتهينا الى أن الصراع دائما صراع بين الأنا والهى ، وبديهى أن الأنا العليا اما أن تكون فى صف الأنا واما ضدها ٠

الأنا العليا فى صف الأنا : ان الأنا فى غربلتهـــا للحوافز اذ تسمح بالافراغ أو تقرر الكبت انما تتبع أوامر الأنا العليا ٠

الأنا العليا ضد الأنا : فى كثير من الحالات وخاصة القهرية والاكتئابية تدافع الأنا ضد مشاعر الاثم مستخدمة نفس الميكانيزمات التى تستخدمها ضد الغرائز ٠

باختصار تستخدم الأنا استثمارا مضادا مزدوجا يتجه بعضه ضـــد الغرائز وبعضه ضد مضادات الغرائز فى الأنا العليا ، وفى هذه الحــالة يمكن لمشاعر الاثم المكبوتة أن تخترق الدفاع بصورة مموهة ٠

وباختصار الصراع دائما بين الأنا والهى :
(أ) صراع الغرائز هو صراع بين الأنا والهى ٠

(ب) صراع الهى والعالم هو صراع بين الهى والأنا ٠
(ج) صراع الأنا والعالم هو صراع بين الأنا والهى ٠
(د) الأنا العليا لا تغير الأمر فهى اما فى صف الآنا أو فى صف عدائى لها كالهى ٠

فى تعريف القلق (١) وأنواعه :

القلق اما انغمار ينتج من اثارة هى نسبيا غامرة ، واما اشارة انذار بتحقق وشيك لخطر سابق هو هذا الانغمار ، فالقلق وان كان استعادة لخبرة قديمة خطرة (الميلاد) الا انه يظل فى خدمة المحافظة على الذات يعلن عن اخطاء جديدة ٠ **فقلق الانذار يهيىء لاستجابة المواجهة ، بينما قلق الانغمار يستنفد طاقة الاستجابة** : الأول شحنة تجريبية للانذار والتعبئة كالمصل ، والثانى تفجر للقلق فى صورة ذعر ٠

ولكن القلق كرد فعل من الأنا ينذر اما بخطر خارجى (قلق سوى) واما بخطر داخلى من جانب الأنا العليا (قلق خلقى فى صورة اثم أو اشمئزاز أو خزى) ٠

واما بخطر داخلى (طفح المكبوتات) من جانب الهى (قلق عصابى) ، وتلك هى أنواع القلق ٠ ورد الفعل هذا من جانب الأنا فى حالة اشارة الانذار بالخطر (صورة مستأنسة هينة من القلق الذعر) تستنهض الدفاعات لمواجهة هذا الخطر ٠ فاذا فشلت الأنا فى المواجهة تفجر القلق (أى انغمار) أو تفجر القلق الخلقى (انغمار لانمحاق أو الاشمئزاز أو بالخزى) وعليه فالقلق اما صدمة أو اشارة الى أن صدمة من هذا النوع توشك أن تقع مرة أخرى وفى هذه الحالة الأخيرة اما تنجح الاشارة فى استنهاض دفاعات تتفادى الصدمة واما أن تنغمر الأنا بالصدمة وتلك هى الطبقية الثلاثية للقلق ٠

---

(١) فيما يتصل بالقلق عند مدرسة السلوكية التقليدية وعند معدلى السلوك٠٠الخ انظر (فنيات العلاج النفسى) من كتاب المدخل الى الصحة النفسية _ الطبعة الثالثة _ مخيمر _ الانجلو ٠

فى وظيفة القلق

١ ـ اشارة انذار ، صورة هينة مستأنسة لقلق الذعر تنذر بالخطر كيما تستعد الأنا للمواجهة فالقلق هو الباعث الأساسى للدفاع ٠

٢ ـ القلق هو المادة الخام التى تصنع منها الأعراض المرضية كوسائل دفاعية واشباعات جزئية فى نفس الوقت (امن واشباع معا) ٠

٣ ـ القلق وان كان تعبيرا عن الصراع من حيث ما ينطوى عليه من خطر فهو فى نفس الوقت وسيلة جزئية وأوائلية للافراغ (رجيم نجده أوائلى) وذلك خاصة فى حالة الانغمار ٠

الوظيفة الأساسية للقلق هى اذن الانذار بالخطر :

(أ) تشعر الأنا أمام مطلب غريزى ان اشباعه ينطوى على خطر تذكره ومن هنا يتحتم بأى شكل كبح الشحنة الغريزية فاذا كانت الأنا قوية وسبق ان أدمجت النزعة الغريزية فى تنظيمها تنجح فى هذا الكبح أما اذا لم تكن الأنا كذلك أى ان النزعة تنتمى الى الهى (فى حالة كبت) فان الأنا تلجأ الى استخدام شحنة تجريبية ـ معنى ذلك ان الأنا تستبق باشباع للنزعة فى كمية ضئيلة وكانها مصل فتستعيد الأنا الشعور بالألم المرتبط بالخطر عندئذ ينشط مبدأ اللذة الألم وتقوم الأنا بالدفاع ضد النزعة الجديدة الخطرة ٠

(ب) فالأنا اذن تستخدم شحنة تجريبية تطلق اشارة خطر لتحريك مبدأ اللذة الالم فتستجيب الأنا اما : **أولا** : كبت ثانوى ٠

واما **ثانيا** : بالاستعانة بشحنة مضادة تتحد مع طاقة النزعة المكبوتة فتنشأ الأعراض المرضية ٠

واما **ثالثا** : بالتعديل من نفسها فى صورة تكوينات مضادة ٠
واما **رابعا** : فى صورة اعلاءات تزيح الشحنة التجريبية الى هدف اجتماعى مقبول لتتيح بذلك افراغا بديلا مكتملا ولكن غير مباشر ٠
واما **خامسا** : واخيرا تفشل فى كل هذه فيكون الانغمار ٠

الطبقة الثلاثية للقلق

١ ـ يخرج الطفل الى العالم بامكانيات بيولوجية قليلة ومن ثم فهو عاجز عن اشباع حاجاته وهذا العجز يجعله ينغمر بالمثير (صدمة) ، (قلق ذعر) ٠ وهذا الانغمار يطلق افراغات نجدة آلية أوائلية ٠

الطبقة الأولى صـــــدمة انغمار ، قلق ذعر اى قلق آلى غير نوعى (الأصل المشترك لمختلف الوجدانات اللاحقة) ٠

٢ ـ وكما يحدث فى المصل الذى يعطى كمية هينة من الميكروبات تستنهض الدفاعات ومن ثم تحقق المناعة ، فكذلك تتعلم الأنا بالتدريج استئناس هذا القلق الذعر فلا تسمح للقلق أن يغمر الشعور بل صورة هينة من القلق تكون بمثابة شحنة تجريبية ، اشـــارة انذار بالخطر تستنهض دفاعات الأنا للمواجهة ٠

فالطبقة الثانية استئناس القلق الآلى فى خدمة الأغراض الدفاعيـــة للأنا ، فتوقع الشخص للخطر يضعه اذن فى حالة هينة شبيهة بالصدمة اى قلق اشارة انذار ٠

٣ ـ قد تفشل الأنا فى استئناس القلق على النحو السابق فالتوقيع الذى كان يستهدف التحذير من حالة صدمية يطلق هو نفسه هذه الحالة وذلك بسبب زيادة التوتر (احتباس بسبب مكبوتات سابقة ، أو ضعف الأنا أو تعطيل بدنى للافراغ) وبذلك تعانى الطبقة الثالثة نكوصا للطبقة الأولى (نوبات القلق فى هستيريا القلق) ٠

فالطبقة الثالثة هى كالأولى : صدمة ـ انغمار ـ ذعر ٠

وفى عام ١٩٣٢ (والمحاضرات الجديدة) بلغ « فرويد » الى الصورة النهائية فاصبحت الأنا هى المقر الوحيد للقلق والمولد الوحيد للقلق ويترتب التمييز بين المنظمات الثلاثة للجهاز النفسى أن يكون القلق الموضوعى السوى والقلق العصابى والقلق الخلقى تناظر العلاقة مع الواقع والهى والأنا العليا٠

تلخيص :

الصراع العصابى كما رأينا حفزة غريزية خطرة تولد القلق فيولد الدفاع معنى ذلك أن الصراع العصابى يكون دائما بين حفزات الهى ودفعات الأنا وذلك حتى عندما يبدو فى صورة أخرى ٠

فالحفزات الغريزية تولد القلق ٠ كيف يحدث ذلك ؟ أنا الطفل ضعيفة ومن ثم تنغمس بالغرائز ٠ ومن هنا تبدو الغرائز خطرة ومن هنا يكون الدفاع ضد الغرائز فالأصل هو قلق الانغمار ، الصدمة ، الذعر (الطبقة الأولى) وتكبر الأنا فتشرع فى استئناس هذا القلق الآلى (تستخدم صورة هينة كمصل أى اشارة انذار بالخطر (الطبقة الثانية) وتتم الدفاعات باحدى هذه الطرق ٠

(أ) تنجح الأنا فى المواجهة فيحدث الاعلاء ٠
(ب) يتم كبت الحفزة كبتا ثانويا ٠
(جـ) تعدل الأنا من نفسها بتكوين مضاد ٠
(د) تفشل الدفاعات ويحدث الانغمار (الطبقة الثالثة وهى كالأولى) ٠

تلك هى الطبقية الثلاثية للقلق ٠ فالأنا عند الراشد وظيفتها اذن تجنب قلق الذعر أى يصدر عنها دائما قلق اشارة انذار ينجح أو تنغمر الانا والقلق الأولى أى الانغمار نموذجه الأصلى صدمة الميلاد ومنه تتفرع كل الوجدانات وبالنسبة لاشارة الانذار هناك أنواع من القلق سوى ـ وعصابى ـ وخلقى ٠

الآن يمكن تعريف القلق فهو اما انغمار أو اشارة لتجنب هذا الانغمار ، اما صدمة واما اشارة انذار لتجنب حدوث الصدمة اما رد فعل من الأنا يستنفد الطاقة أو رد فعل يعبىء الطاقة للمواجهة ٠

ووظيفة القلق أساسا هى الانذار بالخطر ، لاستنهاض الدفاع ، ومادة خام تصنع منها الأعراض ولكن أيضا افراغات نجدة أوائلية ٠

ولكن هل يتخذ القلق شكلا واحدا فى كل المراحل ؟ كلا بل يتباين فهو

خطر من الانغمار ثم من فقدان حب الوالدين ثم من الخصاء (عند الولد) أو فقدان الحب (عند البنت) ثم فقدان تقدير الأنا العليا · (التنبه الى أنه فى البداية تكون النرجسية والجنسية ممتزجتين معا بحيث يرفع الطعام من قيمة الذات ثم تنتقل الجنسية لترتبط بالموضوعات · اما النرجسية فيسقطها الطفل على الأبوين ثم يستدخلها فتصبح الأنا العليا هى المصدر المنظم لقيم الذات اى ترتبط النرجسية بالأنا العليا) ·

ولكن الأخطاء الداخلية تتكشف فى النهاية خارجية وصميم القلق هو خطر انغمار تنظيم الأنا أى اجتياحه ·

ميكانيزمات الدفاع وتكون الأعراض

فى ميكانيزمات الدفاع كمبادىء لتفسير السلوك :

كانت النظرة الى الشخصية ترجعها اما الى الفطرة والوراثة (الجبله) وما يتصل بذلك من سمات وأنماط وعوامل وملكات وخصائص بدنية أو غددية ··· الخ · واما الى التعلم والاكتساب والخبرة وما يتصل بذلك من عادات ومهارات واتجاهات وقيم وتطبيع اجتماعى ··· الخ ·

كانت الشخصية تعد اما صرحا قائما بنفسه فى استقلال عن البيئة واما مجرد مرآة تعكس تأثيرات البيئة · وأخيرا انتقل الأمر الى نظريات التفاعل وخاصة فى صورة الدوافع بذلك انتقل التفسير من العلية الخطية (مركزية كانت أو محيطية) الى العلية الشبكية ·

فعند « ماكدوجال » يعيش الشخص الغرائز من خلال تجاربه فى صورة عواطف تجاه موضوعات خارجية أو أفكار · فهو لايعيش العدوانية وانما كراهية لهذا الشخص أو لهذا الشىء مما يفترض التفاعل بين الشخص والبيئة · ولقد قام بمحاولته لعمل قائمة بالدوافع الأساسية التى يمكن أن ترجع اليها كثرة المسالك ·

وثمة فكرة هامة عند « ماسلو » تستوحى نظرية الجشطلت وتعنى استحالة وصف الدافع فى عزلة عن الدوافع الأخرى بل ضمن الانتقاء الكلى

لدوافع الفرد فهناك ترتيب درجي للدوافع بحيث لا يظهر واحد الا بعد ارضاء الدوافع السابقة عليه من حيث الأهمية مما كان ينبغي أن يعني وجود انتثار فريد وانتظام بعينه للدوافع عند كل شخص فالدوافع وان كانت عامة عند جميع الناس فانها تتخذ أشكالا خاصة ، باختلاف الثقافات ، وفي الثقافة الواحدة باختلاف الأفراد ٠

ولم يحاول « فرويد » وضع قائمة مفصلة عن الدوافع الأساسية وانما قال في البداية بتعارض ما بين دوافع جنسية للابقاء على النوع ودوافع ذاتية للابقاء على الفرد ، ثم ضمها بعد ذلك تحت اسم دوافع الحياة أو الجنسية في مقابل دوافع الموت أو العدوانية (١) ، لم يكن « فرويد » يستهدف وصف الشخصية عن طريق الدوافع وانما عن طريق صراعاتها بمعنى الدوافع المصطرعة والمحصلات أى ميكانيزمات الدفاع والمسالك والأعراض ٠ فلم تكن الدوافع عنده كما كانت عند « ماكدوجال » تعمل متفاهمة جنبا الى جنب أو الواحدة بعد الأخرى ٠

وصحيح أن الغرائز عند « ماكدوجال » لاتبدو عارية نقية وانما في صورة عواطف وبالتالى مختلطة بالتعلم مما يسميه « موراى » الجدولة أو التتريع ولكن « ماكدوجال » لم يتنبه الى أن الدوافع يمكن أن تتعدل وتستحيل الى نقيضها (الجنسية الغيرية المحارمية الايجابية تصبح مثلا من قبيل الدفاع جنسية مثلية سلبية) ٠

و « فرويد » يعتبر أن المهمة الأساسية لا تنحصر في رد الأفعال الى دوافعها وانما في دراسة ما يطرأ على الدوافع من صور التبدل والتعديل ٠

ومن هنا غدت ميكانيزمات الدفاع بأكثر من الغرائز مبادىء للتفسير السيكولوجي ٠ كان « جانيه » يقرر أن المرض النفسي ينتج من الذكرى المنسية لحادث صدمي بمعنى أن الذكريات الخاصة بالموقف الصدمي تصبح لاشعورية، وكان يعتقد أن الضعف النفسي هو الذى يجعل الذكريات تسقط في اللاشعور٠ اما « فرويد » فجاء بالتصور الدينامي اذ قرر أن الحفزات الغريزية المستهجنة

---

(١) يرى مخيمر كما سبق أن العدوانية هي طاقة الحياة التى تخدم غرائز الحياة والموت معا وفي نفس الوقت ٠

والذكريات الأليمة تريد أن تبقى على مسرح الشعور بينما تريد لها الأنا ، تسندها الدوافع الأخلاقية ، أن تختفى وتنكبت ، وميكانيزمات الدفاع هى هذه القوى الكابتة التى تستخدمها الأنا لتسد على المكبوتات سعيها الدائب للعودة الى مسرح الشعور ·

وهذه الميكانيزمات دفاعية لأنها تتيح تجنب التعبير المباشر عن النزعات الكريهه وذلك بما تتمخض عنه من أسلوب تعبيرى يصالح ما بين الحفـزات الغريزية والمتطلبات الأخلاقية الاجتماعية · واذا كان فهمنا للشخصـية العيانية يتحقق بفهمنا لصراعاتها النوعية فمعنى ذلك أننا نبلغ الى فهم هذه الشخصية حين نتبين الحفزات الغريزية الخطرة التى تثير عندها القلق ، والدفاعات النوعية التى تواجه بها هذا القلق · ان فهمنا لشخص معنـاه معرفتنا بأنواع المواقف التى يغلب أن تثير لديه القلق والأساليب التى تلجأ اليها ليواجه هذه المواقف ·

فحين نجد أساليب قليلة متميزة منذ الطفولة ومتكررة فاننا نحقق بذلك مبدأ الاتصال الذى يسند مفهوم الشخصية ووحدتها ، فميكانيزمات الدفاع من حيث هى أساليب متميزة يتخذها الفرد فى مواجهة بعض أنواع التهديد يمـكن اتخـاذها بمثابة مبادىء تفسيرية تنتظـم حـولها مجالات كثيـرة من الشخصية ·

فليس العلم فى صميمه الا محاولة لرد كثرة الظواهر الى وحدة المبدأ أو عدد قليل من المبادىء التفسيرية فميكانيزمات الدفاع تمثل اقيم ما لدينا الآن لفهم الشخصية ويلحق بها تصور زمله الأعراض المرضية من حيث هى صورة النكوص الى مرحلة سابقة من النمو فهى تكـرار لما كان فى حينه مسايرا لمرحلة النمو ومن ثم طبيعيا ولكنه يعد الآن مرضيا بالنسبة للراشد· واختلالات السلوك لها وظيفتها الخاصة من زاوية المريض · فما يبدو سخيفا غير منطقى فى الظاهر يصبح معقولا عندما ننظر اليه كمحصلة للصراعات الداخلية أو قل كمحاولة دفاعية من جانب الأنا ضد القلق الذى هو اشـارة تنذر بخطر الحفزات الغريزية (حالة الشخص الذى يرفض الأكل من طبق أكل منه غيره فهذا السلوك يصبح مفهوما عندما نتبين أنه تعبير (مع التعميم) عن دفاعه ضد القلق الناشىء من احتمال تحقيق الرغبة المحارمية التى تتخذ تعبيرا لها فى المستوى الفمى كرغبة فى تناول وجبات شهية من نفس المكان الذى

يتناول منه الأب) • **فميكانيزمات الدفاع هى الوسائل التى يتخذها الشخص لا شعوريا لتجنب التعبير المباشر عن نزعاته الخطرة المهددة** (اسقاط الرغبة الجنسية المكبوتة عند العانس على الآخريات) **ففى هذا التجنب مايحقق الدفاع ضد التهديدات الداخلية والخارجية معا أو فيه ما يصالح بين ما هو غريزى وما هو أخلاقى •**

(النزعة الاستعراضية والدافع الأخلاقى يتمخضان عند فتاة عن ظهور « ارتيكاريا » فى بداية الفخذ الأيسر كعرض مما يرغم الحالة على أن تكشف عن بعض أجزائها الداخلية أثناء هرشها فى وجود الآخرين دون أن تكون مسئولة من الناحية الأخلاقية) وهكذا فى قطاعات من السلك تبدو سخيفة لا معنى لها وان كان لها حين نفهمها دلالتها ووظيفتها الخاصة (حالة الزوجة الراغبة فى ترك منزل الزوجية مع تقديرها لمسئوليتها ازاء أطفالها فكانت لا تنقطع عن التثبت من عدم ضياع مفتاح السكن أثناء وجودها خارجه - أيضا حالة الاغماء فى زحام المترو كوسيلة لتحقيق الرغبة الجنسية باستسلام مع تجنب المسئولية الأخلاقية فى الوقت نفسه) •

فى موقع ميكانيزمات الدفاع من التحليل النفسى :

لم تنتج نظرية « فرويد » فى النمو « النفس جنس » عن الملاحظة المباشرة للاطفال وانما عن « اعادة بناء » ذكريات الراشدين بناءا جديدا على طريقة النهج الجاليلى فى الاستقراء المركزى للوقائع واعادة بناء المعطيات فى أنماط كيفية أو علاقات مثالية تعد الحالات العيانية تجسيدات متباينة لها •

لم ينظر « فرويد » الى الطفولة واحداثها على حدة وفى ذاتها وانما من حيث ما لها من دلالة تحكم حياة الراشدين • ومعنى هذا أن الطفولة هى دينامية سبيل التطور وكيان فى صيرورة متصلة « مشروع يمضى الى التحدد » فلابد من أن نفهم الطفولة ليس فحسب بالقياس الى اطارها البيئى وانما أيضا بالقياس الى مجمل وحدتها الكلية التاريخية • وقد يتضح هذا من الذكريات المكبوتة فى الطفولة تحدد الى حد بعيد أحلام الكبار وأعراضهم المرضية وبالتالى تكشف عن أهم الحفزات وأخطرها فى الطفولة • ويتضح

هذا أيضا من الدور الهام الذى تلعبه التثبيتات ، فالعصاب هو نكوص الى مرحلة التثبيت وذلك أمام موقف من الاحباط يشبه فى بنيته الموقف السابق موضوع التثبيت أو ينطوى على تلميح اليه · وهذا الشبه أو التلميح هو الذى يعطى الموقف الحالى قوته المرضية · والتثبيت ينشأ عن حاجة غير مشبعة أو جد مشبعة أو حاجة يحقق اشباعها الأمن ويترتب على التثبيت والنكوص تكرار الموقف الأصلى باشباعاته وعقوباته ·

ومن هنا كان التكرار مفهوما محوريا فى الأمراض النفسية ، فاذا كان الذكاء استجابة جديدة يقتضيها الموقف الجديد وكانت العادة استجابة قديمة يقتضيها الموقف القديم المألوف فانه يمكن القول بان المرض النفسى استجابة قديمة لموقف جديد يرتبط عند الفرد بموقفه الطفلى ·

وهكذا فالكبت يؤدى الى التثبيت ـ والتثبيت يقف بالتطور عند المرحلة التى حدث فيها التثبيت وذلك بالنسبة الى أغلبية الطاقة مما يسهل النكوص، تماما كالجيش اذ يغريه ضعفه بالتراجع فانه يتراجع الى النقطة التى كان قد ترك فيها أثناء تقدمه أكبر عدد من قواته ·

(فموت الرئيس كيندى بشكل مفاجىء (بصورة الأبوية) يمكن أن يبتعث التخيلات الاوديبية مما يعنى أن يتم النكوص الى المرحلة الأوديبية التى عانت التثبيت) ·

وهذا النكوص يضيف طاقة جديدة الى طاقة المكبوتات فتصبح قوية وتشرع فى العودة متجهة الى الشعور الذى انطردت منه الطفولة ، ولكن تعترضها دفاعات الأنا وتكون المحصلة هى الأعراض المرضية ·

تلك هى عودة المكبوتات التى يتمخض عن عصاب أو ذهان حسب الدرجة التى يوغل بها النكوص · فالذهان (الفصام مثلا) يتضمن النكوص الى مرحلة اللاتمايز حيث الأنا لم تكن قد تمايزت بعد عن الهى · أما العصاب فنكوص الى مرحلة من المراحل الطفلية · هذا كله اذا تصدت الأنا بالدفاع للمكبوتات العائدة فاذا لم تفعل كانت الانحرافات الجنسية وهناك ميكانيزمات أخرى ليست دفاعية بحسب ما يعتقد « فرويد » ·

فالميكانيزمات الدفاعية تعبر عن دافع خفى يكمن وراء فعل سخيف فى ظاهره ولكنه ينطوى على محاولة لتخفيف القلق أو الدفاع ضد خطر ما . أما الميكانيزمات غير الدفاعية (١) فهى تعبير عن المنطق الخاص بالهى مما يسميه « فرويد » بالعمليات الأولية أو النمط الأولى (عمل الحلم ـ الرمزية ـ الازاحة ـ التكثيف ـ التمثيل بالضد ٠٠ الخ) ومع ذلك فالحدود ليست فاصلة فهناك ميكانيزمات تكون دفاعية أحيانا ولا دفاعية أحيانا أخرى كما هى الحال فى الاسقاط وكل هذه الميكانيزمات هى التى تتيح لنا أن نفهم الأحلام والأعراض المرضية خاصة (ضمن واقعية عيانية فى سياقها بلغة التصورات الشرطية فى النهج الجاليلى) ٠

فالمحلل لا يفكر فى الميكانيزم ليحدد أسبابه بطريقة تجريبية وانما ينظر اليه ضمن سياقه أى ضمن مواقف معينة فى النمو الباكر عند فرد بعينه ثم يستخدم الميكانيزم فيما بعد فى مواقف تعد تكرارا للاصل من ناحية أو تباينا من تشكيله تبايناته العديدة من ناحية أخرى وهكذا فان الميكانيزمات الدفاعية ليست غير عدد من الملاحظات والتصميمات « التى تقوم على الاستقراء المركزى والتى تفسر عمليات متكررة أثناء التحليل ، والتى اذ تتيح تفسيرا لبعض الأعراض تمكن المحلل من تفسير اعراض أخرى ٠ فالمشتغل بالتحليل لا ينظر اليها على أنها قوى مجردة وانما ضمن سياقاتها من الأحداث والأشخاص ، فلكل ميكانيزم أنموذجه الأصلى الخاص فى تجارب معينة ابان الطفولة وحين يظهر بازاء المعالج فى « الطرح » يعد تكرارا للتجارب الباكرة ٠

وتفسير هذه الأساليب المتكررة يعد جانبا أساسيا من التحليل ٠ ومن هنا فان ميكانيزمات الدفاع فى صورتها الخالصة ليست مادة للتفكير اليومى للمحلل ، وانما هى أنماط لعلاقاتمثالية تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيله من التباينات تتباين انتظاماتها بتباين الأفراد ٠ فالمحلل يشاهد ويدرك دلاله ما يشاهده رغم سخافته فى الظاهر ، وهو يدرك استنادا الى اعادة بناء الوقائع والبلوغ الى نمط العلاقة المثالية وبذلك يتم التعرف على العملية

---

(١) يرفض مخيمر كما سبق أن رأينا هذا التمييز ما بين ميكانيزمات عمل الحلم والميكانيزمات الاخرى ، فكلها بالنسبة اليه دفاعية تستهدف التمويه والاشباع الجزئى فى مراعاة للامن الذى تقتضيه الانا ٠

الدفاعية وتفسيرها وهو بذلك يتعرف على الفنيات الدفاعية الخاصة للمريض في مواجهة المواقف التى تثير فيه القلق وميكانيزمات الدفاع المشهورة هى أساليب استخدمها الناس وليس لها من حيث المبدأ مدى محدد فالفاكهة مثلا تضطلع بهذه الوظيفة وان أغفلتها الدراسة أحيانا ·

كان التحليل فى البداية يهتم بالغرائز المكبوتة والتعرف عليها وتقبل المريض لها · أما اليوم فالاهتمام الأول هو بالمقاومة اى بالميكانيزمات الدفاعية اىبهذه الأساليب التى انكبتت بها الغرائز والتى يستخدمها المريض الآن فى علاقته الطرحية مع المحلل ، ومن هنا يعثر المحلل على أمثلة من هذه الأساليب فى مجرى علاقة المريض به اى خلال ظاهرة الطرح وفى التحليل الفرويدى الأصيل نقتفى أثر عرض ما فى الطفولة حتى نتبين مرحلة النمو التى كانت فيها الغريزة مبعثا للقلق والتهديد والخطر ثم نتبين ما كان من آساليب الدفاع ضد الحفزة الغريزية ويعتبر هذا الدفاع أنموذجا متكررا فى المشكلات الحالية فى حياة المريض ويكتمل التحليل حين يظهر لكل حدث دلالته سيان من ناحية الحوافز الغريزية فى الطفولة أو من ناحية استجابات المريض الدفاعية ضدها · واذ تتعدل اتجاهات المريض ازاء المشكلة وهو يحياها (طرحا) على المعالج، يتحقق بذلك الشفاء (ما من سبيل للقضاء على عفريت الحفزات والاتجاهات واللاشعورية الطفلية المرضية) الا باستحضاره هنا فى النور فيما يتحقق بالطرح عندما يعيش المريض عصابة فى صورة عصاب الطرح أى فى علاقته بالمحلل ، ثم يكون بعد ذلك على المريض أن يقوم بالمواجهة فى النور فيرفض حفزاته واتجاهاته الطفلية المرضية ويقوم بتعديلها ومن ثم يتقوض ما كان أساسا لمرضه فيكون الشفاء ·

معنى ذلك أنه اذ جمدت الشخصية ابان الطفولة فى اتجاهات بعينها تكررها فى المواقف اللاحقة بحيث يكون حاضرها تكرارا لماضيها أو قل انها تعجز باتجاهاتها الجامدة عن أن تجد الحل الخاص بها الذى يتلائم مع مقتضيات الحاضر ·

فى ميكانيزمات الدفاع الناجحة (الاعلاء) :

فالميكانيزمات اما ناجحة تنهى الحفزة باتاحة افراغها « اعلاء » (تحول من السلبية الى الايجابية وتبديل الهدف أو الموضوع ـ تحقق الألفة مع مصدر

...

الخطر ٠٠ الخ) ، واما فاشلة أى مولدة للمرض تستلزم مواصلة الدفاع أى استمرار انفاق الطاقة لتعويق الحفزة التى تنجح مع ذلك أحيانا فى الطفح خارج الكبت وينبغى التنبه الى أن الحدود الفاصلة بين الأنواع المختلفة للدفاعات الفاشلة ليست قاطعة فالانكار والتكوين المضاد والمحو والعزل بل الاسقاط والاستدخال يمكن اعتبارها اشكالا للكبت ٠

وهنا يتحتم التمييز بين الكبت بالمعنى الدقيق الذى يستند الى استثمار مضاد بالمعنى العام من حيث هو استبعاد للحفزة الأصلية من الشعور بمعنى استبعاد هدفها الأصلى ٠

بهذا المعنى الأخير يعتبر الاعلاء كبتا ناجحا أى استبعادا ناجحا ٠ أما فى حالة الكبت بالمعنى الدقيق فالحفزة الأصلية ليس لها امكانية الافراغ الكامل بل تزيح بعض طاقاتها ان أمكن على حفزة أخرى فتجعلها بذلك فرعا لها أى مشتقا ٠ هذا المشتق الذى يتميز بفضل الطاقة المزاحة بالمغالاة « افكار حصارية » قد يتعرض للكبت الثانوى « فيخلف فجوة فى الذاكرة » أما اذا قامت دفاعات الأنا لا بالكبت الثانوى بل بضرب المشتق بدفاعات اخرى نتجت الأعراض المرضية ومن هنا فان الكبت بالمعنى الدقيق يترجم عن نفسه فى صورة أفكار ومشاعر حصارية أو فى صورة فجوات واذا حدثت تكوينات ضدية لا يكون هناك داع للمكبوتات الثانوية وعليه فان الاعلاء :

ليس بميكانيزم نوعى بل أى اجراء دفاعى يتيح افراغا كاملا للحفزة الأصلية المكبوتة بالمعنى العام للكبت ٠ وعادة ما يتحقق ذلك باختفاء الهدف الأصلى للحفزة أو الموضوع الأصلى واحلال هدف جديد أو موضوع جديد ٠ بهذا المعنى تتلاشى الحفزة الأصلية بالاعلاء اذ تنسحب طاقتها لصالح حفزة بديلة ، أو تتجه الى هدف آخر أو موضوع آخر ٠ أما فى الدفاعات الأخرى « فلبيدو » الحفزة الأصلية محبوس باستثمار مضاد قوى ٠

والحفزات التى يتم اعلاؤها هى قبل الانسالية (١) والشرط اللازم لامكانية اعلائها أن تكون قد كبتت لا بالمعنى الدقيق للكبت بل بالمعنى العام ٠ ثم يتحقق انتظامها فى أغلبها تحت الهيمنة الانسالية ثم يتم اعلاء الباقى ٠

---

(١) المقصود الفمية والاستية والسادية والمازوشية والنظارية والاستعراضية ٠

معنى ذلك أن طاقة الحفزة الأصلية ينتظم أغلبها تحت الهيمنة الانسالية أى يخضع لتعديل الأنا وبذلك تصبح الحفزات التى كانت مكبوتة بالمعنى العام والتى هى دائما قبل انسالية تصبح ميكانيزمات اللذة التمهيدية للجماع • أما الجانب المتبقى من هذه الطاقة فتضربه الأنا ضربا ماثلا فيتحقق الاعلاء ـ ولكن فينخل لايقصر الاعـــلاء على ذلك بل يسحبه على كل دفاع ينجح فى تحقيق الافراغ الكامل للطاقة • واذا كان الاعلاء يتميز بتلاشى الهدف الأصلى للحفزة أى تجردها من الهدف الغريزى وذلك بفضل تعديل فى الأنا وامتصاص طاقة الحفزة الأصلية لحساب الاتجاه الجديد فذلك كله يتحقق أحيانا لبعض التوحدات كما هو الحال فى تكوين الأنا العليا بل ان الاعلاءات فى الطفولة تحدث عادة بفضل النماذج أو البواعث الاجتماعية المتاحة للتوحد • فثمة ارتباط وثيق بين الاعلاء والتوحد مما يظهر أيضا فىالعاب الأطفال، وبالنسبة الى هدف الحفزة الأصلية يمكن أن يكون اتجاه الاعلاء فى نفس الاتجاه أو مع تعديل طفيف (كما فى الجراحة والغناء بالنسبة للسادية والفمية) ويمكن أن يكون فى الاتجاه المضاد للحفزة الأصلية (فالاشمئزاز بالنسبة للتلذذ من رائحة البراز ـ والرحمة بالنسبة للعدوانية) •

فى ميكانيزمات الدفاع الفاشلة : المولدة للمرض :

١ ـ الصراعات بين الغريزة والقلق أو الاثم لا تولد بالضرورة مرضا فهناك الاقتصاديات النفسية ونوعية الدفاع المستخدم ، هذا الى أن المطالب العريزية العادية حين يكون لها مكانها داخل انتظام الأنا وتحظى باشـــباع دورى تظل الصراعات قليلة الفاعلية • فذلك ضمان الصحة وشرط الاعلاء •

٢ ـ وبديهى أن الحفزات التى ضربتها دفاعات الاستثمار المضاد تظل مستبعدة من أن تنتظم ضمن الأنا ، تظل طاقتها حبيسة اللهم الا أن تنزاح على حفزة أخرى فتجعلها مشتقا للافراغ غير المباشر « بعض الأعراض المرضــية مشتقات من هذا القبيل » •

٣ ـ الصراعات المولدة للمرض أصلها جميعا فى الطفولة حيث قامت الأنا بطرد الحفزات قبل الانسالية ومن هنا فكل مرض يستند الى عصـــاب طفلى هو النواة • وفى العلاج عند القضــــاء على الدفاعات العازلة لهذه الحفزات تعود وتنتظم ضمن الأنا فى أغلبها بينما الباقى يتناوله الاعلاء •

٤ ـ أنموذج الدفاع يتضح فى العصاب الصدمى فى الاغماء من حيث هو اغلاق لوظائف الأنا فالدفاعات هى اغماءات جزئية أى تنصب على وظائف معينـــة ٠

الانـــكار

ان رفض الاعتراف بالجوانب الكدرة من الواقع سمى ما قبل مراحل الدفاع ، وتلك ظاهرة مألوفة عند الأطفال كتعبير عن مبدأ اللذة ، وكمقابل للاشباع الهلوسى للرغبة ٠

ولكن النمو التدريجى لاختبـــار الواقع والادراك والذاكرة يجعل من المستحيل التزييف الكامل للواقع ٠ وبالنظر الى أن الجنسية تنضج فى وقت متأخر فانها تفلت من مبدأ الواقع أثناء الطفولة ٠ وتظل أحلام اليقظة عنـد الكبار بمنأى عن مبدأ الواقع فهى للراشد السوى المجال الوحيد للانكار ٠

(أ) فى الطفولة المتأخرة يتم الانكار فى اللعب والخيال ، بينما الجانب المنطقى من الآنا يتبين الطابع اللعبىلذلك ، وعند الراشد السوىيقتصر الانكار على أحلام اليقظة ٠

(ب) عند العصابى تنشطر الأنا الى جزء سطحى يتبين الحقيقة وجزء أعمق ينكرها « انكار المهبل » ٠

نلتقى كثيرا فى حالات العجز الجنسى عند الرجال بانكار المهبل حيث يدرك الواحد منهم بالطبع الفارق الجنسى ولكن تظهر المرأة دائما فى أحلامه على أنها كائن بقضيب مما يعنى أن المهبل لا وجود له بالنسبة الى الأعماق ويرجع هذا الى الدفاع ضد مخاوف الخصاء فى المرحلة الأوديبية عن طريق انكار المهبل والاعتقاد اللاشعورى بأن كل الكائنات لها قضيب ، وبالتالى ليس له أن يخشى من فقدان قضيبه طالما لا توجد على الأرض كائنات بغير قضيب٠

(ج) فى حالة المرض العقلى التى هى نكوص للطفولة الأولى وخاصة فى الفصام يبرز الانكار بأوضح ما يمكن ٠

ظهر فى الصحف المصرية منذ سنوات حيث كان أخوان يعيشان بمفردهما ومات الأخ الأكبر وأدت الصدمة بالأخ الأصغر الى الفصام فاعتقد أن أخاه لم يمت بل ينام وبالتالى تركه فى فراشه حتى تنبه الجيـــران الى الرائحة وابلغوا الشرطة ـ وفى كل حالات الفصام (الشيزوفرينيا) ينكر المريض الواقع الكريهة بانكاره للعالم فلو دخل شخص فجأة الى بيته فوجد زوجته الحبيبة بين أحضان صديقه فمن المكن للصدمة عندما تكون شخصيته تنطوى عــلى استعداد عصابى أن تتمخض فى الحال عن الفصام · بذلك ينتهى العـــالم الواقعى بالنسبة اليه ولا تصبح زوجته هى زوجته ولا صديقه هو صـــديقه ويكون بوسعه ان يداعبهما بالنكات ·

وفى بعض حالات الكذب المرضى تستهدف الانكار باقناع المستمع بصحة شىء غير صحيح أو عدم صحة شىء صحيح ومن ثم فهو شاهد على امكانية خطأ الذاكرة ومن ثم يكون الانكار هذه هى حالات الميتومانيا أى الولع المرضى بالكذب ·

الاســـقاط

ان أول حكم للأنا ينحصر فى البلع أو البصق فالاسقاط صورة للرفض فى مرحلة أنا اللذة الخالصة حيث كل شىء أليم لاينتمى الى الأنا وشرط ذلك أن يكون الخط الفاصل بين الأنا واللا أنا غير قاطع التحديد مما يتوفر فى الطفولة الباكرة وفى حالة الاذهنة · ومن هنا فالانفعالات والحفزات الكريهة يتم بصقها فالاسقاط هو استجابة أوائلية تحدث فىالبداية بصورة آلية ثم تستأنسها الأنا فيما بعد وتستخدمها لأغراضها الدفاعية شريطة أن يتـــوفر نكوض نرجسى ينال من وظيفة اختبار الواقع ومن الحدود الفاصلة بين الأنا واللا أنا ويضح الاسقاط فى الفلسفات الكونية للاوائلية الأرواحية وفى النزعة الأرواحية فى الطفولة الباكرة حيث الاعتقاد بأن الأشياء لها هى الأخرى أرواح كما يظهر عند العصابيين فى الفوبيات والتأويلات الزائفة للواقع حسب حاجاتهم ويبرز عند الذهانيين وخاصة عند مرضى البارانويا ، حيث يصبح الشخص الذى كان موضع عشق مثلى من المريض ثم أصبح موضع كراهية

من المريض هو العدو الذى يكره المريض ويضطهده (اليهودى فى داخلنا ولكن من الأيسر محاربته فى آخرين) • فى الفوبيات أى المخـــاوف المرضية كخوف « هانز » من أن يعضه حصان بدلا من أن يشعر بالخوف من ابيه • يظهر الاسقاط بشكل واضح من الأب الى الخيل وعادة ما يظهر الخـــوف من القضيب ، وذلك نتيجة للاسقاط فى صورة مخاوف مرضية من الثعابين أو الفئران او السحالى او الكلاب أو الأبراص او الصراصير ، بينما يظهر الخوف من المهبل فى صورة مخاوف مرضية من القطط أو الفراخ •

وبالنسبة الى البرانويا يكون الاسقاط فى القضية الثالثة التى ذكرها فرويد :

١ ـ رجل يعشق جنسيا رجل آخر ولكن هذا مستهجن وبالتالى •
٢ ـ الرجل يكرهه الرجل الآخر الذى كان موضع عشقه •
ولكن هذا مستهجن أيضا ومن هنا تنكبت العدوانية ويكون اسقاطهـا على الرجل الآخر وبالتالى •

٣ ـ الرجل الآخر يكرهنى ويضطهدنى وبالتالى •

٤ ـ أنه يفعل ذلك لأننى عظيم (جنون العظمة) ولكن من حقى أن أضطهده كما يضطهدنى (جنون الاضطهاد) •

ولكن الاسقاط يوجد أيضا عند الاسوياء مما يظهر من عبارة الأنجيل بأن الانسان يرى القذى فى عين أخيه ولا يرى الوتد الذى فى عينه ، فغالبية الناس لا يسرها أن ترى عيبوها فى أنفسها وبالتالى نراها فى العادة لصيقة بالآخرين •

الاســـتدخال

فى مرحلة أنا اللذة الخالصة كل شىء لاذ يتم بلعه أى قبوله أى استدخاله وفى نفس الوقت فان الاستدخال هو الأنموذج الأولى لاستعادة القدرة المطلقة التى سبق اسقاطها على الراشدين •

والاستدخال كأنموذج أولى للاشباع الغريزى أى كتعبير عن الحب يمكن بعد ذلك أن يصبح فى نفس الوقت ويفضل تنـــاقضه الوجدانى تعبيرا عن الكراهية بتدمير الموضوع المحبوب الذى يتم اســــــتدخاله وعندئذ يصبح الاستدخال أداة للعدوانية ٠

وحيث أن الاستدخال هو الهدف الأوائلى الأول تجاه الموضوع مما ينتج عنه التوحد وهو أكثر العلاقات أوائلية مع الموضوع فان أى نمط لاحق فى العلاقة مع الموضوع أو الهدف يمكن أن ينكص أمام الصعوبات الى الاستدخال والتوحد (الصبى مثلا عندما تعترض حبه لأمه صعوبات يتوحد معهما فيصبح أنثويا) وتوجد ثلاثة أشكال أساسية للتوحد ٠ فهناك التوحد مع المحبـوب كتوحد الابن مع الأم التى لا تريده . وهناك التوحد مع المحسود كتوحد الابنة مع أمها فى فيلم « بئر الحرمان » وهناك أخيرا التوحد مع المعتدى كتوحد اليهود أثناء الحرب الثانية مع النازيين ، وطالبة جامعية كانت تشكو من انها عندما تغضب فانها تضرب الخصم سيان كان من جنسها أو من الجنس الآخر بالروسية والركبة وكانت تخشى بعد تخرجها كمدرسة أن تستمر فى نفس هذا السلوك الخطر والمشين ٠ وقد تبين أنها الابنـــة الأولى بين خمس بنات وأن اباها كان ما يزال يكرهها لأنه يعتقد أنها « وشها فقر » لم يكن يجد ما يأكله واستمر الحال كذلك حتى ولدت البنت الثـــانية فعمل كمخبر بالشرطة وراحت أحواله تزدهر مع الوقت ٠ وقد اتضح كثيرا ما رأته يمارس عمله عند القبض على أحد الأفراد وأن من عادته أن يضربه بالروسية والركبة بحيث يجعله يدوخ وتسهل قيادته الى قسم الشرطة ٠ هذا مثال للتوحد مع المحبوب ٠ وفى حالة أخرى كان الشاب ملاكما ومع ذلك كان يرتعد من مشهد الدم ويرتبك لو سأله أحد فى الطريق عن مكان أو شارع كان الابن الأول سبقته أخت ولم تكن أمه ترغب فيه على الاطلاق ومن هنا كان توحده معها فى خوفها من الدم وفى نزعاتها الانثوية التى راح يلتمس لها التعويض فى تقوية خضلاته ليوهم نفسه والآخرين برجولته المسرفة ٠

وفى فيلم « بئر الحرمان » يظهر التوحد مع المحسود ـ فالابنة الصغيرة بحكم عدوانيتها تجاه أمها استغلت براءة الأطفـال المزعومة لتخبر أباها بسلوك أمها المشين فى غيابه مما انتهى الى طلاقها ٠ كانت تحســـد أمهـا شهوانيا لعلاقتها مع أبيها ولكن أحاسيس الذنب الناتجة عن رغبتها فى أن

تكون مكانها فتأدى بها الى أن تتوحد مع أمها ولكن لا من الناحية الشهوية بل من الناحية العقوبية ، ومن هنا نراها فى نهاية القصة تصاب بالهستيريا فى صورة ازدواج الشخصية • كانت تقضى نهارها على أحسن ما يكون من الفضيلة ولكنها تخرج من المساء لتكرر السيرة المشينة لأمها •

وفى حالة التوحد (١) مع المعتدى تذكر المثل الشهور فى صعيد مصر (ان جالك الغصب اعمله خاطر) فالنوبى رئيس الخدم أمام استبداد الباشا وبطشه وحاجته اليه فى نفس الوقت ليس أمامه الآن أن يتوحد معه وأن يصبح مع الخدم الآخرين تحت رئاسته بمثابة باشا آخر مستبد وأمام طغيان النازية لم يكن أمام اليهود الذين لايستطيعون افلاتا الا أن يتوحدوا مع النازيين ومن ثم أصبحوا على ما هم عليه من عدوانية لا انسانية وعادة ما نلتقى بميكانيزم الاستدخال فى حالات الهستيريا بينما نلتقى بالاسقاط فى البارنويا والافلات ويظل الانكار فى صورته المكتملة أهم ما يخصص الفصام •

الـكبت

الكبت هو ميل لاشعورى الى النسيان أو عدم الوعى بالحفزات والمشاعر المستهجنة الأمر الذى لايتحقق مع ذلك الا فى الكبت النـــاجح أى الاعلاء لا الكبت بمعناه الدقيق حيث يظل المكبوت فعالا •

وينبغى أن نتنبه الى ان الفكرة هى التى تكون مكبوتة أما الوجدان فان بعضه ينزاح على حفزة أخرى يجعلها مشتقا ومعنى هذا أن البعض الآخر من الوجدان يظل مع الفكرة أى حفزة والا لكان الأمر اعلاءا •

والكبت بالمعنى الدقيق هو الميكانيزم الرئيسى فى الهيستريا (معـــاملة الجنسية وكأنها غير موجودة) بينما هناك ميكانيزمات أخرى للعدوانيـــة وحيث يكون العزل لاتكون هناك حاجة للكبت طالما أن الفكرة معزولة عن التنفيذ •

وعليه فمصير المكبوت بمعنى الكلمة هو ازاحة بعض الطاقة على حفزة

---

(١) يقال أيضا التطابق ، والتعيين الذاتى ، والتقمص مما ينتج عن الاستدخال •

فتصبح مشتقا مما يبدو فى المغالاة والقوة المسرفة لهذه الحفزة التى أصبحت مشتقا وأحيانا ما يتم كبت المشتق « كبت ثانوى » ومن ثم يعبر الكبت عن نفسه فى صوره :

(أ) ذكريات حاجبة أو أفكار حصارية ٠
(ب) فجوات فى الذاكرة ٠

وما دام المكبوت يظل فعالا تكون ضرورة تواصل الكبت أى انفاق الطاقة ونضوبها ، ومن هنا يكون الشعور بالتعب والدونية وضمانا لعدم انبعاث المكبوت يظهر التجنب « فوبيات » أو اتجاهات مضادة « تكوينات مضادة » وما الى ذلك ٠

التكوين المضاد

اتجاهات تتميز بالمغالاة والجمود والعمومية ٠٠ فالتكوينات المضادة كما رأينا نتيجة تلزم عن كبت مستقر وضمان لاستمراره فى تجنب للحاجة الى كبوتات ثانوية فتصبح الشخصية مستعدة على الدوام وكأن الخطر ماثل دوما ٠ ومعظم السمات المرضية للشخصية هى من هذا النوع خاصة فى العصاب القهرى حيث يعمل أيضا ميكانيزم المحو وميكانيزم العزل وسيان استخدمت التكوينات المضادة حفزات غريزية مضادة للحفزة الأصلية أو قامت بتطوير اتجاهات مضادة للاتجاهات الأصلية المستهجنة فانها تظل دائما نوعا من الضمان للابقاء على الكبت وجبهة أمامية متقدمة لاستمرار هذا الكبت ٠

فالابن عندما يكبت أحاسيسه العشقية المستهجنة تجاه أمه كثيرا ما يستعين بتكوينات مضادة من كراهيته لأمه بحيث يحرص على أن يكون دائما فى سوء تفاهم معها يحميه من كل غواية محتملة ٠

والفرد الذى يكبت عدوانية شديدة كثيرا ما يضع أمامها واجهة من التكوينات المضادة قوامها الدماثة المسرفة والأدب الجم مع الجميع وفى كل الظروف ٠ وأحيانا ما تكون الرقة المسرفة عند النساء تكوينا مضادا يخفى

وزاء عدوانية قوية ، وأحيانا ما تكون النزعة النباتية عند بعض الناس تكوينا مضادا أيضا لعدوانية عارمة ٠

المحـــو

رأينا أن التكوين المضاد قوامه اتجاه مضاد لاتجاه الحفزة الأصلية ، أما المحو فقوامه عمل شيء ايجابى مضاد بشكل حقيقى أو سحرى لما تم فعله فى الواقع أو فى الخيال « فعلان قهريان » ثانيهما عكسى مباشر للاول ٠

وأحيانا لا يتم المحو باتيان فعل معاكس بل باتيان قهرى للفعل نفسه ولكن بدلالة لاشعورية مخالفة فالهدف هو اتيان الفعل نفس الفعل وقد تحرر من دلالته اللاشعورية الخفية ، فاذا ما اندس جزء من الحفزة الأصلية فى التكرار الأول لزم أن يضطرد التكرار ومن هنا ظواهر التكرار والعد والشك فى الاعصبة القهرية ٠

مثال : مهندس فى الخامسة والعشرين من عمره كان فى طفولته يتصل جنسيا بشقيقته وبلغ الأمر الى الاتصال الكامل بها ٠ كان يتحدث عن ذلك فى جلسات التحليل النفسى بكل هدوء ودون أى احساس بالذنب وكأنه يتحدث عن مسألة عادية مشروعة ٠ كان من الواضح أنه قد عزل فكرة الاتصال الجنسى بشقيقته عن الوجدان العادى المصاحب ونعنى الشعور بالذنب ـ وقد اتضح بعد ذلك أنه قد ربط هذا الاحساس بالذنب الذى عزله بشيء آخر هو الزنا ٠ كانت فكرة الزنا لديه تجعله يثور بكل عنف استنادا الى القيم الدينية٠ كان قد التقى بعد تخرجه وفى الدراسات العليا بزميلة بيضاء ممتلئة تزيد على المائة كيلو فى وزنها بحيث كانت عيناها لاتكاد تظهر من اللحم المتراكم فى وجهها ٠ كان كل همه أن يجعل الزملاء يضحكون منها فلم يكن يستطيع أن يمنع نفسه عن السخرية منها ٠ ولم يكن هذا بالطبع غير دفاع ضد ما يستشعره فى أعماقه من ميل جارف اليها ٠ قال فى وصفها « ماشفتش واحدة فى رخامتها غير أمى » وبعد أشهر كان قد تزوج منها وكانت المفاجأة فبعد كل مرة يتصل بها جنسيا يشعر بقلق عارم يحيل حياته الى جحيم ولا يستطيع أن يهدأ قبل أن يتخيل زميلة من زميلاته فى العمل أو جارة من جاراته ويستمنى عليها ٠ بذلك كان يهدىء تماما ٠

لم يكن بوسعه أن يضاجع أخرى بعدما ان ارتبطت كل مشاعر الذنب لديه بالزنا · (ذلك بعد عزلها عن فكرة الاتصال الجنسى بشقيقته) كانت الدلالة اللاشعورية لاتصاله بزوجته تعنى اتصاله بأمه ومن هنا كان القلق الذىيجتاحه ، ومن هنا أيضا كان يتحتم عليه أن « يمحو » ذلك ويلغيــــه باتصالا بأخرى لاينطوى على المحارمية وحيث أن الزنا شىء لايمكن تصوره فقد كان يستمنى على أية امرأة أخرى · وبذلك نكون قد تبينـــــا العزل وما يستتبعه من وصل وتبينا أيضا المحو ·

ومن الشائع فى الحياة أن يشعر بعض الأزواج (عندما يتصل الواحد منهم أثناء نهاره بأخرى) برغبة قهرية فى الاتصال بالزوجة ان كان له أن يهدأ أو ينام · فى هذه الحالة تكون وظيفة الاتصال المشروع بالزوجة هى محو الاتصال الغير مشروع الذى تحقق أثناء اليوم · وفى طقوس الحياة الدينية التى تقوم على التكفير والاستغفار أفضل تجسيد لميكانيزم المحو فى حالاته السوية ·

وبالنظر الى أن تكرار الفعل ، نفس الفعل وان يكن بدلالة أخرى يضطلع بوظيفة المحو فكثيرا ما تشيع عند العصابيين القهريين ظاهرة التنـــــاظر ، بمعنى أن يصطدم قدمه بحجر صغير فى الطريق فلا يستطيع أن يتحرك من مكانه قبل أن يضرب بقدمه الأخرى نفس هذا الحجر الصغير ، ممـــا يعنى المحافظة على التوازن بين الغريزة والدفاع ومن هنا فان العصابى القهرى يفضل دائما الأعداد الزوجية لأنها لاتخل بالتوازن بين الجنبــات الغريزية والدفاعات الأخلاقية ·

العـــزل

ان المكبوت فى الهستيريا هو الحادثة الصدمية · اما هنا فالمكبوت هو الوصلات والدلالة الانفعالية لا المحتوى الفكرى · فالاستثمار المضاد هنـا يعزل ما ينتمى بعضه الى بعض وأهم أشكال العزل هى :

(أ) عزل فكرة كدره عن بقية الشخصية ·

(ب) عزل الشهوية عن العاطفية فى الجنسية فلا شـهوة حيث الحب

والعكس (يحبون حيث لا يشتهون ولا يشتهون حيث يحبون) ٠

ومن هنا فعندما يشعر الفرد بالحب يكون عاجزا من الناحية الانسانية كما يظهر فى قصة « السراب » لنجيب محفوظ وأيضا فيلم « قاع المدينة » ٠

ففى قصة السراب حيث تعمل قسوة الأم على تثبيت الابن يجد نفسه من زوجته التى هى من نفس طبقة أمه فى حالة حب ولكن يظل عاجزا معها كرجل بينما ينطلق بقدراته الجنسية مع الراقصة التى لا تنتمى لخط الأم ان جاز القول ٠

وفى مثل هذه الحالة يكون العزل منذ الطفولة كدفاع ضد ما يعانيه الصبى من صراع عندما يشعر بحبه لأمه وبانه يشتهيها جنسيا على الرغم من كونها ذروة المحارم ٠ عندئذ يعزل الحب عن الشهوة بحيث يكون عاجزا جنسيا مع كل من يحبها ويقتدر جنسيا حيث لاحب ومن هنا أهمية نظام البغاء فى العالم ٠

وفى فيلم « قاع المدينة » لاتختلف البداية عن قصة السراب ولكن البطل بعدما ينجح جنسيا مع زوجة الساعى تغمره الفرحة فيغدق عليها المال ويكاد من فرحته أن يستشعر الحب نحوها ، وفى هذا ولاشك ما يهدده بالعجز الجنسى ٠ ومن هنا يتحول البطل فجأة الى البخل والعدوانية ليبقى على قدرته الجنسية معها فقد شرعت مع اغداقه المال عليها ترتفع بمظهرها عن طبقتها الى طبقة أمه ٠

(جـ) عزل الحب عن الكراهية فى صراعات التناقض الوجدانى ٠
يصبح الحب بعد الزواج خالصا للأم بينما تلتصق العدوانية بالحماه ٠

(د) عزل مجالات الحياة بعضها عن بعض عند الأطفال ٠
ما يمثل الحرية الجنسية عن ما يمثل الفضيلة ٠

(هـ) عزل الفكرة عن طاقتها الانفعالية ، على النحو الذى رأيناه فى ما تلقاه فى ميكانيزم المحو ٠

ومن هنا يمكن للمضامين الفكرية المستهجنة أن تصبح شعورية ما دامت معزولة عن وجدانها وعن الفعل ٠ فالقهرى غالبا ما يهرب من الانفعـــالات الملاعبة الى عالم الأفكار اللهم الا ان يعيش الانفعال بحسبانه تجريبيا أو تلهيه أى معزولا عن الجدية وفى الاجترارات الحصارية للافكار أحيانا ما تعـود الانفعالية المكبوتة فتكتسب الأفكار أهمية مسرفة ٠

(و) ازدواج الشخصية يقوم على العزل اذا كان الشخص يعرف وجود الحالة الأخرى والا كان الأمر يقوم على الكبت ٠ ويورد «فينخل» فى كتابه « نظرية التحليل النفسى فى العصاب » ترجمة مخيمر ـ الحالة التالية التى توضح استفحال العزل ٠

فى البداية استمناء بغير شعور إثم عند شاب عمره (١٧ سنة) تم تحذير من القس من الاتصال بأى شخص يستمنى وعندئذ يتجنب « الولد الذى يستمنى » وضمانا لتجنب هذا الولد استحدث فوبيات وقهور معينة :

(أ) يبصق كلما التقى « بالولد المتجنب » ٠

(ب) لا اتصال بالولد أو أسرته أو أصدقائه ٠

(جـ) تجنب صالونات الحلاقة فوالد « الولد المتجنب » حلاق ٠

(د) تجنب من يحلق ذقنه عند الحلاق ٠

(هـ) تجنب الحى الذى به صالون حلاقة والد « الولد المتجنب » ٠

(و) اشترط على نساء اسرته عدم الذهاب للحى المنـــــوع وتألم من رفضهن طلبه ٠

(ز) مضى هو فى تجنب الحى ولكن بدأ يفكر بشكل حصارى فى الحى ويتألم من التفكير فى شىء غير لائق فى وجود نساء الأسرة ٠

(ح) يفكر فى الشىء غير لائق (الولد) فيفكر فى جدته (العقدة الأوديبية أساس الاستمناء) وكان يتألم من هذه الوصلة ولا يستريح حتى يحقق الفصل (يفكر فى الشىء الممنوع دون مصاحب من الأشياء اللائقة) ٠

(ط) التقسيم الى لائق وغير لائق اتسع فشمل جميع الأشخاص والأماكن

وانهماك طول اليوم فى الوصل والفصل واستحالة التحول عن نشاط أو مكان يحدث فيه الوصل الا بعد أن يحقق الفصل ٠

(ى) عودة المكبوت وتردد المريض على الأماكن غير اللائقة ثم كرس نفسه للتفكير فى الأشياء غير اللائقة (استمناء متصل وأحيانا حين يشتد التوتر الفكرى يجد نفسه يقذف) ٠

ومن حيث النشأة يعد التابو القديم للمس الأنموذج الأولى للعزل فكل حفزة غريزية تستهدف فى الأصل لمس الموضوع ٠

النـــكوص

عند الاحباط عادة ما يبرز حنين الى أنماط ماضية من الاشباع كانت أكثر اكتمالا ٠ وتعتمد شدة الحنين على مدى تردد الفرد فى تقبل الأساليب الجديدة للاشباع وعلى مدى تثبيته على أساليب أسبق من الاشباع ٠ ذلك هو النكوص ٠ فثمة تتام بين النكوص والتثبيت (بقدر ما يكون الانتظام قبل الانسالى قويا يكون الانتظام الانسالى ضعيفا ويسهل على الشخص التنازل عنه كشىء غير هام فالفرد الذى لديه مثلا تثبيت على الأستية يتقدم على مضض الى الأوديبية ويظل مهيأ لأن يتخلى عن هذا الاكتساب الجديد أمام احباط أو تهديد هين ٠ ولكن الاحباطات أو المخاطر أو التهديدات الشديدة يمكن أن تثير النكوص حتى فى حالة تثبيتات غير قوية ٠ والنكوص ميكانيزم دفاعى يوجد فى كل الأمراض ومع ذلك فدور الأنا فى النـــكوص مختلف عن دورها فى الميكانيزمات الدفاعية الأخرى اذ تكون سلبية تعانى النكوص لا ايجابيـــة تستعين بوسائل أوائلية فى الدفاع ٠

ويرجع النكوص فيما يبدو الى أن الغرائز عند احباطها ومنعها عن الافراغ المباشر تبحث عن بديل ومن ثم فشرط النكوص ضعف من نوع خاص فى تنظيم الأنا وهناك نوعان من النكوص ٠

النوع الأول من النكوص :

من الجنسية الراشدة الى الطفلية وهو الشرط السابق اللازم للأعصبة٠

فعندما تتعرض الجنسية الراشدة لاحباط أو تهديد يمكن أن ينكص الراشد الى هذا المستوى من جنسيته الطفلية المثبت عليه لا شعوريا أى الى هذا المستوى الذى سبق كبته فبقى على حاله فى اللاشعور ولكن كيما ينشأ العصـــاب ينبغى أن يتسبب هذا الابتعاث للجنسية الطفلية فى ابتعاث الصراعات القديمة فاذا كان النكوص شاملا بحيث لا يقتصر على ذلك بل يحل الانتظـــام قبل الانسالى الأستى بنزعاته محل الانتظام الانسالى فذلك هو العصاب القهرى (فالقهرى شخص تنازل عن انساليته واصبح من جديد استياساديا) ٠

النوع الثانى من النكوص :

من الجنسية الراشدة الى النرجسية الأولية أى مرحلة اللاتمايز السابقة على تمايز الأنا عن الهى ٠ فى هذه الحالة يبرز أقدم نمط للدفاع وتعنى غلق الأنا معا يسمى بالفصام (شيزوفرينيا) ٠

تلخيص :

١ ـ الصراع العصابى هو حفزة غريزية خطرة تولد القلق فيـــولد الدفاعات ولكن الحفزات الغريزية الخطرة هى عند فرويد » جنسية أساسا وعند « أدلر » عدوانية ٠٠ الخ ٠ وتكون هى المسئولة عن توليد القلق عنــد « فرويد » وعن توكيد الشعور بالدونية عند « أدلر » ٠٠ الخ ٠

وهذا القلق يستنهض ميكانيزمات الدفاع عند فرويد والتى هى أسلوب الحياة عند أدلر وعمليات الأمن عند « سوليفان » والصور المثالية ونسق الغرور عند هورنى ٠٠ الخ ٠

٢ ـ ميكانيزمات الدفاع هى مفهـــوم لفهم الشـــخصية ٠ ففى التحليل نتبين الدفاعات النوعية من خلال المقاومة ومن ثم نصل الى الحفزات الغريزية التى انكبتت لأنها خطرة ٠

مثـــال : طبيب كان فى تعلق شهوى باخته فى الطفولة واثناء لعبة الجنس معها ضبطه الأبوان وأوقعا به عقوبة شديدة ومع الوقت ظهرت لديه الدفاعات التالية :

● دفاعات من حيث هى أساليب غير مباشرة للتعبير عن الرغبة (بدأ يعتقد أنه ليس ابن ابيه وأمه مما يعنى أن اخته غير محرمة له وتفوق شديد فى الدراسة حتى لايكون مدينا لهما ، هذا الى تحريره فكرية معرفية تبيح الجنسية المثلية ولا تقتنع بتحريم العلاقة الجنسية مع الأخت) ٠

● وظهرت دفاعات من حيث هى تسد الطريق على الحفزة (انسحاب الليبدو من القضيب الى الأست وأصبحت الممارسات كلها مثلية تنصب على استه أو تتجه الى است الآخرين) ٠ كما ظهرت دفاعات التكفير ضد الشعور بالأثم الناجم عن استمرار الرغبة فى الأخت (اقتصار على ٥ ساعات من النوم بحيث يظل طوال اليوم متعبا ٠ مع الهرب فى العمل المتصل بشكل قاتل وكأنه يحطم نفسه) ٠

٣ – ميكانيزمات الدفاع ليست قوانين مجردة – بل هى كما رأينا مبادىء لتفسير السلوك وفهمه ، هى أساليب يفهمها المحلل ضمن سياقها كدفاع ضد حفزة خطرة بعينها ثم تتكرر بعد ذلك عند الشخص ٠ فالعملية هى اعادة بناء الواقع أى منهج جاليلى ٠ ومن هنا لم يحاول فرويد حصرها وتصنيفها فى قائمة هذا الى تداخلها ٠

٤ – ميكانيزمات الدفاع تعتبر نظرية تفاعلية فى الشخصية وهى تفضل نظرية ماكدوجال التى تغفل الصراع بين الدوافع ، ونظرية ليفن التى تغفل البعد الزمنى وهذه النظريات كلها نظريات تقوم على العليه الشبكية بالقياس الى نظريات العلية الخطية مركزية كانت أم محيطية ٠

٥ – هناك مجرد الميكانيزمات التى هى العمليات الأولية للهى وهناك ميكانيزمات الدفاع التى تنتمى الى الأنا وتنقسم هذه الميكانيزمات الأخيرة الى:

(أ) ميكانيزمات الدفاع الناجحة (الاعلاء) عن طريق ضرب الحفزة ضربا مائلا ٠

(ب) ميكانيزمات الدفاع الفاشلة عن طريق الضرب العمودى للحفزة ٠

٦ – تتكون الأعراض من تفاعل الشخصية والبيئة ٠ والشخصية جبلة

وخبرة والبيئة احباطات شديدة أو هينة متراكمة أو هينة لها دلالة خاصة ٠

٧ ـ اذا لم يكن هناك استعداد عصابى أى العصاب الطفلى فالفرد يتغلب على الاحباط ٠ أما عند وجود الاستعداد العصابى فالاحباط يؤدى الى نكوص جزئى يضيف طاقة الى المكبوتات فتقوى وتشرع فى العودة وتضربها الدفاعات فتكون المحصلة هى الأعراض المرضية ٠

الأعراض ونشاة الأعصبة النفسية :

ينشأ العصاب النفسى نتيجة للتفاعل ما بين الشخصية والبيئة :

١ ـ (أ) الشخصـــية من حيث هى جبلة « وراثة » يعترف التحليل النفسى بدور الوراثة ولكن يعتبرها الجدار البيـــولوجى الذى تتوقف أمامه المحاولة العلمية والعملية ٠ فالأفراد يتفاوتون فى تأثرهم بالاحبـــاطات والمثيرات تبعا لاستعداداتهم الفطرية ٠ وكذلك تتفاوتعند الأفراد شدة الحاجة الجنسية والاستجابة العدوانية تبعا لاستعداداتهم الفطرية ٠ وبديهى أن هذه العوامل تتأثر بدورها بالخبرات التى يعيشها الفرد ٠

(ب) الشخصية من حيث هى خبرة : ليس هناك عصـــاب نفسى دون استعداد عصابى أى دون عصاب طفلى ٠ والتحليل النفسى هو الذى كشف عن الأهمية الحاسمة للعصاب الطفلى ومرحلة التثبيت والميكانيزمات الدفاعية الخاصة بهذه المرحلة التى حدث عندها التثبيت ٠

فالتثبيت ينتج اما عن احباط شديد تصاحبه زيادة فى النشاط التخيلى أو ينتج عن اشباع مسرف يجعل الشخص عاجزا عن تحمل الاحباطات اللاحقة ومن ثم ينكص أمامها الى مرحلة الاشباع المسرف فيكون ذلك فى تثبيته ٠ ويعتبر « فرويد » أن عقدة أوديب هى نواة العصاب يتخطاها السوى بينما لا يقدر المريض على تصفيتها بالدرجة الكافية ٠

٢ ـ البيئة المحيطة : تلعب البيئة دورها كعلة حافزة عن طريق اثارة الاحباط فى بعض الحالات يتجسد أثر البيئة فى حادث شـــديد اليم كخيانة زوجته الحبيبة وفى حالات أخرى يتجسد أثر البيئة فى احباط هين نســبيا

ولكنه مستمر يتراكم مع الوقت مما قد يحدث فى حالة زوجة عصابية غير محتملة وفى حالات أخرى يتجسد أثر البيئة فى حادث عادى ولكنه ينطوى بالنسبة الى الفرد على دلالة خاصة مثل قتل كندى كوجه أبوى ٠

٣ ـ أمام احباطات البيئة يستطيع الفرد حين لايكون لديه استعداد عصابى أى عصابطفلى أن يتحمل هذا الاحباط وأن يجيب عليه بسلوك متكيف يتجه به مثلا الى موضوع آخر جديد ٠

أما اذا كان لدى الفرد استعداد عصابى فانه :

(أ) يستجيب للاحباط بعزوف جزئى عن العالم الخـــارجى وبزيادة تعويضية فى النشاط التخيلى ٠

(ب) بذلك تستقل الحاجات الغريزية عن العلاقات الواقعية وعن رقابة الأنا كيما تحظى باشباع وفق مبدأ اللذة ٠

(ج) نكوص الى مرحلة أسبق واضمن وابتعاث اهتمامات أقدم عهـدا كانت تتيح له الاشباع ومن ثم يصل به النكوص الى نقطة التثبيت ٠

(د) ولكن النكوص لايكون كليا فتستمر الأنا فى تأدية وظائفهـــا بأسلوب سوى الى حد كبير ومن ثم تستعين الأنا بالميكانيزمات الدفاعيـــة لتمنع هذه الحفزات المكبوتة التى يتشبث بها الآن الليبدو النـــاكص من أن تحصل على اشباع مباشر مكتمل والا كانت الانحرافات الجنسية ، وكلما اخفقت بعض الدفاعات قامت الأنا بتعبئة دفاعات غيرها لتسد الطريق على هذه الحفزات ما لم تتخذ أسلوبا من المصالحة يمكن للأنا أن تتبناه وتعبر به عن نفسها ٠

وهكذا فهناك جانب من الأنا ذهب به النكوص الى نقطة التثبيت ـ يبتعث الحفزات ـ المكبوتة بينما يقف جانب آخر فى وجه هذه الحفزات فيمنعهـا من العودة ٠

(هـ) ومن هنا لاتستطيع الرغبات المكبوتة أن تظهر بشكل مباشر بل فى

صورة بديلة على نحو ما يحدث في الحلم ، هذه الصورة البديلة هي الأعراض المرضية تحقق اشباعا جزئيا وغير مباشر للحفزات اذ تسد في الوقت نفسه الطريق على هذه الحفزات اللاشعورية · ومن هنا فالعرض المرضي مصالحة ومحصلة للرغبات المكبوتة ودفاعات الأنا ·

(و) هذه العوامل كلها لاشعورية ولكن النشاط الشعوري وقبل الشعوري للأنا يكون استخدامه بشكل يساير المصالحة التي تمت على نحو ما يحدث في الحلم ويظهر بصفة خاصة في التبرير ·

(ز) مما سبق نرى أن الأعراض النفسية تحقق للمريض شيئا من التخفيف لتوتره اللاشعوري بعدما تعذر عليه الكبت الناجح ويتعذر عليه الافراغ الكامل المباشر ، هذا الافراغ الجزئي غير المباشر هو المكسب الأولي للعصاب · ولكن المريض اذ يستغل أعراضه العصابية فيمارس نفوذا معينا على بيئته ويحقق مكاسب معنوية لنفسه فذلك هو المكسب الثانوي للعصاب فهذان المكسبان الأولي والثانوي من شأنهما أن يدفعا بالمريض الى ان يتحالف مع العرض المرضي وأن يتشبث به على الرغم مما يلحق به من أذى · ومن هنا تكون مقاومته للشفاء الذي يقضي على العرض · وهكذا فان المريض يتحالف مع المرض وفي نفس الوقت يقاوم المرض ، والاعراض المرضية تتحالف مع الحفزات المكبوتة وفي نفس الوقت تقاوم هذه الحفزات المكبوتة (طبيعة ديالكتيكية) ·

ملحـــق

نظرية جديدة فى الاسقاط ص ٨٧

هذه صورة من الخطـــــاب الذى بعثت به الى أخى الدكتور/ حسين عبد القادر (١) أيضاحا لبعض النقاط واجابة على بعض التساؤلات التى أثارها معى فى مناقشاتنا العديدة الساخنة حول نظريتى الجديدة فى الاسقاط والتى أقوم فيها بتطبيق النهج الجاليلى فى تناول الوقائع على كل مظـاهر الاسقاط ٠

١ ـ لا علم بغير مجانسة ، لأنها السبيل الوحيد الى تحقيق مبـــدأ الاقتصاد فى العلم ٠ فبغير المجانسة يستحيل على العملية العلمية من حيث هى اعادة بناء للوقائع أن ترد كثرة الوقائع المتماثلة الداخلة تحت (جنس واحد) الى وحدة النظرية التفسيرية أو القانون التفسيرى الواحد وذلك ببنائها الأنموذج الهيكلى للظاهرة أى ببنائها لنمط العلاقة المثالية القائمة بين الجنابات الرئيسية للظاهرة ٠ وهذه العلاقة مثالية بمعنى أنها لا يمكن أن تتحقق فى الواقع العيانى الا بشكل تقريبى ٠ فبالنظر الى تباين السياقات البيئية ممـا يعرف « بالشرطية » تتخذ هذه العلاقة المثالية صورة فريدة من التجسد فى كل حالة عيانية (أنظر قانون الجاذبية وقانون تدحرج الأجسام على سطح مائل فى مقدمة مخيمر لكتاب « كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية » سامية القطـــان

٢ ـ وبناءا على ما سبق لا تكون هناك ثلاثة أصناف من الاســـقاط مما ينتمى الى التفكير بلغة الفئات فى النهج الأرسطالى ، بل هناك أنموذج هيكلى واحد ينطوى على علاقة مثالية واحدة تتبدى فى تشكيله لا متناهية من التجسيدات المتباينة بتباين السياقات البيئية ٠

وعليه لا يوجد صنف من الاسقاط قوامه ميكانيزم دفاعى ، ولا يوجد صنف آخر من الاسقاط تتحدد حدوده بالادراك ، ولا يوجد صنف ثالث وأخير تتسع حدوده بحيث تشمل كل ما يصدر عن الفرد من مسالك ٠ بل وأكثر من ذلك أنه لا يوجد « جنس » للاسقاط يمكن عزله عن الصور الأخرى التى تتخذها

---

(١) محاضر فى نظريات التحليل النفسى بقسم علم النفس بكلية الاداب ، جامعة عين شمس ، وفى نظريات الفن بمعهد السينما بأكاديمية الفنون ، وسكرتير نقابة المهن التمثيلية ، هذا كله بالاضافة الى أنه واحد من أكثر ممثلينا اقتدارا ، ومخرج يعـــد بالكثير بالنسبة الى مستقبل الاخراج فى شرقنا العربى ٠

المحصلات الناجمة عن دينامية الحقل أى صراع عوامله الذاتية الداخلية مع عوامله الخارجية البيئية · ومن هنا كانت أزمة فرويد وكان خلطه فى حديثه عن ميكانزماته الدفاعية · فلا حدود فاصلة بل ولا يمكن أن تكون هناك حدود فاصلة (١) بين ميكانزمات دفاعية كالاسقاط (٢) والاذاحة (٣) والصيغ بالمثالة (٤) فكلها ازاحة يسقط بها الفرد بعض نفسه على موضوع خارجى أو يزيح بها بعض ما فى نفسه عن موضوع الى آخر ويستوى فى ذلك أن تكون المادة النفسية التى يضفيها على الموضوع الخارجى أمثل آماله وفضائله أو أقبح مخاوفه ورذائله · فعندما يهلوس الفرد رغباته فيستبقها بالاشباع انما يدافع عن كيانه تماما كلما يفعل عندما يهلوس مخاوفه فيستبقها بالاستبعاد · فالذى يتوهم لنفسه الخير والفضيلة يدافع عن كيانه كذلك الذى يتوهم لنفسه البرء من الشر والرذيلة · فالأمران وجهان لعملة واحدة هى دفاع الفرد عن كيانه ·

(٥)

وهذا يذكرنا بعمليتى التوحد (١) (٥) والتناحى فى نظرية الجشطلت · فالتوحد مع اللذة أو الفضيلة هو عندما ننظر اليه من الناحية الأخرى ليس غير تناحى عن نقائضهما ، وهكذا تبقى العملية الدفاعية واحدة رغم تباين وجهيها · ثم ما الغريب فى ذلك والتحليل النفسى يرد الفوبيات فى أصلها الى الرغبات بحيث يتكشف « الخوف من » دائما ابدا عن « رغبة فى » · كل ذلك وما اليه من دينامية الوقائع وديالكتيكية الحياة يسخر تماما من كل محاولة للتقطيع وعبث التصنيف فى فئات · والتحليل النفسى كما نعلم لا يقصر الميكانيزمات الدفاعية على المرضى بل يسحبها لتشمل الأسويا ونعنى الدرجات

---

(١) فميكانزم الانكار هو نوع من الكبت كما أن الكبت نوع من الانكار ، وكان فرويد فى البداية يستخدم مصطلح الكبت للتعبير عن كل الدفاعات · وكذلك المحو فانه تكوين مضاد ممعن بينما التكوين المضاد نوع من المحو الخ ·

(٢) Projecstion

(٣) Displacement

(٤) Idealization

(١) unification أى اقامة الوحدة مع عناصر أخرى فى الحقل ، فليس المقصود هنا التوحد بالمعنى التحليل Indentification

الهينة من العصابية · فالاختلاف انما ينحصر فى الدرجة والشدة مما يتفق مع النهج الجاليلى بمفاهيمه عن السلسلية (serial concepts) وعن المتصل الواحد continuum

وفى كتابه عن التناقض الوجدانى ، وفى تناول جديد فى تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية اتيح لمخيمر أن يبلغ الى تحقيق المجانسة ليس فقط بالنسبة الى كل أشكال العلاج النفسى بل وأيضا وبالنسبة الى كل الصور التى تتخذها الأعصبة · ولم يكن فى هذه الناحية الأخيرة يبتعد كثيرا عن عبارة « فينخل » الشهيرة والتى يرينا فيها كيف أن التشخيص لا ينبغى أن ينصب على الأمراض بل على الميكانيزمات وذلك لأن هذه الميكانزمات الدفاعية حتى عندما نعتبرها نمطية (وفى هذا من التجاوز ما فية) فانها تنتظم فى كل حالة على نحو فريد ، بحيث تكون اللوحة الكلينيكية فى كل حالة أشبه ماتكون ببصمة الأصبع أو ورقة الشجرة (١) · من هنا كانت أهمية الموائمة Accomodation فى التشخيص ومن هنا أيضا يتضح ومن جديد أنه ما من علمنفس ممكن الا بالحالة الفردية (أنظر مقدمة مخيمر لكتاب « كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية » ، سامية القطان) ·

٣ ـ وفى مناقشة للرسالة التى تقدم بها «حسين عبد القادر للماجستير» الفصام : بحث فى العلاقة بالموضوع كما تظهر فى السيكودراما ، أبان عن أن السيكودراما ليست غير تنويعة variety وكوكبة من بين تشكيلة التباينات التى يمكن أن يتخذها النمط الكيفى الواحد لكل العلاجات النفسية· فاذا ما تصورنا متصلا continuum يمضى من الأعماق اللاشعورية للفرد الى أفعاله الخارجية الصريحة مع الآخرين وبينهم لكان بوسعنا أن نتصور عديدا من النقاط الوسيطة التى تقع بين الطرفين القصويين ، وليس من شك فى أن رغبات الأعماق ، يتحتم عليها أن تعانى التحريفات والتشويهات كلما اقتربت من السطح ، توافقا منها بالضرورة مع مقتضيات العالم الخارجى ، خاصة عندما تستحيل الى أفعال خارجية صريحة · واذا كان التحليل النفسى يمضى ما وسعه الجهد الى أقرب ما يستطيع من النبع

---

(١) ومن هنا فالادق هو تشخيص الميكانيزمات لا تشخيص الاعصبة « فميكانيزمات الدفاع » تمثل عناصر نمطية تشكل ائتلافاتها اللانمطية غالبية الاعصبة الواقعية عند الافراد « فينخل ١٩٦٩ صفحة ٢٠٤ ، الجزء الثانى ·

ليمسك بالحفزات والدفاعات فى عالم الأحلام وأحلام اليقظة ، وما يصطنعه من حالة شبه حلمية بفنيه التداعى الطليق . فان السيكودراما تحاول أن تمسك بنفس الشيء فى عالم « الأحلام » التى يلعبها أصحابها أقوالا وأفعالا مع الآخرين وبينهم ضمن اطار من ضحالة الانتظام ، وضحالة التحدد ، بما لا يختلف عن لوحات التات t.A.t. فى الاختيارات الاسقاطية » · تناول جديد فى تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية ص ١٥ ، ١٦ ·

واذا أردنا التعبير عن هذا كله بلغة أخرى لقلنا مع « جوتا » بأن ما هو فى الداخل هو أيضا فى الخارج ولكن بقدر ما يبعد « التمخرج » عن النبع تبرز التحريفات الدفاعية وان ظلت الصورة التى يتخذها التمخرج فى كل حالة مجرد محصلة للعوامل الذاتية داخل الفرد فى صراعها مع العوامل الخارجية البيئية · ان العناصر الداخلية العميقة فى الفرد شأنها شأن الحسناء العارية فى مخدعها والتى يتحتم عليها أن تمعن فى اخفاء مفاتنها بقدر ما تمعن فى تقدمها الى العالم الخارجى حيث تتربص بها تلك النظرات الشرهة التى تتحرق الى تمزيق أستارها التهاما لمفاتنها ·

وهكذا يتلخص الأمر كله فى تلك الدينامية المخصصة للحقل النفسى والتى يكون السلوك (وليس الادراك غير ضرب من السلوك) بمثابة المحصلة التى تنجم عن عوامل الفرد الذاتية فى تفاعلها مع شروطه البيئية شريطة أن نضع فى اعتبارنا الطبيعة الدفاعية للسلوك البشرى سيان فى ذلك استباق الرغبات بالتحقيق فى الهلوسات والخيالات الخ أو استباق المخاوف والوصمات بشتى صور الانكار فى الادراكات والتصرفات · بذلك تتحقق المجانسة ليس فقط للاصناف الثلاثة المزعومة للاسقاط بل وأيضا لكل الصور الدفاعية التى يستعين بها الكائن البشرى فى توافقه على هذه الأرض ·

وخلاصة ما سبق أن الأنموذج الهيكلى والنمط الكيفى لكل صور الاسقاط انما ينحصر فى الطابع الدينامى والدفاعى (١) للسلوك ·

(١) كل ظاهرة نفسية تدافع عن كيانها ضد كل تغيير مما يعرف بقانون الامتلاء وأحسن جشطلت ممكنة ، بالهوميوستازس والانضباط الذاتى (أنظر فى « علم النفس العام ») التعليق على مصطلح الفرد فى تعريف الشخصية ص ١٣٣) ·

(أ) فالسلوك محصلة العوامل الذاتية للفرد فى تفاعلها مع شروطه البيئية ومن ثم فهو يمثل درجـــــة من درجات التمخـــــرج تزداد بزيادتها وبالضرورة الطبيعة الدفاعية للسلوك ·

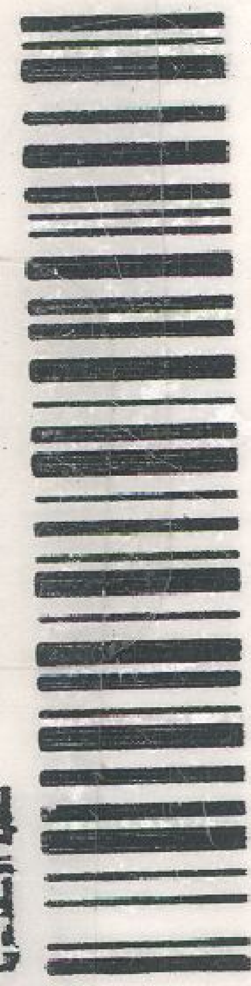
(ب) السلوك دفاعى فى طبيعته · فاشباع الرغبة دفاع ضدها طالما أن صميمها هو توتر · هذا الى أن الاشباع دفاع ناجحيتيح الافراغ بشكل مباشر بينما الاعلاء دفاع ناجح لا يتيح الافراغ الا بشكل غير مباشر ·

هذا عن الاشباع ، وفيما عدا ذلك فكل شىء يسلم الجميع بانه دفاع وان كان من المستحيلفى الحقيقة العثور على سلوك غير دفاعى · وقد رأينا كيف تتداخل الدفاعات وتتشابك بحيث يكون من المستحيل التمييز بينها ومن قبيل ذلك ان استباق الرغبات بالتحقيق كما يحدث فى الأحلام والقصص الاسقاطية انما هو بمعنى ما « انكار » لواقع ما يزال قاصرا ينطوى على الاحباط ، وكذلك الحال وبدرجة أوضح عندما يلصق الفرد مخاوفه الأليمة وكل ما يستهجنه بالعالم الخارجى فانه انما « ينكر » بذلك انتسابها الى ذاته · وفى هذا ولاشك ما يجعل الاسقاط فى هاتين الحالتين الأخيرتين مجرد أسلوب من أساليب الانكار · فالاسقاط فى شتى صوره يتداخل ويتشابك مع الأساليب الدفاعية الأخرى التى تزداد تعقدا ولا شك كلما ازدادت درجة المخرجة (١) بحيث يغدو ما هو فى الداخل شديد التحريف ، على النحو الذى يبدو عليه بالفعل ·

ويكون على الاستبصار التحليلى فى كل حالة أن يكشف فى نهاية الأمر عن صدق مقولة « جوتا » التى تقرر بان ما هو فى الداخل هو أيضا فى الخارج (مهما حرفته الدفاعات تطويعا لمقتضيات الشروط البيئية) ·

سامية القطان

رقم الايداع ٤٢٣٦ لسنة ١٩٨٠
الرقم الدولى ـ ٠٤٦ ـ ٢٦٦ ـ ٧٧



Bibliotheca Alexandrina
0658012